المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

شرح المناجيات الخمس عشرة

الجزء الثالث

تدوين: **كريم سبحاني**

ترجمة: **وليد محسن**

مراجعة وتقديم: **محمد الربيعي**

دار المعارف الحكمية

Dar Al maaref Alhikmiah

ثمن قراءة الكتاب ذكر الصلاة على محمد وال محمد وعجل فرجهم 10 مرات بنية تعجيل الفرج

شرح المناجيات الخمس عشرة

الجزء الثالث

شرح المناجيات الخمس عشرة

الجزء الثالث

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

تدوين

السيد كريم سبحاني

ترجمة

وليد محسن

مراجعة وتقديم

الدكتور محمد الربيعي

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-151-4

[٢٠١٩م - ١٤٤١هـ]

العنوان: لبنان – بيروت – سان تيريز - سنتر يحفوفي – بلوك c – ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

تصميم:

علي بزي

إخراج فني:

ماجد مصطفى

طباعة

DBOUK
00961 3 336218
info@dboukart.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

شرح مناجاة المُفتَقرين ٩

المقال السادس والأربعون: مناجاة المفتقرين (١) ١١

المقال السابع والأربعون: مناجاة المفتقرين (٢) ٢٧

شرح مناجاة العارفين ٣٩

المقال الثامن والأربعون: بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (١) ٤١

المقال التاسع والأربعون: بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (٢) ٦١

المقال الخمسون: بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (٣) ٧٧

المقال الحادي والخمسون: بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (٤) ٩٣

المقال الثاني والخمسون: مظاهر معرفة الله ومحبّته ١٠٥

المقال الثالث والخمسون: الغايات المقدّسة عند أولياء الله ١٢١

شرح مناجاة الذاكرين ١٣٧

المقال الرابع والخمسون: أهمّية وعظمة ذكر الله ١٣٩

المقال الخامس والخمسون: منشأ ذكر الله وعوامل تقويته ١٥١

المقال السادس والخمسون: مظاهر ذكر الله وآثاره ١٦٥
المقال السابع والخمسون: بحث في حقيقة اللذّة واحتياجات الإنسان ١٧٥
المقال الثامن والخمسون: ضرورة ذكر الله وعلاقته بذكر الله لنا ١٨٩

شرح مناجاة المُعتصمين ١٩٧
المقال التاسع والخمسون: الاعتصام بالله (١) ١٩٩
المقال الستّون: الاعتصام بالله (٢) ٢١١

شرح مناجاة الزاهدين ٢٢٥
المقال الحادي والستون: زُهد أولياء الله، ونبذهم الدنيا وملذّاتها (١) ٢٢٧
المقال الثاني والستون: زهد أولياء الله، ونبذهم الدنيا وملذّاتها (٢) ٢٤١
المقال الثالث والستون: زهد أولياء الله، ونبذهم الدنيا وملذّاتها (٣) ٢٥٩

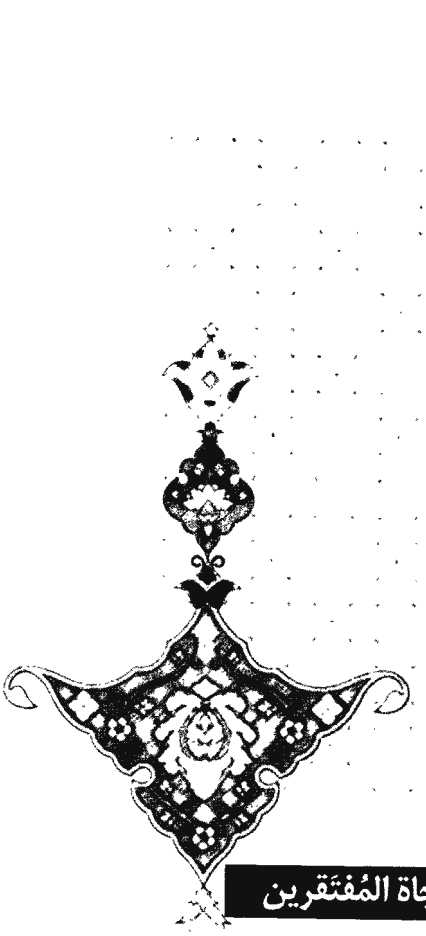

شرح مناجاة المُفتَقرين

المقال السادس والأربعون
مناجاة المفتقرين (١)

إدراك معنى الفقر الذاتي ودوره في بلوغ الكمال والقرب من الله

ننتقل الآن إلى شرح وتحليل مناجاة أخرى من المناجيات الخمس عشرة للإمام السجّاد عليه السلام، وهي مناجاة المفتقرين.

كلمة «مفتقرين» جمع «مفتقر» وهي مأخوذة من مادّة «فقر»، وتعني الحاجة والعوز.

وحول عنوان هذه المناجاة، يُطرَح السؤال التالي: ما هي الخصائص التي تضمّنتها عبارات هذه المناجاة، ليصحّ أن نُطلق عليها مثل هذا العنوان؟

ولفهم الإجابة على هذا السؤال لا بد من القبول ببعض الأصول والنقاط المهمّة التي طرحناها في المباحث السابقة، وأحد تلك الأصول هو الاعتقاد بحقيقة أن علة خلق الإنسان هي العبودية وعبادة الله تعالى، حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

---

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.

فالإنسان لن يصل إلى مرحلة الكمال بدون العبادة والعبودية الحقّة لله تعالى، وحقيقة العبودية هي أن يفهم الإنسان ويُدرك معنى كونه عبدًا لله ويطبّق ذلك على نفسه.

والعبودبة تعني أن الإنسان لا يملك شيئًا من عنده أبدًا، حتى نفسه والأشياء التي حوله ليست ملكًا له؛ بل هي ملك لله. فملكية الإنسان على ممتلكاته ملكية اعتبارية، كما هو الحال في ملكية المولى لعبيده، فهو يملك العبد ملكًا اعتباريًا بعد أن يشتريه بماله؛ لكن حتى هذا النوع من التملّك فيه شيء من المسامحة، لأن المولى لا يملك حقيقةً ذات العبد؛ بل يملك عمله وثمرة أفعاله، فيحقّ له الانتفاع من جهده وعمله.

وقد وضعت بعض العبادات، كالصلاة والحج والصوم، لفهم هذه الحقيقة، فالله تعالى هو مولى ومالك كل شيء؛ لأن الإنسان يُظهر في هذه العبادات الخاصّة معنى عبودّيته الحقّة لله. والأعمال الصالحة الأخرى وأعمال الخير تعتبر أيضًا نوعًا من العبادة، وتكمل صورة عبودية هذا الإنسان لربّه.

إن العبادة والعبودية الحقّة لله تعالى تتحقّق بسجود الإنسان وركوعه في الصلاة أو بقيامه بعمل صالح بنيّة القربة إلى الله؛ لكن ذلك يتوقّف على ضرورة أن يعتقد هذا الإنسان أنه فقير ومحتاج حقًّا إلى ربّه في كل شيء.

ولا شك في أنّ الإنسان لا يكتشف حقيقة فقره وحاجته وأن كل شيء في هذا العالم ملك لله إلّا متأخّرًا جدًّا، كما حصل مع قارون حيث ينقل لنا الله تعالى في القرآن الكريم أنه كان يعتقد أنه كَسَبَ هذا المال والثروة العظيمة بعلمه وجهده، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَ لَمْ

﴿يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1].

والكثير منا يعتقد أن ما وصلنا إليه اليوم من علم ومعرفة ومقام ومكانة في المجتمع، إنما تحقّق بفضل جهودنا وقدراتنا العلمية والاجتماعية وسعينا الدؤوب للاستفادة من الإمكانات الموجودة؛ أو نعتقد أنّنا نملك كل جوارحنا وأعضاء بدننا من عينٍ ويدٍ وقدم.

ولذلك فحتى نصل إلى مرحلة العبودية الحقّة لله تعالى يجب أوّلًا، أن نعتقد تمامًا أننا لا نملك أي شيء مما نحتاجه في حياتنا اليومية، ولا بدّ أن يمنّ الله بها علينا حتّى نتمكّن من الاستفادة منها. وثانيًا يجب أن نسعى لكسب رضا الله وتوفيقه حتى يمنحنا كل ما نحتاجه في حياتنا، وهذا لا يتحقّق إلّا بالعبادة والعبودية الحقّة لله.

أما أولئك الذين يعتقدون بحاجتهم إلى غير الله، ويضطرون حتى يصلوا إلى مبتغاهم بالحصول على المال مثلًا من شخص ثري، إلى التذلّل والخضوع له ومدحه أو إلى أن يُقدموا على أي عمل حتى يعطف عليهم ويتصدّق بشيء من المال عليهم، فهم بهذا العمل قد أظهروا في الواقع عبوديّتهم لهذا الشخص، أو أن يلجأ البعض - من الذين يسعون لكسب المقام والمكانة في المجتمع - إلى خداع الناس بالكلام المعسول والمراءاة بالسلوك الصالح حتى يكسبوا احترامهم وتقديرهم، فهم بذلك يُظهرون العبودية للناس، وهذا السلوك نوع من الشرك الخفي؛ أوَليس العزّة والاحترام والثروة من عند الله، وكل ما يملكه الناس إنما حصلوا عليه بفضله وكرمه تعالى؟

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٧٨.

إذًا، يجب أن يعتقد الإنسان اعتقادًا تامًا أن الله مالك كل شيء، وجميع الخلق هم الفقراء والمحتاجون إلى فضله ونِعَمه، وأن كلّ ما عندهم إنما حصلوا عليه بفضله عزّ وجلّ، فإذا ما أدرك الإنسان هاتين المقدّمتين الذهنية والمعرفية؛ أي اعتقد أوّلًا أنه محتاج إلى الله تعالى وسعى لكسب رضاه وتوفيقه، واعتقد ثانيًا أنه لا يحتاج إلى أي أحد غير الله، ولجأ إلى الله في توفير جميع احتياجاته، حينئذٍ سيزداد عنده الحافز لعبادة الله وإظهار العبوديّة الحقّة له سبحانه.

الطغيان والتمرّد، نتيجة الشعور بعدم الحاجة إلى الله تعالى

إذا فقد الإنسان الشعور بحاجته إلى الله تعالى، فإنه لن يفقد الحافز لعبادة الله والعبودية له تعالى فحسب؛ بل سيسعى لإيجاد بديل عن الله، كما فعل فرعون عندما اعتقد بعدم حاجته إلى الله، حيث قال كما حكى الله عنه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

ويقول الله في آية أخرى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2]؛ فإذا ما طغى الإنسان سيشعر بعدم حاجته إلى الآخرين وسيستغني حتّى عن الله، فلن يتذلّل له بعد ذلك ولن يدعوه لقضاء حاجاته، حيث سيفكّر في نفسه قائلًا: أنا أملك كل شيء، لديّ عين ويد وقدم، أرى وأعمل وأتحرّك بها، وأمتلك الثروة والمال الوفير فلا أحتاج إلى أن أتذلّل لله أو أطلب منه شيئًا، وهذا يعني أن هذا الإنسان إذا ما فقد كل هذه الأشياء أو تعرّضت حياته للخطر، فإنه سيشعر بفقره وحاجته الكاملة إلى الله تعالى، وحينئذٍ سيعود إلى ربّه ليناجيه ويتضرّع إليه

---

(١) سورة **النازعات**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **العلق**، الآيتان ٦ - ٧.

أن ينقذه مما آلت إليه حاله، وقد وصف الله هذه الحالة بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1]، فعندما يشتدّ تلاطم أمواج البحر وتتعرّض السفن إلى خطر الغرق، يشعر مَن على ظهرها بالخطر المحدق، ويدركون أن لا ملجأ لهم في هذه الساعة إلا الله تعالى، ويتوجّهون إليه بكل جوارحهم داعينه مخلصين له الدين، أن نجّنا مما نحن فيه؛ لكن ما أن ينقذهم ويوصلهم إلى برّ الأمان حتى ينسوا كل شيء، ويعودوا مرّةً أخرى إلى طغيانهم وشركهم بالله.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

كيف نُدرِك حاجتنا إلى الله تعالى؟

اتّضح مما تقدّم أن العبودية الحقّة لله تعالى لا تتحقّق ما لم يُدرك الإنسان فقره وحاجته الدائمة إلى الله تعالى، وحتى يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الإدراك، فإن عليه أن يفكّر أوّلًا بالأشياء التي لا يمتلكها، ويعتقد بحاجته إلى الله لتهيئتها والحصول عليها؛ لأنه إذا ما فكّر بالأشياء التي يمتلكها فسوف لن يقبل بسهولة حقيقة أنها ليست ملكه، أو أنها أمانة من الله عنده، ما لم يشعر بفقره وحاجته إلى ربّه.

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٥.

(٢) سورة **يونس**، الآية ٢٢.

بعد ذلك ينتقل إلى المرحلة الثانية، وهي التفكير والتدبّر في الأشياء التي يمتلكها، فيجب أن يعتقد أنها ليست ملكه، وإنما هي ملك لله منّ بها عليه.

كما يجب أن يفكّر في حاله وفي أنه لم يكن سوى نطفة من ماء مَهين، فمنّ الله عليه بالعلم والقوّة والعزّة والمكانة في المجتمع وكل ما يحتاجه في هذه الحياة، وفي أنه ما يزال في حاجة إلى ربّه لبقاء هذه النِعم وعدم زوالها عنه؛ لأن الله قادر على سلبها منه مرّةً أخرى، وإعادته فقيرًا عاجزًا محتاجًا لا يملك شيئًا. فَمَن يصل إلى هذه المرحلة من المعرفة، ويُدرك حقًّا أنه فقير محتاج تمامًا إلى ربّه، سيعتقد أن كل شيء يصدر عنه - حتّى الكلمات التي ينطق بها وتجري على لسانه - إنما يصدر بمشيئة الله وإرادته، فلو نطق بكلمة لن يستطيع نطق كلمة أخرى ما لم يشأ الله ذلك، ولو استنشق الهواء النقي، فلا يستطيع أن يخرج الهواء الفاسد دون مشيئة الله؛ لأن الشهيق والزفير يجريان بإرادة الله ومشيئته.

قد يحدث أحيانًا في الصلاة أثناء قراءة سورة الفاتحة، وبعد أن يقرأ المصلّي الآية الأولى أنه ينسى الآية الثانية، أو يشكّ في عدد الركعات، وهذا دليل على ضعف الإنسان وحاجته.

وقد يُـدرك الإنسان أحيانًا الأشياء التي يحتاجها؛ لكن يعتقد أن الآخرين كالأب والأم والصديق والأستاذ يمكنهم تلبية هذه الاحتياجات وتهيئتها له، فهو يعتقد بتأثيرهم ودورهم المستقلّ في تلبية احتياجاته؛ مع أنّ عليه أن يُذعن بأن هؤلاء الناس ليسوا سوى وسائل وضعهم الله في طريقه حتى ينفّذ بواسطتهم مشيئته وإرادته، ولو لم يشأ الله لعجزوا عن تلبية أدنى شيء من تلك الاحتياجات؛ لأن حال الآخرين كحالنا، هم فقراء

محتاجون إلى رحمة الله وكرمه، وما لم يمنّ الله عليهم بالثروة والعلم والقدرة فإنهم سيعجزون عن مساعدتنا.

تأثير مناجاة المفتقرين في إدراك حاجتنا إلى الله تعالى

تؤدّي مناجاة المفتقرين دورًا مهمًّا في مساعدة الإنسان على إدراك حقيقة فقره وحاجته إلى الله، وتقوّي عنده الاعتقاد بحاجته المبرمة إلى الله من رأسه إلى أخمص قدميه، سواء في ما يمتكله أو ما لا يمتلكه.

يجهل الإنسان، في أغلب الأحيان، قيمة النِعمة التي بين يديه ما لم يفقدها، ثم يفهم بعدها أن الله هو الذي مَنّ بها عليه؛ لأنه لو كان يملكها حقًّا لما فقدها؛ ولهذا نجد الله تعالى بين الحين والآخر يلجأ إلى سلب النعمة من الإنسان حتى لا يُصاب بالغرور والغفلة.

وعلى ضوء هذا الأسلوب التربوي المؤثّر، نجد بعض المؤمنين الملتزمين بالتهجّد وإقامة صلاة الليل لا يوفّقون أحيانًا لأداء هذه الصلاة، وذلك لأن الله يريد بهذه الوسيلة أن يفهمهم أن إرادتهم وعزمهم ليس لهما أي تأثير في استيقاظهم من النوم للتهجد وإقامة صلاة الليل؛ بل الدور الأساس في ذلك إنما هو لتوفيق الله وإرادته.

وقد يُعاقِبُ اللهُ عبدَه على ما يرتكبه من ذنب أو غفلة، فيسلب النعمة منه، لِما لسلب هذه النعمة من تأثير في تذكّر الإنسان وتوبته والعودة عن غفلته.

إن القراءة والتدبّر في الأدعية والمناجيات - ومنها مناجاة المفتقرين - تُساعد الإنسان على إدراك فقره الذاتي، وتقوّي اعتقاده

بحاجته إلى الله تعالى في كل شيء، وبأن كلّ ما عنده من الله، وبأنه إذا ما احتاج إلى شيء فإنه يجب أن يطلبه من الله أيضًا.

ونظرًا إلى ما تتضمّنه الأدعية والمناجيات وكلمات المعصومين عليهم السلام من مفاهيم عرفانية، ومعاني قيّمة، ومعارف إلهيّة، وأساليب تربوية رائعة، قال الإمام الراحل قدس سره: «القرآن كلام الله النازل، والأدعية القرآن الصاعد»[١]؛ أي إن الله تعالى علّم رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وألهم الأئمة الأطهار عليهم السلام هذه المعارف القيّمة حتى يرتشف عباده العطشى لمعارفه الأصيلة من مائها الزلال فترتوي أرواحهم وترتقي إلى أعلى مراتب الكمال.

ولمّا كانت هذه الكلمات النورانية نازلةً من عند الله، فستعود سريعًا لتصعد إليه تبارك وتعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٢].

ونظرًا إلى قيمة المعارف الإلهيّة والمفاهيم المعنوية التي تتضمّنها الأدعية والمناجيات، وتأثيرها الكبير على روح الإنسان وسلوكه، ينبغي أن يقرأ الإنسان هذه الأدعية والمناجيات بتفكّر وتدبّر في معانيها، وعليه أنّ يُهيّئ روحه وجسده لكي تنسجم وتتفاعل مع هذه المعاني السامية، فلا يكتفي بمجرّد القراءة الصرفة؛ فأحيانًا يقرأ الإنسان هذه الأدعية والمناجيات كألفاظ مجرّدة دون تدبّر في معانيها، كحال من لا يفهم العربية، عندما يقرأ الدعاء، ولا يجد الترجمة مكتوبةً أسفل الكلمات لفهم معانيها، فيكون حينئذٍ قد تلفّظ بالكلمات وقرأ الدعاء؛ لكنه لم يحقّق الهدف والغاية من قراءة هذا الدعاء.

---

(١) الإمام الخميني، **صحيفة النور**، الجزء ١٣، الصفحة ٣٢.

(٢) سورة **فاطر**، الصفحة ١٠.

وفي أحيان أخرى يقرأ الإنسان الأدعية الواردة عن أمير المؤمنين والإمام السجّاد والأئمة المعصومين عليهم السلام، ويفهم معانيها؛ لكنَّ فهم هذه المعاني رغم أهمّيته لا يكفي؛ لأن الأهم هو أن تخرج هذه الكلمات من قلب الإنسان وروحه. ولا يتحقّق هذا الأمر ما لم تكن روح الإنسان وجوارحه متناغمةً مع قراءة كلمات هذه الأدعية ومتجاوبةً مع معانيها.

ولتحقيق هذه الغاية يحتاج الإنسان إلى تهيئة عدد من المقدّمات والشروط اللازمة ليصبح مستعدًّا استعدادًا كاملًا من الناحية النفسية والمعنوية لقراءة الدعاء، وبعدها عندما يقرأ الدعاء ستخرج كلماته من أعماق قلبه وتتناغم جميع جوارحه مع معانيها، فتترك تأثيرًا كبيرًا على روحه وجسده.

فإذا ما هيّأ الإنسان نفسه وقرأ مناجاة المفتقرين بتفكّر وتدبّر عميق، فإنه سيدرك حاجته، وسيُعلم أن الله هو وحده القادر على تلبية احتياجاته.

ونحن يجب أن نُدرك فقرنا وفاقتنا إلى الله، وأنه ليس بإمكان أحد غير الله تلبية احتياجاتنا، وعلينا أنّ نعتقد أن الآخرين أيضًا فقراء ومحتاجون إلى الله مثلنا، ولا يمكنهم فعل أي شيء بشكل مستقلّ عن إرادة الله ومشيئته.

نقرأ في المقطع الأوّل من مناجاة المفتقرين، قول الإمام السجّاد عليه السلام:

«إِلَهِي كَسْرِي لا يَجْبُرُهُ إِلَّا لُطْفُكَ
وَحَنَانُكَ، وَفَقْرِي لَا يُغْنِيهِ إِلَّا عَطْفُكَ

وَإِحْسَانُكَ، وَرَوْعَتِي لَا يُسَكِّنُهاَ إِلَّا أَمَانُكَ».

المصداق الأوضح لمعنى «الكسر» هو كسر العظم، ويقع في مقابل ذلك «الجبر»، والمعنى الأوضح له هو جبر العظم وترميمه وإصلاحه، ولكن من المسلّم به أن المراد من الكسر في هذه المناجاة ليس هو كسر العظم؛ بل هي استعارة وكناية للتعبير عن كل نقص وعيب موجود في نفس الإنسان أو قد يظهر خلال حياته، فالإمام عليه السلام يقول: إلهي لا يجبر نقصي وعجزي سوى لطفك ورحمتك، ولا أحد يغنيني بعد فقري وفاقتي إلّا عطفك وكرمك وإحسانك؛ لأن الآخرين فقراء مثلي لا يمكنهم رفع حاجتي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

يسعى الإنسان في العادة نحو الراحة والهدوء والاطمئنان، لأنها من الاحتياجات الطبيعية والفطرية والنفسية لبني البشر؛ لكن حياة الإنسان مليئة بالاضطراب والتغيير، ويزداد هذا الاضطراب تبعًا لتعقّد مشاكل الإنسان وزيادة فهمه ومعرفته وتفكيره في مستقبله وفي ما يدور حوله، إضافةً إلى قلقه حول ما سيؤول إليه مصيره بعد الموت، وما سيواجهه من أوّل ليلة في القبر، وما ينتظره في عالم البرزخ ويوم القيامة؛ ولهذا نجد الإمام السجّاد عليه السلام يدعو ربّه أن يخفّف من شدّة وطأة هذه الليالي عليه، ويخاطبه: «**وَرَوْعَتِي لَا يسَكِّنُهاَ إِلَّا أَمَانُكَ**».

ثم ينتقل الإمام عليه السلام في مناجاة ربّه إلى مطالب واحتياجات أخرى، فيقول:

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ١٥.

«وَذِلَّتِي لا يُعِزُّها إلَّا سُلْطانُكَ، وَأُمْنِيَتِي لا يُبَلِّغُنِيها إلَّا فَضْلُكَ، وَخَلَّتِي لا يَسُدُّها إلَّا طَوْلُكَ، وَحاجَتِي لا يَقْضِيها غَيْرُكَ، وَكَرْبِي لَا يُفَرِّجُهُ سِوى رَحْمَتِكَ، وَضُرِّي لا يَكْشِفُهُ غَيْرُ رَأْفَتِكَ».

الكل يفهم ويُـدرك ما يبتغيه الإمـام من هـذه العبارات، لكن العبارات التي تليها تضمّنت احتياجات ومطالب لا يمكن أن يُدركها أو يفهمها الجميع؛ لهذا ما لم يفهم الإنسان ويُدرك معنى هذه المطالب والاحتياجات لن يشعر برغبة في تلبيتها وتهيئتها، فالجميع يشعر بالفقر والعوز والحاجة ويحسّ بمشاكل الدنيا ومصاعبها؛ لكن القليل من يُدرك لوعة القلب وحرقته من نار الهجر وفراق المعبود، فلا يشعر بهذه اللوعة وحرقة القلب سوى من تذوّق حلاوة اللقاء والقرب من المحبوب:

«وَغُلَّتِي لا يُبَرِّدُها إلَّا وَصْلُكَ، وَلَوْعَتِي لا يُطْفِيها إلَّا لِقاؤُكَ، وَشَوْقِي إلَيْكَ لا يَبُلُّهُ إلَّا النَّظَرُ إلى وَجْهِكَ، وَقَرارِي لا يَقِرُّ دُونَ دُنُوِّي مِنْكَ، وَلَهْفَتِي لَا يَرُدُّها إلَّا رَوْحُكَ، وَسُقْمِي لا يَشْفِيهِ إلَّا طِبُّكَ، وَغَمِّي لا يُزِيلُهُ إلَّا قُرْبُكَ».

ثم يواصل الإمام عليه السلام مناجاة ربّه، فيقول:

«وَجُرْحِي لا يُبْرِئُهُ إلَّا صَفْحُكَ، وَرَيْنُ قَلْبِي لا يَجْلُوهُ إلَّا عَفْوُكَ، وَوَسْواسُ صَدْرِي لا يُزِيحُهُ إلَّا أَمْرُكَ».

فجراح الجسد يمكن شفاؤها بالدواء والعناية الطبية؛ لكن الجراح الناشئة عن الطغيان والغرور والمعصية أخطر جدًا من جراح الجسد؛ لأنها تصيب روح الإنسان وقلبه، وبالتالي لا يمكن شفاؤها إلا بدواء رحمة الله وعفوه ومغفرته.

كذلك القلب الذي تصدّأ من كثرة الذنوب والمعاصي لا يمكن صقله إلا بالتوبة، ولا يمكن إزالة ما شابه من صدأ إلا بعفو الله ومغفرته.

والنقطة الأخرى التي يمكن أن نستفيدها من هذه الكلمات النورانية للإمام السجّاد عليه السلام هي أنّ الوساوس والشبهات التي قد تتسلّل إلى قلوبنا تشكّل حجابًا مظلمًا يمنع وصول الإنسان إلى اليقين والاطمئنان بالحقائق والمعارف الإلهيّة، ولا يمكن للقلب الملوّث بالشبهات والمعاصي طيّ مسير الكمال والتعالي. وكلّما تمكّن الإنسان من إزالة هذه الشبهات وتطهير القلب من المعاصي، زاد اعتقاده بحقّانية طريق الله وتقدّم بخطوات ثابتة في مسير الكمال والتعالي.

كذلك معرفتنا وفهمنا للأوامر الإلهية وعلامات الهداية التي يضعها الله في طريقنا والعمل بها، ستساعدنا على طرد الشيطان من حريم القلب وتطهيره من المعاصي، فيصبح مهيّأً لاستقبال نور الله تعالى.

ترجيح الاحتياجات المعنوية على الاحتياجات المادّية

ذَكَرَ الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاته عددًا من الاحتياجات، وقال إن الله هو الوحيد القادر على تلبيتها وقضائها. بعض هذه الاحتياجات لها مفهوم عام، وهي ذات مصاديق مادّية ومعنوية، فلا شك أنّ المصاديق المعنوية هي الأهم والأوْلى من المصاديق المادّية.

فيجب علينا أن نسعى لمعرفة هذه المصاديق المعنوية وتشخيصها حتى نهتمّ أكثر بها ونطبّقها على أنفسنا، فالفقر مثلًا له مصداق مادّي معروف للجميع، ومحسوس لأولئك الذين يعانون من العوز والحاجة ويعجزون عن تأمين احتياجاتهم المادّية؛ فتجدهم يسعون إلى معالجة الفقر ويضعون طلب الرزق الحلال ورفع الفقر والفاقة عنهم في مقدّمة طلباتهم من الله عندما يدعونه ويناجونه، لكن الأشدّ والأدهى من الفقر المادّي هو الفقر المعنوي، مما يفرض علينا الحرص على تشخيصه والاعتقاد بوجوده ثم السعي إلى رفعه، والطلب من الله في أدعيتنا ومناجاتنا أن يساعدنا وينقذنا من براثنه.

وعند قراءتنا لمناجاة المفتقرين، يجب علينا تصحيح اعتقاداتنا وأفكارنا حتى نصل إلى حال نتمكّن فيها من فهم المطالب التي ذكرها الإمام السجّاد عليه السلام في هذه المناجاة، وحينها نستطيع أن نطرح هذه المفاهيم بوضوح كشخص يشعر بها بجميع جوارحه ويفهم معانيها.

فقد نقرأ في صفحة الحوادث من الصحف اليومية خبرًا عن وقوع زلزال في مدينة ما، أو وقوع حادث سير أو حريق في أحد البيوت، ولا ريب في أنّ هذه الحوادث تسبب ألمًا وحزنًا في نفوسنا؛ لكنه لن يصل أبدًا إلى درجة الحزن والألم الذي سيشعر به أهل المصيبة ممن شعر وأحسّ بكل جوارحه عظمة هذه المصيبة وحجم الكارثة التي حلّت به.

فحالنا أثناء الدعاء والمناجاة يجب أن يكون مشابهًا لحال من شعر بتلك المصيبة، وكحال من احترقت ملابسه وعجز عن إخماد النار، فتبدأ النار تتسلّل إلى بدنه فتحرق أعضاء جسمه وهو لا يجد مغيثًا له سوى الله، فيتضرّع إليه بجميع جوارحه ويصرخ مستغيثًا: إلهي لا أحد سواك ينجيني من هذه المصيبة وهذا البلاء.

ينقل أحد الأصدقاء: كنّا في أيام الحج وفي أرض مِنْى، وقد تاه أحد الحجاج من إحدى الدول الغربية وحاول كثيرًا العودة إلى سكنه فلم يوفّق في العثور على رفاقه، وقد نقل لنا فيما بعد: أنّني في تلك الظروف لم أجد أحدًا يعرف لغتي حتّى يساعدني في العثور على المجموعة، فزاد قلقي واضطرابي ولم أجد وسيلةً للخروج من هذه المشكلة، فتوجّهت إلى الإمام الحُجّة عجل الله فرجه الشريف وتوسّلت إليه أن ينقذني مما أنا فيه، وفجأة اقترب منّي أحد الأشخاص وأخبرني بلساني أنّ رفاقك موجودون في المكان الفلاني وأرشدني إليه، وبعد أن ذهب قُلتُ في نفسي: كيف عرف لغتي، وكيف عرف أنّي فقدت رفاقي؟

إذا ما شعر الإنسان حقًّا بألم الهجران والفراق، وأنه مبتلى بالفقر المعنوي، وأدرك أنّ هذه الذنوب كأنّها النار التي تحرق روحه، سيصل إلى حال مناسبة تنسجم مع مفاهيم مناجاة المفتقرين ليتّخذ منها وسيلةً للجوء إلى الله والطلب منه أن ينقذه من هذا الفقر المعنوي.

أما إذا لم يشعر الإنسان بهذه الاحتياجات المعنوية والأساسية، واقتصر فهمه ومعرفته على الأمور المادّية والانشغال بالمشاكل الدنيوية، فإنه لن يسأل في دعائه ومناجاته سوى تلبية احتياجاته المادّية كالشفاء من المرض وتحسين حالته المعيشيّة وقضاء ديونه، وبالتالي سوف لن

يفهم ما يتحدّث عنه الإمام السجّاد عليه السلام من لوعة القلب التي لا يطفيها إلا لقاء الله التي ذكرها في قوله «**وَلَوْعَتِي لا يُطْفِيها إلَّا لِقاؤُكَ**».

إن قراءة هذه المناجاة تجعلنا نُدرك وجود احتياجات مهمّة وأساسية في حياتنا غير احتياجاتنا اليومية، قد تَنَبَّه إليها أولياء الله والخواصّ من عباده، واهتمّوا بها كثيرًا، وجعلوا تلبيتها في مقدّمة مطالبهم من الله في أدعيتهم ومناجياتهم.

إذًا، بعد أن نُدرك وجود مثل هذه الاحتياجات المعنويّة، يجب علينا الطلب المتواصل من الله أن يمنّ علينا بتلبيتها.

المقال السابع والأربعون
مناجاة المفتقرين (٢)

الضرورات المعرفية اللازمة لتحقّق الغاية من الدعاء والمناجاة

قلنا في المبحث السابق إن الأصل الكلي اللازم لتحقّق الغاية من الأدعية والمناجيات، مضافًا إلى فهم معانيها ومفاهيمها، هو أن يصل الإنسان إلى حالة معنوية مناسبة تنسجم مع المفاهيم المتعالية والمضامين المعنوية المهمّة الواردة فيها، حتى يتمكّن من فهم المقصود من إنشائها؛ إذ الدعاء نوع من الإنشاء وهو ليس من قبيل الإخبار والحكاية التي لا يقصد منها الإنسان سوى حكاية ونقل ما رواه المعصوم، فحتى تتحقّق الغاية والفائدة المرجوّة من قراءة مناجاة المفتقرين التي تحمل مضامين متشابهةً ومنسجمةً مع بعضها، يجب على الإنسان تحصيل ثلاثة أنواع من المعرفة:

١. معرفة احتياجاته الأساسية حتى يركّز عليها في كلماته وتتجسّم صورتها أمامه أثناء الدعاء والمناجاة.

٢. أن يعتقد أن قدرة الله لا حدود لها، وأنه قادر على تلبية احتياجاته وقضائها له، أما إذا لم يكن الإنسان يعتقد بقدرة الله على تلبية احتياجاته، أو ظن أن إرادة الله ومشيئته لا تتعلّق بتلبية هذه الاحتياجات، فلن يجد في نفسه الحافز الكافي للدعاء والمناجاة.

٣. أن يعتقد بأن الله هو الوحيد القادر على تلبية احتياجاته وقضائها له، والآخرين ليسوا سوى وسيلة وضَعَهم الله بإرادته ومشيئته لتلبية احتياجات الإنسان، فالإنسان قد يعتقد بقدرة الله تعالى على تلبية احتياجاته وتأمين رزقه؛ لكنّه في الوقت ذاته يعتقد أيضًا أن بأمكانه تأمين رزقه بالسعي والجد والعمل الدؤوب، أو يعتقد بقدرة الأب والأم والأخ والأصدقاء على مساعدته في تلبية تلك الاحتياجات، ولذا فلا فائدة من التوجّه إلى الله مع الاعتقاد بضرورة التوسّل بالله وبالآخرين لتأمين رزقه؛ لأنه يعتقد بوجود مستقل للآخرين، وبقدرتهم على تلبية احتياجاته بعيدًا عن مشيئة الله وإرادته. وهاتان المعرفتان الأخيرتان لهما ارتباط بمسألة التوحيد ومعرفة صفات الله تعالى.

حاجة الإنسان إلى الله في القرآن الكريم

في المرحلة الأولى يجب على الإنسان معرفة احتياجاته الأساسية للتركيز عليها في دعائه وتقديمها في طلباته عند التوسّل بالله تعالى؛ لأن الإنسان قد يعرف ما يريد وما يحتاج لكنه لا يهتمّ بتحقيق هذه الاحتياجات، فيغفل عنها ويهملها. ومهما يكن فإن الاهتمام بالاحتياجات التي يعرفها الإنسان أسهل من الاهتمام بتلبية الاحتياجات الخفيّة أو المبهمة عنده؛ ولهذا أكّد الله تعالى في كتابه الكريم على إرشاد الإنسان نحو تأمين احتياجاته الواضحة والمعروفة عنده، فيقول تعالى في الآية الشريفة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[1].

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٤٦. وقد فسّر علماء الأدب واللغة كلمة «أرأيتم» بمعنى «أخبروني».

فنحن نمتلك أعضاءً سالمةً من عين ويد وقدم؛ لكنّنا نغفل عن حقيقة أن هذه الأعضاء قد تتعرّض يومًا ما للإصابة أو الخلل، فنفقد عيننا مثلًا، أو نفقد السمع بسبب خلل في آذاننا نتيجة المرض أو حادث أو أي سبب آخر، أو قد نفقد عقلنا ونصبح في زمرة المجانين.

وحتى يجعلنا نُدرك أهمّية هذه الأعضاء ونعي نعمتها يخاطبنا الله تعالى قائلًا: كيف بكم لو سلبت منكم السمع والبصر والعقل وأنتم بأمسّ الحاجة إليها، هل يوجد أحد غيري يستطيع مساعدتكم وإعادتها إليكم؟

وعليه فيجب على الإنسان الاهتمام بالنِعم التي بين يديه، وعليه أن يعتقد تمامًا أنها من نِعم الله عليه، وأن حفظها وبقاءها وسلامتها متوقّف على مشيئته وإرادته سبحانه.

وفي آية أخرى حول أهمّية وجود الليل والنهار بالنسبة لاستمرار حياة الإنسان في هذه الدنيا، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[1].

فالليل والنهار ضروريان لوجود الإنسان ولاستمرار حياة جميع المخلوقات الحية في هذه الدنيا، لأن الإنسان يحتاج الليل للراحة وتجديد الطاقة حتى يستعد في نهار اليوم التالي للعمل وكسب الرزق وتدبير أمور معاشه. فلو سلب الله منا هذه النعمة، ولم يعقُب النهارُ الليلَ، وتوقفت حركة الأرض والقمر واستمر الليل حتى يوم القيامة، فهل يوجد أحد غير الله يستطيع إنهاء الليل وإعادة النهار، لتنعم الخلائق مرةً أخرى بنوره.

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٧١.

وفي الآية التي تليها، يبين الله تعالى الفوائد الكثيرة لليل، ومنها جعله سكنًا للناس ووقتًا لاستراحتهم بعد نهار شاق في العمل، فيقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[2].

توضّح هذه الآيات حقيقة غفلتنا عن أهمّية النِعم التي منّ الله بها علينا، وعدم شكرنا الله على هذه النِعم، وعدم اعتقادنا بأن الله هو الوحيد القادر على رزقنا وتلبية جميع احتياجاتنا، فنحن نحتاج لاستمرار حياتنا إلى كثير من النِعم كنعمة البصر والسمع والعقل، ونحتاج إلى بقائها واستمرارها أيضًا.

ولو تصوّرنا أن الله مثلًا لم يخلق الأم، ولم يهيّئ الأسباب اللازمة لخلقنا، فهل كان يمكن أن نخرج إلى هذه الدنيا؟ وحتى بعد خلقنا، لو لم يُلق الله في قلب أمّهاتنا كل هذه العطف والرحمة والحُبّ، ولم تسهر في تربيتنا وتغذيتنا حتى نبلغ رشدنا، هل كان سيمكننا البقاء أحياء في هذه الدنيا؟

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٧٢.

(٢) سورة **الملك**، الآية ٣٠.

ترجيح الاحتياجات الروحية والمعنوية على الاحتياجات المادّية

نظرًا إلى كثرة احتياجات الإنسان في هذه الدنيا، نُدرك جيّدًا شدّة حاجتنا إلى الله تعالى، وعند قراءتنا مناجاة المفتقرين نعرف حقيقة فقرنا الذاتي ومدى حاجتنا إلى الله.

وفي هذه المناجاة، يذكر الإمام السجّاد عليه السلام أيضًا عددًا من الاحتياجات المتعالية التي نغفل عنها ولا نهتم بتلبيتها كثيرًا، وإنما ننشغل فقط بتأمين احتياجاتنا المادّية والحيوانية - كتلك المتعلّقة بالشهوة والبطن - الضرورية لاستمرار حياتنا الحيوانية وبقائنا، والتي لا نختلف فيها عن الحيوانات من جهة حاجتنا إليها.

إلا أن الاحتياجات الأساسية والأهم للإنسان هي الاحتياجات المتعالية المعنوية والإنسانية؛ بل الغاية من خلق الإنسان هي تأمين هذه الاحتياجات وتنميتها في روحه، وبالتالي لا تساوي الاحتياجات المادّية والحيوانية شيئًا بالنسبة لهذه الاحتياجات المتعالية؛ لكننا رغم ذلك نرى بعض الناس لا يهتمّون بشيء في حياتهم أكثر من تأمين احتاجاتهم المادّية والحيوانية، حتى لو اضطروا إلى اتّباع الأساليب غير المشروعة في تأمينها، وهم يغفلون عن حجم الضرر الذي تتعرّض له عاقبتهم في الآخرة.

فالإنسان لن يُدرك قيمة الغذاء وأهمّيته بالنسبة إلى حياته، ما لم يشعر بالجوع، ولن يُدرك قيمة الماء وأهمّيته ما لم يشعر بألم العطش؛ لكن احتياجاتنا المعنوية أهم وأكثر قيمةً بالنسبة إلينا من احتياجاتنا المادّية والحيوانية. نحن نسمع أحيانًا أن بعض الأثرياء يُقدمون على الانتحار نتيجةً لمعاناتهم من صدمة نفسيّة وروحيّة شديدة، أو قد ينتحر بعض العشّاق نتيجة تعرّضهم لأزمة عاطفية شديدة. وأحيانًا قد

تتوفّر النِعم المادّية عند الإنسان؛ لكن تعرّضه لآفة من الآفات - كالحسد مثلًا - التي تسلب منه هذه النِعم وتبعد عنه الراحة والهدوء، حتى أن هذه الآفة قد تبلغ درجات شديدة في نفس الإنسان تدفعه للابتلاء بقتل المقرّبين منه، كأخيه مثلًا، وذلك كما فعل إخوة يوسف بأخيهم، فرغم كونهم أولادًا لنبي الله يعقوب، إلا أنهم لمّا رأوا حبّ أبيهم ليوسف وتفضيله إياه عليهم، تملّكهم الحسد إلى درجة جعلتهم يتآمرون على قتله حتى يبعدوه عن أبيهم، ولا يروا مرّةً أخرى حُبّ أبيهم ليوسف واهتمامه به، وقد جاءت هذه القصة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[1].

ألم الهجران والفراق عند أولياء الله

فبعض الاحتياجات الروحية والنفسية عند الإنسان أهمّ وأسمى من الاحتياجات الحيوانية والمادّية، والاحتياجات المعنوية والمتعالية أهم وأسمى من جميع الاحتياجات الضروية في حياة الإنسان.

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نفهم حجم الألم الناشئ عن الهجران والفراق الذي يشعر به من أدرك مدى حاجته للقاء أجمل وأكمل محبوب، فعند هذا الإنسان يكون فراق المحبوب أقسى وأشدّ على نفسه وروحه من جميع مصائب الدنيا، ونار البعد عن المحبوب تظلّ تسعر في قلبه وتزداد لهيبًا كلّما طال الفراق ليشعر بلوعةٍ وألمٍ يصعب تحملهما.

---

(١) سورة **يوسف**، الآيات ٧ - ٩.

يصف أمير المؤمنين عليه السلام شدّة الألم الناشئ عن فراق المعبود والمحبوب، في قوله: «**فَهَبْني يا إلـهي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَرَبّي، صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ، وَهَبْني صَبَرْتُ عَلى حَرِّ نارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إلى كَرامَتِكَ**»[١].

لا شك في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يُدرك عظمة عذاب جهنّم وشدّة حرّ نارها وألم الخلود فيها أكثر من أي شخص في هذه الدنيا؛ لكنّه كان يُدرك أيضًا قساوة ألم الفراق والبعد عن المعبود؛ لذلك يصف عذاب فراق الله وألمه بأنه أشدّ وأقسى من العذاب في نار جهنّم، فنراه يقول: إلهي هبني صبرت على حَرِّ نارك وعذابها، فكيف أتحمّل وأصبر على ألم فراقك؟ كذلك الله سبحانه وتعالى يصف في القرآن الكريم سخطه على الإنسان وفراقه له، بأنه أشدّ أنواع العذاب وأقساها، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

إن هذا الإنذار الإلهي في الآية الشريفة لن يؤثّر في الإنسان ما لم يكن يُدرك أهمّية وضرورة نظر الله إليه، فيعرف جيّدًا شدّة الألم والعذاب الذي يسبّبه سخط الله وغضبه عليه وصرف نظره عنه، فيكون حاله كحال الطفل الذي يُدرك قيمة حنان الأم وأهمّية عطفها، فيعلم شدّة الألم الذي يسبّبه سخط أمّه وإهمالها له، بحيث يكون مستعدًّا لتحمّل ضربها على أن يتحمّل عذاب غضبها عليه.

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء كميل.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٧٧.

أما من لم يذق حلاوة لقاء الله، ولم يشعر بلذّة نظر الله إليه، فلن يُدرك الألم الناشئ عن سخط الله عزّ وجلّ.

إنّ الله تعالى لم يمنح الإنسان العقل حتى يوظّفه فقط لتأمين احتياجات بطنه وتلبية شهواته الحيوانية واحتياجاته المادّية؛ بل يجب توظيف هذا العقل لتشخيص احتياجاته المعنوية والمتعالية، والاستفادة منه لفهم أهمّية الارتباط بالله تعالى وإدراك المنزلة العظيمة للقاء الله، وفهم معنى المفاهيم العالية التي تتضمّنها النصوص الدينية الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ومنها هذه المناجاة التي خصّصنا هذه الصفحات لبحثها ومناقشتها.

أوَلسنا نشهد اليوم أقلّيةً من بين مليارات الناس قد آمنت بأهل البيت عليهم السلام واعتقدت بأحقّيتهم، ومن بين هذه الأقلية نرى ثلةً من الناس وفّقهم الله للاستفادة من علوم أهل البيت عليهم السلام وقراءة كلماتهم النورانية وتحليلها؟

لذا يجب على طلاب علوم أهل البيت عليهم السلام الاهتمام أكثر بدراسة النصوص الدينية الواردة عنهم، وتحصيل المعارف الإلهية التي تتضمّنها، والتدبّر بمعاني المناجيات الخمس عشرة، ومنها مناجاة المفتقرين، والاهتمام بتحليلها والاستفادة من مضامينها حتّى نبيّن بوضوح الاختلاف بيننا وبين الآخرين.

كما يجب علينا تطهير قلوبنا وعقولنا من شوائب الدنيا وزخارفها، والعمل على تزيينها بالمعارف الإلهية والمفاهيم المتعالية الموجودة في الأدعية والمناجيات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، والعمل بمضامينها والالتزام بها، والتي تعتبر - بحقّ - الـدواء الناجع للشفاء من جميع الأمراض المعنوية التي قد تصيبنا في هذه الدنيا.

المطالب المتعالية للإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى

«فَيا مُنْتَهى أَمَلِ الآمِلِينَ، وَيا غايَةَ سُؤْلِ السَّائِلِينَ، وَيا أَقْصى طَلَبَةِ الطَّالِبِينَ، وَيا أَعْلَى رَغْبَةِ الرَّاغِبِينَ، وَيا وَلِيَّ الصَّالِحِينَ، وَيا أَمانَ الْخائِفِينَ، وَيا مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ، وَيا ذُخْرَ الْمُعْدِمِينَ، وَيا كَنْزَ الْبائِسِينَ، وَيا غِياثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَيا قاضِيَ حَوائِجَ الْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ، وَيا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ، وَيا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، لَكَ تَخَضُّعِي وَسُؤالِي، وَإِلَيْكَ تَضَرُّعِي وَابْتِهالِي، أَسْأَلُكَ أَنْ تُنِيلَنِي مِنْ رَوْحِ رِضْوانِكَ، وَتُدِيمَ عَلَيَّ نِعَمَ امْتِنانِكَ».

عندما يُدرك الإنسان أن الله كمال مطلق وذو قدرة لا متناهية وهو قادر على تأمين جميع احتياجاته وتحقيق جميع رغباته، فإنه سيجعله حينئذٍ غاية أمله ومنتهى رجائه في تحقيق جميع آماله ورغباته.

وإذا ما تحقّق هذا الأمر، يجب علينا أن نجعل الله بذاته مقصد آمالنا وغاية سؤالنا، لا نِعمهِ التي منّ بها علينا، حيث يتّضح هذا المفهوم من كلمات الإمام السجّاد عليه السلام عندما يعبّر عن الله بأنه أمل الآملين، وغاية سؤل السائلين، وأقصى طلبة الطالبين، وأعلى رغبة الراغبين، ووليّ الصالحين.

وقد أسلفنا في المباحث السابقة أن الله تعالى له ولاية عامّة وولاية خاصّة، حيث تشمل الولاية العامّة جميع المخلوقات، في حين تختصّ الولاية الخاصّة بأولياء الله والخواص من عباده، وهي الولاية التي أشار إليها الإمام عليه السلام في مناجاته.

وفي *العبارات الأخيرة* في هذا المقطع من المناجاة، يسأل الإمام ربّه أن يديم عليه نِعمه ويحفظها من الزوال، وهذا يرشدنا إلى ضرورة أن لا نكتفي بطلب النِعم من الله، بل نسأله استمرارها وبقاءها وعدم زوالها عنّا، فنعي حاجتنا الدائمة إلى الله تعالى، ونجعله دائمًا منتهى آمالنا وغاية قصدنا، سواء بطلب النِعم أو بقائها واستمرارها.

«وَها أَنَا بِبابِ كَرَمِكَ واقِفٌ، وَلِنَفَحاتِ بِرِّكَ مُتَعَرِّضٌ، وَبِحَبْلِكَ الشَّدِيدِ مُعْتَصِمٌ، وَبِعُرْوَتِكَ الْوُثْقى مُتَمَسِّكٌ، إلهِي ارْحَمْ عَبْدَكَ الذَّلِيلَ، ذَا اللِّسانِ الْكَلِيلِ وَالْعَمَلِ الْقَلِيلِ، وَامْنُنْ عَلَيْهِ بِطَوْلِكَ الْجَزِيلِ، وَاكْنُفْهُ تَحْتَ ظِلِّكَ الظَّلِيلِ، يا كَرِيمُ يا جَمِيلُ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

نظرًا إلى تعاملنا المستمرّ مع الأمور المادّية والجسمانية، فنحن نحتاج في فهمنا للأمور المعنوية إلى تشبيهها بالأمور المادّية والحسّية، وبالطبع بعد تجريدها مما يشوبها من صفات حسّية ومادّية. فمثلًا عندما نقف أمام الله الغنيّ المُطلق يجب أن نشعر بضآلة قدرنا، وأننا لا نساوي أقلّ من ذرّة أمام عظمته بما يتّصف به من رحمة وكرم لا نهاية لهما،

ويرى كل واحد منّا نفسه أمام الحقّ تبارك وتعالى كموجود ذليل حقير لا ينفع ولا يضرّ، وأنه لا يخلو عن الحاجة إلى رحمته عزّ وجل، وحاله كحال من يشعر بالاختناق ويلهث إلى شمّ هواء نقيّ حتى تعود إليه الحياة، فنحن بحاجة دائمة إلى استنشاق نسيم رحمة الله حتى تتطهّر أرواحنا من أوساخ الذنوب التي تُلقي بنا نحو الضلال والانحراف الأخلاقي والمعنوي، وننعم بفضل نسيم رحمة الله بحياة طيّبة وروح طاهرة من كل الذنوب.

أما جملة «**وَبِحَبْلِكَ الشَّدِيدِ مُعْتَصِمٌ**»، فتبيّن أن على الإنسان في مواجهة المشاكل والمصاعب التي تعترضه في هذه الدنيا، وللتخلّص من عذاب النار والابتلاءات التي يتعرّض إليها نتيجة ما يرتكبه من ذنوب ومعاصٍ، أن يرى نفسه كالمعلّق في الهواء لا يستطيع إنقاذ نفسه من السقوط والموت المحتوم سوى بالتمسّك بحبل الله وطاعة أوامره والانتهاء عن مناهيه، ليصل بعدها إلى بَرّ السعادة والأمان.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام ليصف نفسه أمام عظمة الله، فيقول: «**إِلهِي ارْحَمْ عَبْدَكَ الذَّلِيلَ، ذَا اللِّسانِ الْكَلِيلِ وَالْعَمَلِ الْقَلِيلِ**»، أي إلهي أنا لا أرجو شيئًا من عملي؛ أوّلًا لأنه حصل بتوفيقك ومنّك عليّ، وثانيًا لقلّته وضآلته، فهو لا يساوي شيئًا أمام عظمتك؛ فلا يمكن أن أعقد أملي عليه لينقذني مما أنا فيه، ويوصلني إلى السعادة الأبدية؛ بل إنّ سعادتي ونجاتي مرهونة برحمتك ولطفك.

أحيانًا عندما يوفّق الإنسان في دراسته أو بتقديم خدمات جليلة لمجتمعه، أو تسنح له فرصة الدعاء كما في إحياء ليالي شهر رمضان أو يوفّقه الله للتهجّد والمناجاة في الليل، يصيبه الغرور فيفتخر بعمله ويظنّه عملًا عظيمًا.

أما الإمام السجّاد عليه السلام - ورغم عظمة شخصيّته وكثرة أعماله الصالحة وجلالة قدرها بحيث إنّ أعمالنا لا تساوي ذرّةً أمامها - إلا أنه يخجل من حقارة عمله وضآلته أمام عظمة الله وجلاله.

وكذلك كان أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد طول المناجاة والآهات والبكاء في ظلمة الليل وكثرة العبادة - التي عادةً ما كانت تستمرّ حتى الصباح - يتوجّه إلى الله ويدعوه قائلًا: «**آهِ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ وَعِظَمِ الْمَوْرِدِ**»[1].

(١) الديلمي، **إرشاد القلوب**، الجزء ٢، الصفحة ٢١٨.

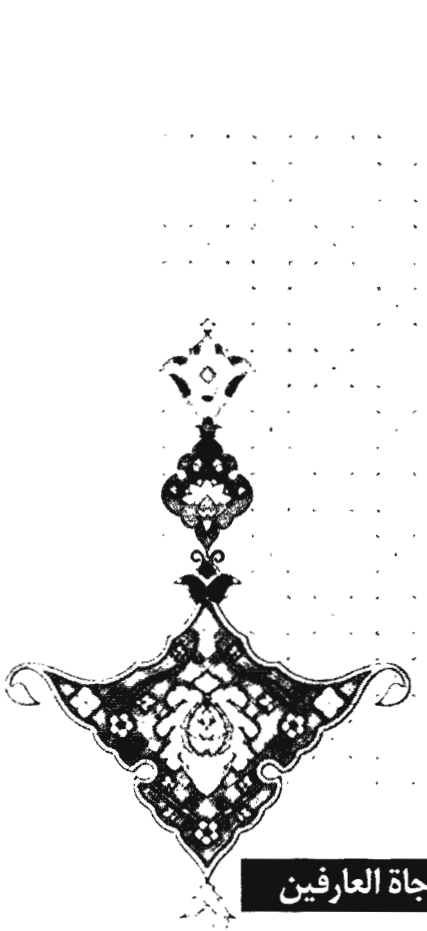

شرح مناجاة العارفين

المقال الثامن والأربعون
بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (١)

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في مطلع مناجاة العارفين:

«إلـهي قَصُرَتِ الألْسُنُ عَنْ بُلُوغِ ثَنائِكَ كَما يَليقُ بِجَلالِكَ، وَعَجَزَتِ الْعُقُولُ عَنْ إدْراكِ كُنْهِ جَمالِكَ، وَانْحَسَرَتِ الأبْصارُ دُونَ النَّظَرِ إلى سُبُحاتِ وَجْهِكَ، وَلَمْ تَجْعَلْ لِلْخَلْقِ طَريقًا إلى مَعْرِفَتِكَ إلّا بِالْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِكَ».

تشكّل معرفة الله المحور الأساس الذي تدور حوله مناجاة العارفين، ومضامينها ترتكز وتستند على هذه المعرفة؛ لذا نجد من المناسب الإشارة إلى حقيقة معرفة الله ومراتبها وطرق بلوغها وكيفية الوصول إليها.

ولفهم مضامين هذه المناجاة الشريفة لا بدّ أوّلًا من التعرّف على بعض الاصطلاحات والمسائل المتداولة في العلوم العقلية.

من المسائل المهمّة التي تُطرح في العلوم العقلية، مسألة كيفية بدء المعرفة عند الإنسان. ويطرح العلماء في باب الاختلاف بين المعرفة والعلم عددًا من الأبحاث اللغوية التي تعيد اصطلاحَي المعرفة والعرفان إلى معنى واحد فكلاهما مصدران لفعل واحد، وهما يختلفان من ناحية المفهوم عن العلم.

تُعدُّ الحواس الخمسة (البصر والسمع واللمس والشم والتذوق) من أدوات المعرفة التي تتم بواسطتها معرفة الأشياء المحسوسة، فبواسطة العين - مثلًا - يرى الإنسان الأشياء الموجودة حوله فتتحقّق عنده المعرفة بها. قد يتصور الإنسان أنه البصر يوفّر له معرفةً دقيقةً بالأشياء المحسوسة التي يراها حوله، ويعتقد أنها لا تختلف عما يراه بواسطة أداة البصر وهي العين؛ لكن التحقيقات العلمية أثبتت أن المعرفة الحاصلة للإنسان بواسطة حاسّة البصر تختلف عن الصورة التي يرسمها في ذهنه عن الأشياء المبصَرة، كما أثبتت التحقيقات العلمية أن الجسم الخارجي عندما ينظر إليه الإنسان يرسل أشعة إلى منطقة معيّنة في العين، فيترك أثرًا وصورة فيها، ثم تنتقل هذه الصورة بواسطة عصب خاصّ إلى الدماغ، وعندها تتمّ عملية الرؤية لهذا الجسم.

وعليه فالمعرفة الحاصلة للإنسان نتيجة عملية الرؤية بواسطة العين تتم بعد سلسلة من الأفعال والانفعالات بين العين والدماغ، ونحن لا نرى الأشياء كما هي في الواقع الخارجي؛ بل نراها في عيننا ومن خلال الانفعالات الحاصلة بين الأعصاب والدماغ، ثم نتيجةً للتجارب التي نكتسبها من تعدّد المشاهدات للأشياء الخارجية نحدس مكانها والمسافة

التي تفصلها عنّا، وإلّا فنحن لا نستطيع تحديد مكان الشيء بشكل دقيق؛ لأن ما نراه أمامنا ليس سوى الصورة المتكوّنة بين العين والدماغ.

بعد ذلك اهتمّت البحوث الخاصّة بالمعرفة حول الإدراكات الحسّية بمسألة مقدار الاختلاف بين هذه الصورة والواقع الخارجي ومدى مطابقتها لهذا الواقع. وهكذا بالنسبة للمعرفة الحاصلة عن طريق الحواس الأخرى حيث تنشأ نتيجةً لمكانيكية خاصّة تختلف باختلاف عمل هذه الحواس.

نحن نرى الأشياء الخارجية بألوان مختلفة، ونتصوّر أن هذه الألوان لها حقيقة خارجيّة وعينيّة؛ لكن التجارب العلمية طرحت عدّة نظريات، واحدة منها على الأقل تدّعي عدم وجود حقيقة خارجية للون، حيث اعتبرت أن الألوان التي نراها في الخارج ناشئة عن أمواج مختلفة تسقط على أعصاب العين فتظهر الأشياء أمامنا بأشكال وألوان مختلفة، وإلّا ففي الواقع لا وجود خارجي للون.

فإذا لم يكن للون وجود خارجي، فستكون معرفتنا محدودةً عن الحقائق والموجودات في الخارج، ولو كنا نرى الألوان بشكل آخر لاختلف ارتباطنا بالواقع الخارجي عمّا هو عليه الآن، ولرأينا الأشياء الخارجيّة بشكل آخر، حيث أثبتت التجارب العلمية أن بعض الحيوانات مثلًا ترى جميع الأشياء في الخارج بلون رمادي.

ومن هنا فحقيقة الأشياء التي نراها في الخارج تختلف عن الصورة التي نرسمها لها في أذهاننا، وهذه الرؤية تتحقّق لدينا بعد سلسلة من الفعاليات التي تحصل بين وسائط مختلفة.

إضافة إلى الإدراك الحسّي - الذي قلنا إنه يختلف عن الواقع الخارجي المحسوس - وبعد أن تتولّد الصور الذهنية الناشئة عن المدركات الحسّية وتثبت في الذهن، تتشكّل صورتها الخيالية في أذهاننا. والمراد من الخيال هنا معناه المتعارف في العلوم العقلية [أي القوّة المدركة للصور]، وليس بمعنى الوهم. وإن هذا الإدراك وهذه الصورة الخيالية لا يحصلان من الخارج دون واسطة؛ **بل يحصلان نتيجةً لما ندركه** بواسطة الحواس وما يجري عليه بعدها من أفعال وانفعالات مختلفة.

فالصورة الناشئة عن هذا الإدراك الحسّي - والتي تبقى عالقةً في أذهاننا بعد غياب المحسوس - يُطلق عليها مصطلح الصورة الخيالية، كالصورة التي تبقى في أذهاننا عن المجلس الذي حضرنا بالأمس مثلًا، فهي اليوم حاضرة في أذهاننا رغم أننا لم نحضر المجلس مرّةً ثانية ولم نُدركها بحواسنا.

وبعبارة أخرى: التصوّرات والصور الحسّية، هي تصوّرات تنشأ نتيجة الارتباط الحاصل بين الأعضاء الحسّية والحقائق المادّية، كالمناظر والصور الخارجية التي نراها بواسطة العين أو الأصوات التي نسمعها بواسطة الأذن.

أما التصوّرات الخيالية فهي الصور التي ترسمها قوّة الخيال عن الأشياء الخارجية في النفس بعد غياب المحسوس عنها، مثل الصورة الباقية في أذهاننا عن المنظر الجميل الذي شاهدناه بالأمس.

إذًا فنحن، في مراحل المعرفة، ننتزع مفاهيم ماهويةً وكليّةً من التصوّرات الحسّية والخيالية التي تمثّل في طبيعتها مفاهيم جزئيةً لا تنطبق على أكثر من مصداق واحد، كمفهوم السواد والبياض اللذين لا ينطبقان إلا على مصداق واحد فقط. ويُطلق على هذه المفاهيم مصطلح

المفاهيم العقلية أيضًا؛ لأن قوّة العقل هي التي تُدرك صفة الكليّة لهذه المفاهيم.

الفرق بين المفاهيم المنطقية والفلسفية وبين المفاهيم الماهوية

للوقوف على صورة واضحة عن جهاز المعرفة والإدراك، أجريت بحوث واسعة ودراسات كثيرة في مختلف أقسام علم النفس، ومنها المتعلقة بموضوع علم نفس الإدراك، وبمساعدة بعض الوسائل العلمية والاستفادة من التطوّر الحاصل في علم الفيزياء، توصّل الباحثون إلى عدّة نظريات في هذا المجال.

ثمّة مفاهيم أخرى غير المفاهيم التي ذكرناها سابقًا، تُعرف بـ«المفاهيم المنطقية والفلسفية» وهي تحكي عن وجود الأشياء على عكس المفاهيم الماهوية التي ترتبط بماهيّة الأشياء. فالمفاهيم المنطقية هي صفات الوجودات الذهنية، أي إنها من سنخ المفاهيم، وهي تحكي عن الوجود الذهني للأشياء، كالذاتي والعرضي والموضوع والمحمول، فمثلًا مفهوم «الإنسان» يتّصف في الذهن بالكلي والجزئي والذاتي وأمثالها، لكنه في الواقع الخارجي لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

أما المفاهيم الفلسفية فهي صفات الوجود الخارجي، إي إنها من سنخ الوجود الخارجي، وهي تحكي عن كيفية الوجود الخارجي للأشياء، كمفهوم العلة والمعلول، والضرورة والوحدة وغيرها، فعلى سبيل المثال «النار في الخارج علة الحرارة في الخارج»[1].

---

(١) محمد حسين زادة، **در آمدى بر معرفت شناسى**، الصفحتان ٣٦ - ٣٧.

وعن كيفية نشوء هذه المفاهيم - كمفهوم العلة والمعلول أو مفهوم الخلق - طرح الفلاسفة طيلة تاريخ الفلسفة (الممتدّ لعدّة آلاف من السنين) أبحاثًا مختلفة؛ لكنهم لم يوفّقوا حتى الآن في الوصول إلى نتيجة قطعيّة وثابتة تحظى بتأييد وقبول جميع الفلاسفة والمفكّرين.

أقسام المعرفة (العلم الحصولي والعلم الحضوري)

يُطلق «العلم الحصولي» على المعرفة الناشئة عن المفاهيم الحسّية (التي قلنا إنها لا تحكي لنا الحقيقة والواقع الخارجي)، والمفاهيم العقلية (التي تنشأ بواسطة آليات معقدة)؛ أو بعبارة أخرى هو المعرفة التي تنشأ عن المفهوم والصورة الذهنية الحاكية عن الواقع الخارجي.

أما «العلم الحضوري» فيُطلق على المعرفة المباشرة دون توسّط المفهوم أو الصورة الذهنية، فالمعلوم - في هذا العلم - يحضر بوجوده الخارجي عند العالِم مباشرةً دون توسّط الذهن، فالإنسان عندما يشعر بالعطش أو بألم في أسنانه، مثلًا، يُدرك حقيقة هذا العطش والألم بواسطة قوى الإدراك التي عنده، فيحصل عنده علم حضوري بهما؛ أي إن هذا الإدراك لم يحصل له بواسطة الصورة الذهنية، بل بحضور المعلوم نفسه عند العالِم. وقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن العلم الحضوري ليس سوى علم الإنسان بنفسه، وعليه فالإنسان لا يُدرِك بالعلم الحضوري سوى نفسه فحسب، أما علمه بسائر الأشياء فيحصل له بالعلم الحصولي.

وقد ذَكَرَ الفلاسفة الإسلاميون وغيرهم ستة أقسامٍ للعلم الحضوري، هي:

١. علم الإنسان بذاته؛ فلكل إنسان معرفة بذاته، وهذه المعرفة تعني العلم بوجوده.

٢. علم الإنسان بقواه، سواء قواه المُدرِكة كقوّة الفكر والتخيّل، أو قواه المحرّكة كالقوّة التي تحرّك الأعضاء والجوارح؛ ولهذا فالإنسان لا يشتبه أبدًا في استعمالها والاستفادة منها، فلو أراد التفكير بشيء فإنه لا يقوم بتحريك أحد أعضاءه بدلًا عن ذلك، والعكس أيضًا صحيح.

٣. علمه بالمشاعر النفسيّة؛ أي بالعواطف والأحاسيس كالحبّ والغم والعشق والخوف والفرح، ويسمّى هذا القسم «الانفعالات النفسيّة».

٤. علمه بأفعاله المباشرة، أو الأفعال الجوانحية الصادرة من دون واسطة، كالإرادة، والحُكم، والتفكير، والتركيز.

٥. علمه بالمفاهيم والصور الذهنيّة نفسها، فالإنسان لا يعرف هذه المفاهيم والصور الذهنية بواسطة مفاهيم وصور ذهنية أخرى؛ بل يعرفها بالعلم الحضوري مباشرةً وبلا واسطة.

٦. علمه بالله تعالى[1]. نعم، هناك اختلاف بين الفلاسفة في تعلّق العلم الحضوري بالله تعالى، أما أقسام العلم الحضوري الأخرى فهي على الأقل تحظى باتفاق الفلاسفة الإسلاميين.

مراتب الإدراك (الواعي، شبه الواعي، اللاواعي)

ثمّة تقسيم آخر يرتبط بالإدراك والمعرفة، وهو تقسيمه إلى ثلاث مراتب، حيث ينقسم كِلا العلمين الحضوري والحصولي إلى (الواعي، شبه الواعي، واللاواعي):

---

(١) المصدر نفسه، الصفحتان ٢٦ - ٢٧.

١. الإدراك الواعي: هو أن نعلم شيئًا ونعي أنّنا نعلم. مثلًا عند قراءتنا سورة الحمد بحضور ذهن، يكون علمنا بها عن وعي، وهو من أنواع العلم الحصولي. وعندما نُدرك وجودنا ونعي إدراكنا هذا، فهذا الإدراك حضوري وعن وعيّ.

٢. الإدراك شبه الواعي: وفي هذا النوع أيضًا، يتحقّق عندنا علم بالشيء لكنّنا لا نلتفت لوجود هذا العلم، وبمجرّد أن ينبّهنا أحد إلى وجوده، نلتفتُ إليه فيحصل عندنا علم واعٍ. مثلًا قد يكون المرء مشغولًا بالقراءة وفجأة يرنّ جرس الباب - الذي يعرف صوته جيدًا - لكنه لا يسمعه وهو في ذلك الحال، وبمجرّد أن ينبّهه شخص كأن يربّت على كتفه، يلتفتُ إلى أن الجرس يرن فتحصل عنده معرفة عن وعي وعلم. كذلك نحن نعلم بوجودنا بالعلم الحضوري، لكن انشغالنا بالعمل يجعلنا نغفل عن وجود هذا العلم، وما أن ينبّهنا شخص أو شيء لوجوده حتى يحصل لدينا علم تفصيلي به ويتحوّل إلى الإدراك الواعي.

٣. الإدراك اللاواعي (الخفي): ويحصل هذا النوع من الإدراك عندما نكون عالمين بشيء لكن لا نلتفتُ إلى وجود هذا العلم، وأيضًا قد لا نلتفت إليه مباشرةً عندما ينبّهنا أحد إلى وجوده. فمثلًا عندما نلتقي بصديق قديم في أيام الدراسة لم نره منذ فترة طويلة؛ فإن رؤيته ستُثير فينا نوعًا من الذكريات التي تساعدنا على تذكّر شخصه واسمه، لكنّنا نخفق بتذكر اسمه مهما حاولنا، وبعد فترة من اللقاء وحصولنا على قسط من الهدوء والراحة نتذكّر اسمه، وهنا لا تحصل لدينا معرفة جديدة؛ بل هي معرفة سابقة تجدّدت لدينا مرّةً أخرى[1]، وكأن هذه المعرفة كانت

---

(١) انظر: غلامرضا فياضي، **در آمدی بر معرفت شناسی**، الصفحتان ٨١ - ٨٢.

مخفيةً في جزء من ذهن الإنسان تحت حجاب معيّن، وفجأة وبعد مروره بظروف خاصّة وظهور عوامل جديدة مساعدة زال هذا الحجاب وظهرت المعرفة السابقة مرّةً أخرى. ففي هذه الحالة لم تحدث عند الإنسان معرفة جديدة؛ بل تنبّه إلى علم سابق مخفي في ذاكرته فظهر للعيان بعد أن نفض عنه غبار النسيان.

علم الإنسان الحضوري المسبق بالله تعالى وميثاق العبودية معه

في العلم الحضوري أيضًا تحدث مثل هذه الحالة للإنسان، حيث أشارت بعض الروايات والآيات القرآنية إلى العلم الحضوري المسبق للإنسان بالله تعالى، الذي يكون في الظروف الطبيعية من النوع اللاواعي، ثم عندما يتوجّه الإنسان بكل جوارحه إلى الله، وينصرف عن جميع ملذّات الدنيا ومشاغلها، يتحوّل إلى علم حضوري من النوع الواعي، كالأشخاص الذين يبذلون جهودًا كبيرة في طريق العبودية لله تعالى، فيدركون وجوده عزّ وجلّ عن وعي تامّ أكثر من أي شيء آخر.

في الماضي، كان من الصعب جدًّا على الإنسان فهم مضامين بعض هذه الآيات والروايات؛ لكن في الوقت الحاضر وببركة التطوّر الحاصل في العلوم العقلية والتجريبيّة، أصبح من السهل إلى حدّ ما فهم هذه المضامين.

وقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى عالم الميثاق وعالم الذّر الذي يُدرِك فيه جميع الناس حضور الله سبحانه، ويعقدون معه ميثاق العبودية له، حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

تعتبر هاتان الآيتان من الآيـات الصعبة التفسير، وقد اختلف المفسّرون في تفسيرهما وشرح عباراتهما بالتفصيل، وتوضيح العلاقة بينهما، وبيان معنييهما بدقّة. كما تُطرح أسئلة كثيرة حول كل جملة فيهما، حتى ادّعى البعض أنهما من الآيات المتشابهة، وأننا نعجز عن الوقوف على حقيقة معنييهما، وبالتالي يجب إرجاع تفسيرهما إلى من هم أعلم بتفسير القرآن وتأويله.

والإنصاف أن هاتين الآيتين رغم ما تحملانه من إبهام في بعض عباراتهما، ورغم كونهما تعتبران من الآيات المتشابهة أيضًا؛ لكن لا يمكن ادّعاء عدم إمكانية الاستفادة من الآيات المتشابهة، أو عدم القدرة أبدًا على رفع التشابه عنها. فعند التدقيق في هاتين الآيتين يمكن أن نستنبط منهما مفهومًا واضحًا جدًّا، أما إذا حصل إشكال ما في قبول هذا المفهوم، فالمشكلة في الواقع تكمن في المتلقّي وليس في مفاد الآية. فالآية تدلّ بوضوح على أن الله تعالى يلتقي عيانًا بكل إنسان، ويسألهم جميعًا: ألست بربكم؟ فيجيبون: بلى، أنت ربّنا. وهذا اللقاء والسؤال يقيم الحجّة على كل إنسان ولا يدع عذرًا للمشركين حتى يقولوا: كنّا غافلين عن التوحيد وعدم عبادة الله الواحد، وكنّا نتبع آباءنا في شركهم، فلسنا المذنبين في الشرك وإنما هو ذنب آبائنا، فكيف تُهلكنا وتحاسبنا بما فعل آباؤنا.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآيتان ١٧٢ - ١٧٣.

فلا شك أن الآية تتضمّن في معناها إيصال هذا المفهوم؛ لكن الإبهام هو أنّنا لا نتذكّر في حياتنا حدوث مثل هذا اللقاء مع الله، وأنه يسألنا فيه: ألست بربّكم، فنجيبه: بلى أنت ربّنا. فالإبهام إذن يكمن في عدم تذكّرنا حدوث مثل هذا اللقاء والحوار، وإلا لا يوجد شكّ في إفادة الآية لمثل هذا المفهوم.

وثمّة أسئلة أخرى حول هذا الموضوع، نظير السؤال التالي: في أي عالم حدث الميثاق والشهادة بربوبية الله تعالى؟ وما هي الظروف المحيطة بهذا الحدث؟ وهل حدث بشكل جماعي أو فردي؟ لكن لا يوجد أي إبهام في مفاد الآية، فهل يمكن القبول بمثل هذا المفهوم، أي إن الله تعالى يلتقي بكل إنسان، الواحد تلو الآخر، دون استثناء، ويحدث بينهما مثل هذا الحوار؟

ومهما كان المعنى الذي نتصوّره عن مثل هذا الحوار واللقاء، فهو حوار صريح وليس حوارًا سريًّا، كأن يظهر صوت من مكان معيّن ويسأل: ألستُ بربّكم؟ فنجيب: بلى، أنت ربّنا؛ لأنه حينئذٍ لن تكون له أيّ قيمة؛ بل يجب أن يكون حوارًا واضحًا غير قابل للخطأ والاشتباه، وإلّا فسيكون الإنسان معذورًا وذا حجّة يتذرع بها. مثلًا لو نادى الشيطان ألستُ بربّكم؟ وظن أحدٌ أنه صوت الله، وأجاب: بلى، فهذا الكلام قابل للخطأ؛ يعني أنّ مجرّد سماع الصوت لا يدلّ على أن المتحدّث هو الشخص الفلاني؛ لهذا وحتى لا يبقى شكّ في تحديد هويّة المتكلّم يجب أن يرى طرفا الحوار أحدهما الآخر، كي يعرفه جيّدًا.

فالآية إذًا تدلّ على أن المحاورة حصلت بين الله والإنسان، حتّى لا يبقى عذر وحجة في احتمال وجود الخطأ والاشتباه في التطبيق، وبالتالي

لا يمكن القبول بأي عذر يمكن أن يطرحه الإنسان يوم القيامة أمام الله في كونه مثلًا لم يعبد الله لأنه لم يعرفه.

فالآية تفيد هذا المعنى: أن الإنسان يلتقي بالله تعالى ويجري بينهما حوار يسأل فيه الله: ألستُ بربك؟ فيجيب الإنسان: بلى[١].

فنحن لا نتذكر في حياتنا مرورنا بعالم الذر الذي تشير بعض الروايات[٢] إلى أننا كنا فيه على شكل موجودات صغيرة، كما لا نتذكر حدوث ميثاق العبودية والشهادة فيه، ولا نتذكر الظرف الزماني والمكاني لمثل هذا الميثاق؛ لكن مع ذلك تتحدث الآية عن حصول لقاء وحوار بين الله والإنسان وإقامة ميثاق بينهما، كما تخبر الآية عن الله تعالى أنه أخذ ميثاقًا من بني آدم وأشهدهم على أنفسهم بالإقرار بربوبيته حتى لا يتعذروا يوم القيامة أنهم كانوا غافلين عن هذه الحقيقة، وأن الله لم يهدهم إلى معرفته وعبوديته.

---

(١) انظر: محمد تقي مصباح اليردي، **معارف قرآن** (١ - ٢)، الصفحتان ٣٨ - ٣٩.

(٢) روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيْثُ خَلَقَ الْخَلْقَ خَلَقَ مَاءً عَذْبًا وَمَاءً مَالِحًا أُجَاجًا، فَامْتَزَجَ الْمَاءَانِ فَأَخَذَ طِينًا مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَعَرَكَهُ عَرْكًا شَدِيدًا فَقَالَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ - وَهُمْ كَالذَّرِّ يَدُبُّونَ -: إِلَى الْجَنَّةِ بِسَلَامٍ، وَقَالَ لِأَصْحَابِ الشِّمَالِ: إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ثُمَّ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّبِيِّينَ فَقَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ وَأَنَّ هَذَا مُحَمَّدٌ رَسُولِي وَأَنَّ هَذَا عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالُوا: بَلَى. فَثَبَتَتْ لَهُمُ النُّبُوَّةُ وَأَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُولِي الْعَزْمِ أَنِّي رَبُّكُمْ وَمُحَمَّدٌ رَسُولِي وَعَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ وُلَاةُ أَمْرِي وَخُزَّانُ عِلْمِي وَأَنَّ الْمَهْدِيَّ أَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِي وَأُظْهِرُ بِهِ دَوْلَتِي وَأَنْتَقِمُ بِهِ مِنْ أَعْدَائِي وَأُعْبَدُ بِهِ طَوْعًا وَكَرْهًا. قَالُوا: أَقْرَرْنَا يَا رَبِّ وَشَهِدْنَا**». الكليني، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٨، الحديث ١.

تجليات المعرفة الفطرية للإنسان بالله تعالى في القرآن والروايات

ولرفع الإبهام والإشكالات الموجودة في هاتين الآيتين، وللإجابة عن الأسئلة المتداولة حولهما، طرح المفسّرون والمفكّرون ورجال الحديث مباحث متنوعةً حول هاتين الآيتين والآيات المشابهة لهما؛ لكنهم عجزوا تقريبًا عن تقديم إجابة مناسبة أو مقنعة عن هذه الإشكالات والأسئلة، كالإجابة عن *الأسئلة التالية*: ما هي الفائدة من هذه الشهادة؟ وما هي مواصفات العالم الذي حصلت فيه هذه الشهادة؟ ولماذا لا نتذكّر وقوع هذه الحادثة؟

ويبدو أن الحلّ الأمثل لرفع مثل هذه الإبهامات هو: أن المستنبط بوضوح من هذه الآية هو أن الإنسان يمتلك نوعًا من المعرفة بالله الواحد، يمكن التعبير عن كيفية حصولها بهذا الشكل: الله يسألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فيجيبون: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾، وهذا الحوار يحصل بينهما بحيث لا يبقى بعده أي عذر أو ادعاء للخطأ في التطبيق. وعلى هذا الأساس، ففي يوم القيامة لا يمكن أن يدّعي الإنسان أنه لم يكن يعرف بربوبية الله، أو يتّخذ من اتّباع آبائه ذريعةً لشركه وانحرافه عن الحقّ. والظاهر أن مثل هذه المحاورة الحضورية وإبطال هذا العذر الذي ينفي حدوث الخطأ في التطبيق، لا يمكن أن يحصل سوى بالعلم الحضوري والشهود القلبي؛ لكن بسبب انشغالنا بالأمور الدنيوية ظلّ هذا العلم الحضوري مندثرًا في منطقة الإدراك اللاواعي في روحنا. ورغم أننا لا نملك الآن علمًا حضوريًا واعيًا بهذه الشهادة وهذا الميثاق؛ لكن أثرًا من هذا العلم الحضوري والشهود الخفي يظهر لدينا بشكل ميل فطري نحو الله تعالى، وبسبب هذا الميل الفطري للربوبية الإلهيّة نتذكّر الله في ساعات الخطر والمصائب ونتوسّل به لإنقاذنا.

وقد جاء في الحديث الشريف أن شخصًا سأل الإمام الصادق عليه السلام: ما هو الدليل على وجود الله؟ فأجاب الإمام: «**هَلْ رَكِبْتَ فِي البَحرِ؟**»، قالَ: نَعَمَ. قَالَ: «**فَهَلْ عَصفَتْ بِكُمُ الرّيحُ حَتّى خِفْتُمُ الْغَرْقَ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَهَلْ انْقَطَعَ رَجَاؤُكَ مِنَ الْمَرْكَبِ وَالْمَلاَحِينَ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَال: «**فَهَلْ تَتَبعُكَ نَفْسُكَ أَنَّ ثَمَّ مَنْ يُنَجّيكَ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ اللهُ تَعَالَى**»[1].

فالإمام عليه السلام نبّه هذا الشخص الدهري إلى حالة الميل الفطري نحو الله تعالى الموجودة في نفسه والتي غفل عنها في الظروف الطبيعية، لكنّه تذكّرها و شعر بها في الظروف الحرجة وأوقات الخطر والبلاء بعد أن نفض عنها غبار الغفلة والنسيان، فـأدرك حضور الله ووجوده.

وتوجد آيات كثيرة في القرآن الكريم مضمونها أن الإنسان عندما يواجه المصاعب ويتعرّض للبلاء أو الخطر يتوجّه بكل جوارحه نحو الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وفي آيات أخرى، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ

(١) ابن سهر أشوب، **متشابه القرآن**، الجزء١، الصفحة ٢٧.

(٢) سورة **يونس**، الآية ١٢.

﴿أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وعليه فالميل الفطري نحو الله تعالى والمخفي في باطن الإنسان وروحه، والذي يظهر جليًّا عنده ما أن يبتعد عن الأسباب والمشاغل المادّية، يكون ناشئًا عن الشهود والعلم الحضوري اللاواعي بالله تعالى. وهذا العلم الحضوري يحصل دائمًا عند أولياء الله والخواص من عباده عن وعي وعلم والتفات، وهم يُدركون وجود هذا العلم دائمًا.

ومن جهة أخرى، فالأنبياء وأولياء الله كانوا يسعون دائمًا - من خلال توصياتهم التوعوية والأخلاقية - إلى تبديل هذه المعرفة والإدراك اللاواعي إلى معرفة وإدراك واعٍ؛ ولهذا عندما يسأل البعض: لماذا لا نتذكّر أن الله أخذ منّا ميثاقًا وعهدًا على ربوبيته؟ تكون الإجابة: إننا لا نتذكّر الكثير من معارفنا السابقة المخفية في أذهاننا، لكنّنا نتذكّرها بعد فترة من الزمن نتيجةً لعوامل خاصّة اختيارية أو اضطرارية قد نمرّ بها في حياتنا.

طرق الوصول إلى حالة الإدراك الواعي بالله تعالى

كم هو جميل أن يصل الإنسان - بتوفيق من الله وباختياره وفي الظروف الطبيعية - إلى مرحلة المعرفة الحضورية بربوبية الله تعالى، ويتمكّن من تبديل هذه المعرفة من مرحلة الإدراك اللاواعي إلى مرحلة الإدراك الواعي.

---

(١) سورة **يونس**، الآيتان ٢٢ - ٢٣.

والسؤال الذي يُطرح هنا هو: كيف يتمكّن الإنسان من تبديل هذه المعرفة من مرحلة اللاوعي إلى مرحلة الوعي؟

الجواب هو: لا يوجد أمامنا سوى طريقين لتحقيق هذه الغاية: الطريق الأوّل؛ الاستفادة من البراهين والإستدلالات العقلية كبرهان النظم وبرهان الصدّيقين، فبعد أن نثبت وجود الله وربوبيته وسائر الصفات الإلهية، سيؤمن الإنسان ويعتقد بخالق عالم الوجود؛ لكن هذه البراهين لا تضيف على معرفة الإنسان شيئًا أكثر من المفاهيم الذهنية، وسيصل الإنسان إلى إدراكٍ لوجود الله تعالى بشكل غائب، كما إذا ثبت لدينا مثلًا وجود شخص ما في الشارع، فالعلم الحصولي الناتج عندنا يختلف عمّا إذا تحقّقنا من وجوده بالمشاهدة العينية. فلو استدل الإنسان بالبرهان والأدّلة العقلية على أن الله هو الرزاق الكريم؛ لكنّه لم يوطّد الارتباط الوثيق بالله تعالى، ولم يحصل عنده إدراك حضوري بوجود الله، فلن يمكنه حينئذٍ تلبية حاجته الفطرية إلى الله تعالى.

الطريق الثاني للوصول إلى مرحلة الإدراك الواعي هو أن يقيم الإنسان ارتباطًا وثيقًا بالله تعالى حتى يصير كأنّه يراه، ويُدرك وجوده بكل جوارحه؛ غير أنّ هذا الارتباط والشهود والإدراك الحضوري الناشئ عنه يكون ذا مراتب مختلفة، تحقّقت أعلى مراتبه عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عندما قال: «**لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا**»[1]؛ والبون بين معرفتنا لله ومعرفة أمير المؤمنين عليه السلام لله كالبون بين السماء والأرض.

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٦، الباب ٨، الصفحة ١٣٥، الحديث ٢٥.

كذلك الأفراد العاديون من المؤمنين قد يندمجون بالعبادة كأن الله حاضر بالقرب منهم، ويناجونه كأنهم واقفون بحضرته، حتى يصلوا إلى حال من الأنس به تعالى لا يشعرون معها بأنفسهم؛ لكن هذه الحالة لا تحصل للأفراد العاديين إلّا نادرًا؛ بينما هي دائمة الحدوث عند أمير المؤمنين عليه السلام، فهو يرى الله وكأنه واقف في حضرته باستمرار، حتى كان يقول: «**مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ**»[1].

ومن هنا فالمسافة بيننا وبين شخصيّة كشخصية أمير المؤمنين عليه السلام شاسعة جدًّا؛ لكن أتباعه وشيعته المخلصين يستطيعون بلوغ بعض مراتب هذه الشخصية العظمية من خلال الالتزام بنهجه واتّباع وصاياه والسير على طريقه.

نسمع كُثُرًا يدّعون السير على نهج أمير المؤمنين واتباع وصاياه؛ لكنهم في الحقيقة ليس فقط لا يسيرون على نهجه، بل يزدادون انحطاطًا وانحرافًا عن جادّة الحقّ يومًا بعد آخر، وتغطّي قلوبَهم غشاوةٌ ويسدل أمامها ستار يزداد سوادًا وظلمة، فقلوبهم في بداية مراحل حياتهم تكون أكثر نقاءً وصفاءً؛ لكنّها تزداد ظلمةً وتلوّثًا شيئًا فشيئًا كلّما ارتكبوا الذنوب والمعاصي، حتى يبتعدوا أكثر عن جادة الحقّ والهداية، حتّى يصلوا مرحلةً من الانحراف يصعب عليهم معها العودة إلى الطريق الصحيح.

وإذا ما قلنا إن أهل البيت عليهم السلام قد نالوا أعلى مراتب المعرفة الحقيقية والعرفان الإلهي، فإنهم قد وصلوا إلى هذه المرتبة من العرفان والمعرفة بسبب الخلوص والإخلاص في عبادتهم وطاعتهم لله تعالى.

---

(١) الصدوق، **التوحيد**، الصفحة ١٠٩.

وفي ظل هذا العرفان الأصيل يصبح كل شيء ضئيلًا ويتلاشى أمام عظمة الله تعالى وجلاله، لكن نظرًا لقيمة هذا العرفان وعظمته سيتعرّض لكثير من حملات التشويه والتزييف، كحال البضاعة النادرة الثمينة في الأسواق تُطرح في قبالها الكثير من النماذج المزيّفة والبديلة. فنحن لا نرى في الأسواق نموذجًا مزيّفًا أو بديلًا عن إناء الفخار؛ وذلك بسبب قيمته البخسة ومادّته التي صُنع منها وهي الطين المتوفّرة بكثرة في الطبيعة، فلا يستحقّ عناء التزوير أو صناعة مادّة بديلة عنه. أما الذهب والألماس فنظرًا لندرتهما وقيمتها الثمينة، نرى في الأسواق كثيرًا من النماذج المزيّفة والبديلة عنهما؛ وهذا يحصل غالبًا مع السلعة الثمينة والنادرة، حيث تكون النماذج المزيّفة أكثر من المادّة الأصيلة.

كذلك الحال بالنسبة للعرفان العلوي الأصيل، فهو يتميّز بندرة وجوده وقيمته العالية، بينما العرفان المزيف الكاذب كثير جدًا، وتراه منتشرًا في مختلف بقاع العالم.

ونظرًا لأهمّية العرفان وجاذبيته، خاصّةً عند الشباب، نرى كثيرًا من الناس بدأوا يعرضون باستمرار أنواعًا مختلفة للعرفان، بعضها خليط من الرياضات والآداب المنحرفة، كما ظهرت فرق وطوائف متعدّدة عرضت أنواعًا مختلفةً للعرفان بأسماء متنوّعة تؤدّي جميعها إلى نشر مظاهر الانحراف والفساد في المجتمع.

ونحن إذا ما أردنا تشخيص العرفان العلوي الأصيل يجب علينا البحث عنه بين طيّات وكلمات الأدعية والمناجيات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ومنها مناجاة العارفين.

اليوم، ولله الحمد، فببركة الثورة الإسلامية يجد العرفان إقبالًا واسعًا من قبل الشباب وطلاب العلم، ولكن نظرًا إلى هذا الطلب الواسع

والمتزايد على العرفان، وغياب العرفان العلوي الأصيل بدأنا نشهد أنواعًا كاذبة ومزيّفة منه في المجتمع.

علينا أن نذعن بأن الحقيقة المحضة والمعارف الأصيلة لا يمكن الوصول إليها أو تحقيقها إلا بالرجوع إلى الروايات والنصوص الدينية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ولا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر؛ لأن ما يعرضه الآخرون إما يكون عرفانًا مزيّفًا وخليطًا من معارف أهل البيت عليهم السلام والمعارف المنحرفة، فهو كالذهب المغشوش نصفه ذهب والنصف الآخر من النحاس، أو يكون عرفانًا مزيّفًا بعيدًا عن الحقيقة وفاسدًا ومعبّرًا عن طريق الشيطان.

إذًا فمن المناسب للباحثين عن العرفان الإلهي الأصيل أن يركّزوا بحثهم في النصوص الدينية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ومنها الأدعية والمناجيات، وأن يستفيدوا الاستفادة التامّة من مضامينها لبلوغ أعلى مراتب العرفان الإلهي والعرفان العلوي الأصيل.

المقال التاسع والأربعون
بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (٢)

العجز عن معرفة الله في النصوص الدينية

أشرنا سابقًا إلى أن مناجاة العارفين تبدأ بهذه الجملة: «**إِلـهي قَصُرَتِ الأَلْسُنُ عَنْ بُلُوغِ ثَنائِكَ كَما يَليقُ بِجَلالِكَ**»، وقد وَرَدَ مضمون هذه العبارة بتعابير مختلفة في الكثير من الآيات والروايات والأدعية والمناجيات، حيث جاء في بعضها صريحًا، وفي البعض الآخر تلميحًا.

إن الإنسان لا يمكنه بلوغ ثناء الله وشكره وحمده بما يستحقّه، حتى روى المسلمون - شيعةً وسنةً - عن النبي الأكرم ﷺ، قوله: «**إِنّي لَا أُحْصي ثَناءً عَلَيْكَ أنتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ**»[1].

أو ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته المتعالية: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلا يُحْصِي نِعَمَهُ الْعَادُّونَ، وَلا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ**»[2].

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٩٣، الباب ١، الصفحة ١٥٩، الحديث ٣٣.

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة ١.

كذلك وَرَدَ عن رسول الله ﷺ قوله: «**مَا عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ وَمَا عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ**»[١].

لا يمكن معرفة الله عن طريق تجسيمه

نظرًا إلى تواتر مضمون الروايات - المشار إليها آنفًا - عند الطرفين، دعا بعض علماء الخاصّة والعامّة إلى التوقّف عن الخوض في معرفة ذات الله تعالى وتفسير صفاته، وضرورة الاكتفاء ببيان وتفسير ما جاء في القرآن الكريم من وصفٍ لذاته المقدّسة، ولم يكن ذلك إلا لأن القرآن الكريم ذكر هذه الصفات، غير أنّ عدم قدرتنا على فهمها يفرض علينا ضرورة ترك بيانها لله تعالى.

فنحن ليس لنا أيّ معرفة بذات الله وصفاته، وبالتالي لا ينبغي لنا الخوض في هذا الموضوع.

وفي مقابل ذلك، يدعو علماء آخرون إلى الالتزام بوصف ذات الله بما وَصَفَ به نفسه في القرآن الكريم، وتفسيره بنفس المعنى المتداول في حواراتنا اليومية، ولا ينبغي إجهاد النفس بتأويل معاني أخرى أكثر من معانيها المتعارفة. فمثلًا عندما يذكر القرآن الكريم عبارة ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾[٢]، يفسّرها هؤلاء العلماء بأن الله له يد وليس لنا الحقّ بتأويل كلمة «يد» إلى «القدرة». أو جملة ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[٣]، فإنها تبيّن أن لله عينًا حقيقيةً، لكنّنا بالطبع نجهل حدود وطبيعة هذه اليد أو العين.

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧١، الباب ٢١، الصفحة ٢٣، الحديث ١.

(٢) سورة **الفتح**، الآية ١٠.

(٣) سورة **طه**، الآية ٣٩.

كذلك الحال بالنسبة لجملة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]، فإنها تبيّن أن الله من سِنخ النور. كذلك جملة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٢]؛ تدلّ على أن الله له مكان على عرشه يستقرّ ويجلس عليه.

ويطلق على هذه الطائفة التي تصف الله تعالى بأوصاف جسمانيّة اسم «المجسّمة» أو «المشبّهة»، ويعدّ ابن تيمية أبرز علماء هذه الطائفة حيث يُطلقون عليه لقب «الإمام» و«شيخ الإسلام» أيضًا، وتستمدّ فرقة الوهابية عقائدها وأفكارها من فتاوى ونظريات ابن تيمية. وقد روي عنه أنه عندما كان يُلقي محاضرة درسه على تلامذته في مسجد دمشق، قال إن الله تعالى ينزل كل ليلة جمعة من عرشه ليتبرّك به الناس، ثم نزل من المنبر وقال: ينزل الله من السماء كما أنزل من منبري هذا.

ونجد مثل هذه المفاهيم تنتشر بين بعض العوام من الناس الذين لم يبلغوا المستوى الفكري الكافي أو الفهم الصحيح عن صفات الله، وبالتالي هم يفتقدون المعرفة الصحيحة بالله تعالى، حيث نراهم يظنّون أن الله عبارة عن نور في السماء؛ لكنّهم لا يمتلكون تصوّرًا أكثر من هذا عن ذات الله وصفاته.

طبعًا لا يمكن أن نتوقّع أكثر من هذا من أمثال هؤلاء الأفراد الذين لم يصلوا للبلوغ العقلي الكافي، حيث يصعب عليهم كثيرًا فَهْم عالم المجرّدات أو معرفة حقيقة الله تعالى.

يصف الشاعر الإيراني «مولوي» في ديوانه، رَدّ فعل نبي الله موسى عليه السلام على ما قاله الراعي في وصفه البسيط جدًّا لله تعالى وما

---

(١) سورة **النور**، الآية ٣٥.

(٢) سورة **طه**، الآية ٥.

تضمّنه من عبارات تحمل في معناها الشرك والتجسيم، فيقول: «رأى موسى أثناء تجواله راعيًا ينادي ربّه: إلهي، ربّي، أين أنتَ حتّى أخدمك وأخيط نعليك وأمشط شعر رأسك».

فلما سمع موسى عليه السلام كلام الراعي وما يحمله من شرك وتجسيم لله تعالى، غضب جدًّا وبدأ بتوبيخه ولومه، فقال: «قال موسى أيها الراعي مَهلَك! هل أصبحت جاهلًا وساذجًا، وهل أصبحت كافرًا قبل أن تؤمن، ما هذا الهراء والكفر والهذيان الذي تتفوّه به، اصمت وأغلق فمك.

فقال الراعي: أسكتني يا موسى، لقد ندمتُ على كلامي، وروحي بدأت تتعذّب وتحترق من شدّة الندم، ومن شدّة الغضب مزق ملابسَه، وتأوّه حسرةً من شدّة الألم، ثم هام على وجهه في الصحراء.

فأوحى الله إلى موسى: ماذا فعلت بعبدي، ولماذا أبعدته عنّي، لقد أرسلتكَ لتوصل عبادي وتهديهم إليّ لا لتبعدهم عنّي».

وقد أشارت بعض الروايات إلى مثل هذا التصوّر الساذج والبسيط الملوّث بالشرك وتجسيم الله وتشبيهه بالموجودات المادّية، ومنها ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «**كلُّ ما مَيَّزْتُموُهُ بِأُوهَامِكُم في أَدَقّ مَعَانيه مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثلُكُم مَرْدُودٌ إلَيْكُم، ولَعَلَّ النَّمْلَ الصِّغَارَ تَتَوَهَّمُ أَنَّ لِلّه تَعَالى زُبَانِيَتَيْنِ، فَإنَّ ذلكَ كَمَالُها وَيَتَوَهَّمُ أنَّ عَدَمَهَا نُقصانٌ لِمَنْ لاَ يَتَصِفُ بِهِمَا، وَهَذَا حالُ الْعُقَلاءِ فيمَا يَصِفُونَ اللهَ تعالَى بِهِ**»[1].

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٦٩، الباب ٣٧، الصفحة ٢٩٣، الحديث ٢٣.

التلقّيات المختلفة للحكماء والعلماء عن الله وربوبيّته

إن هؤلاء المجسّمة وأهل الظاهر الذين ابتلوا بمثل هذا الانحراف الفكري حول معرفة الله، وكذلك العوام من الناس، والسفهاء، ومن فقدوا رشدهم، ومن ابتعدوا عن مراتب البلوغ الفكري والعقلي؛ إنّ هؤلاء قدّموا عن الله تعالى نموذجًا من المعرفة والنظريّات ملوثًا بالتجسيم والصفات المادّية، لذا يجب على من أفنى عمره في تحليل الآيات والروايات وتقديم الأدلة العقلية، أن يخصص جزءًا من وقته في التحليل العلمي الدقيق عن ذات الله وصفاته، حتى يتمكّن من تقديم نموذج لمعرفة الله وقراءة مقبولة وصحيحة قدر الإمكان أو على الأقل قريبة من الواقع.

ولا ينبغي لوم العوام أو السطحيين على فهمهم الخاطئ ومعرفتهم الملوّثة بالشرك عن الله تعالى، واتّهامهم بالشرك؛ لأنهم توصّلوا إلى هذا الفهم والمعرفة بما يتناسب مع فكرهم وإمكاناتهم العلمية والعقلية البسيطة، وبالتالي هم يستحقّون على ذلك الأجر والثواب أيضًا. لكن ليس من المقبول أن يقصّر علماء الدين والمفكّرون في الوصول إلى معرفة صحيحة عن الله تعالى؛ لهذا نرى الكثير من العلماء المؤمنين بالله قد بذلوا جهودًا كبيرة على مرّ التاريخ، لتقديم نموذج أفضل وأدقّ عن معرفة الله؛ لكن بعضهم ابتعد في تحليله عن الواقع مما جعلهم يعجزون عن تقديم معرفة صحيحة عن الله تبارك وتعالى.

وقد عدّ بعض الحكماء القدماء اللهَ محرّكًا أوّل للعالم، واعتبروا أنه لولا وجود الله لما حصلت أيّ حركة في عالم المادّة، ولما تحقّق أي موجود جديد، ولما حصل أي تغيير في عالم المادّة. فرغم أن علّة بعض الحركات والتغييرات هي الحركة السابقة؛ لكن الله هو علّة الحركة الأولى والمحرّك الأوّل في عالم المادّة.

وكان بعض الفلاسفة الموحّدين في أوروبـا يعتقدون أن العالم كالساعة يقوم الله بتشغيلها أوّل مرّة، ثم تستمرّ بالحركة دون توقّف، وهي - بعد دورانها - لن تحتاج إلى الله تعالى؛ بل تستمرّ في حركتها تلقائيًا إلى ما لا نهاية. وقد نشأت هذه النظرية نتيجة التجربة التي قاموا بها في المختبر على رصاصة فلزيّة قاموا بتحريكها على سطح صقيل ومائل، حيث لاحظوا أن هذه الرصاصة - وبعد تحريكها للمرّة الأولى - تستمرّ في حركتها دون الحاجة إلى محرّك، كما هو الحال بالنسبة للجسم الذي يتحرّك في الفراغ ويستمرّ في الحركة دون توقّف لعدم وجود مانع يعيقه عن الحركة.

فبعض فلاسفة أوروبا كانوا يعتقدون أن الله في بداية نشأة عالم المادّة بثّ فيه الحركة والطاقة، وبعد أن تحرّك العالم استمرّ في حركته دون توقّف، ثم حدثت الظواهر الطبيعية والمخلوقات نتيجةً لحركة الشمس والنجوم والكواكب وما يحصل بينها من فعل وانفعال، ولو اتّفق أن انعدم الله - معاذ الله - فإن العالم لن يتأثّر ولن يلحق به أيّ ضرر.

كذلك جاء في كتبنا الكلامية أن البعض يعتقد أن الله هو العلّة الوحيدة المُحدِثة في هذا العالم، وبعد أن يوجِد اللهُ شيئًا أو مادّةً تستمرّ في وجودها تلقائيًا، ولن تحتاج بعد ذلك إلى قوّة مُبقية أو إلى عامل مثبّت.

كما نقرأ في كتبنا الكلامية أن البعض يُطلق مُصطلح «الصانع» على الله تعالى، ويسوق الأدلة والبراهين لإثبات ذلك، رغم أن الصانع هو الذي يقوم بتركيب المواد وإنتاج هيئات جديدة؛ وبالتالي فإطلاق مصطلح الصانع على الله لا يدلّ سوى على إيجاد الإنسان من الطين، وهو لا يدل على قدرة الله على خلق الأشياء والهيئات من العدم. ونحن - في

الواقع - يصعب علينا تصوّر كيفية إيجاد الأشياء بدون مواد أوّلية أو من العدم، وحتى عندما يُطلقون مُصطلح «الخالق» على الله، وهو مصطلح يحمل مفهومًا ومعنىً أكثر تكاملًا من مصطلح «الصانع»، فإن فهمنا لهذا الاصطلاح لا يتعدّى أكثر من كون الله قام بخلق الإنسان والنباتات من الطين؛ وهذا يعني ضرورة وجود الطين أوّلًا حتّى يُخلق الإنسان منه. ويعسر علينا للغاية تصوّر معنى أن الله قد خلق العالم بإرادته من العدم؛ رغم أن فهم خلق الموجودات والمخلوقات بدون مادّة أوّلية، وفرض تقدّم العدم على العالم قد أثبته الحكماء والمتكلمون العظام بالأدلة والبراهين القوية.

المعرفة التوحيدية الخالصة في كلام الإمام الصادق عليه السلام

يتّضح مما تقدّم أن أنواع المعرفة والاستنباط المتعلقة بالله تعالى ذات مراتب مختلفة، وقد تكون متباينة كثيرًا بعضها عن بعض؛ لكن ببركة القرآن الكريم ومعارف أهل البيت عليهم السلام نُدرك جيّدًا أن عمل الله وفعله لا يقتصر على تحريك العالم وبثّ الحركة الأولى فيه، أو على الصناعة وإيجاد التغيير في المواد وإيجاد الأشكال والهيئات الجديدة؛ بل هو الخالق من العدم، خَلَقَ العالم وجميع الموجودات من العدم وأخرجها إلى الوجود من دون أن يمسّه في ذلك لغوب أو عناء أو حاجة إلى أسباب أخرى تُساعده في هذا الخلق؛ وإنما خلقها بإرادة واحدة، فإذا شاء أن يخلق شيئًا فهو لا يحتاج في ذلك إلا أن يقول له «كن»، فيكون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

(١) سورة **يس**، الآية ٨٢.

إن ما نعرفه عن الله تعالى ببركة القرآن الكريم والمعارف الإلهيّة وبالاستناد إلى البراهين العقلية، لا يخرج عن هذا المفهوم، وهو: أن الله موجود خَلَقَ العالم، وهذا بحدّ ذاته مفهوم كلّي ومعرفة حصولية وغيبية عن الله تبارك وتعالى، ولا شكّ أنّ المعرفة الشهودية والحضورية به تعالى، أسمى وأكمل من المعرفة الحصولية، وأكثر ملامسةً للواقع لحقيقة التوحيد.

فما أشارت إليه الروايات، وما نستنبطه من ظاهرها وظاهر الآيات بمعونة البراهين العقلية، ليس سوى معرفة ناقصة وغيبية عن الله تعالى، ولا يمكنها أبدًا أن تعبّر عن حقيقة التوحيد، بيد أنّ هذا الضعف والنقص في العقل البشري في معرفة حقيقة الله تعالى لا ينبغي أن يكون عائقًا أمامنا عن التعمّق والتدبّر والدراسة العلمية حول ذات الله وصفاته؛ كما نجد عند بعض السطحيين الذين لا يجهدون أنفسهم في البحث والدراسة عن حقيقة الله تعالى، فيلجؤون إلى الأفكار والنظريات الجاهزة، فيُقنعون أنفسهم بما يتراءى لهم من ظاهر الآيات والروايات، ويقولون: نحن نعجز عن الوصول إلى معرفةٍ أدقّ بالله تعالى؛ لذلك لا ينبغي أن نُجهد أنفسنا في البحث للوصول إلى معرفةٍ أدقّ بحقيقة الذات المقدّسة.

نقرأ في كتاب **تحف العقول** - الذي جمع فيه المؤلف بالترتيب المواعظ والحكم الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ابتداءً بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ثم الأئمة المعصومين عليهم السلام - نقرأ في القسم الخاصّ بمواعظ الإمام الصادق عليه السلام روايةً جامعةً وكاملةً في وصف محبّة أهل البيت عليهم السلام وما يريده الأئمة المعصومون من مُحبّيهم وشيعتهم، وقد تضمّنت هذه الرواية وصفًا لمعرفة الله أيضًا، تقول الرواية:

«دَخَلَ عليه رَجُلٌ، فَقَالَ عليه السلام لَهُ: **مِمَّنِ الرَّجُلُ؟** فَقَالَ: مِنْ مُحِبِّيكُمْ وَمَوَالِيكُمْ. فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ عليه السلام: **لا يُحِبُّ اللَّه عَبْدًا حَتَّى يَتَوَلاهُ، وَلا يَتَوَلاهُ حَتَّى يُوجِبَ لَهُ الْجَنَّةَ.** ثُمَّ قَالَ لَهُ: **مِنْ أَيِّ مُحِبِّينَا أَنْتَ؟** فَسَكَتَ الرَّجُل.

فقال له سَدير [الصيرفي، وهو من الرواة المعروفين]: وَكَمْ مُحِبُّوكُمْ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ؟

فَقَالَ الإمام عليه السلام: **عَلَى ثَلاثِ طَبَقَاتٍ، طَبَقَةٌ أَحَبُّونَا فِي الْعَلانِيَةِ وَلَمْ يُحِبُّونَا فِي السِّرِّ، وَطَبَقَةٌ يُحِبُّونَا فِي السِّرِّ وَلَمْ يُحِبُّونَا فِي الْعَلانِيَةِ، وَطَبَقَةٌ يُحِبُّونَا فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ هُمُ النَّمَطُ الأَعْلَى، شَرِبُوا مِنَ الْعَذْبِ الْفُرَاتِ وَعَلِمُوا تَأْوِيلَ الْكِتَابِ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَسَبَبَ الأَسْبَابِ فَهُمُ النَّمَطُ الأَعْلَى، الْفَقْرُ وَالْفَاقَةُ وَأَنْوَاعُ الْبَلاءِ أَسْرَعُ إِلَيْهِمْ مِنْ رَكْضِ الْخَيْلِ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا وَفُتِنُوا فَمِنْ بَيْنِ مَجْرُوحٍ وَمَذْبُوحٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي كُلِّ بِلادٍ قَاصِيَةٍ. بِهِمْ يَشْفِي اللَّهُ السَّقِيمَ وَيُغْنِي الْعَدِيمَ، وَبِهِمْ تُنْصَرُونَ وَبِهِمْ تُمْطَرُونَ وَبِهِمْ تُرْزَقُونَ، وَهُمُ الأَقَلُّونَ عَدَدًا الأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا وَخَطَرًا.**

وَالطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ النَّمَطُ الأَسْفَلُ أَحَبُّونَا فِي الْعَلانِيَةِ وَسَارُوا بِسِيرَةِ الْمُلُوكِ فَأَلْسِنَتُهُمْ مَعَنا وسُيُوفُهُم عَلَيْنَا. وَالطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ النَّمَطُ الأَوْسَطُ أَحَبُّونَا فِي السِرِ وَلَمْ يُحِبُّونَا فِي الْعَلانِيَة، وَلَعَمْري لَئِنْ كَانُوا أَحَبُّونَا فِي السِّرِ دُونَ الْعَلانِيَةِ فَهُمُ الصَّوَّامُونَ بِالنَّهارِ الْقَوَّامُونَ بِاللَّيْلِ تَرَى أَثَرَ الرَّهْبانِيَّةِ فِي وُجُوهِهِم أَهْلُ سِلْمٍ وَانْقِيادٍ.

قال الرجل: فأنا من مُحبِّيكُم في السِّرِ والعَلانِيَة.

قال جعْفَر عليه السلام: **إِنَّ لِمُحِبِّينَا فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ عَلامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا.**

قَالَ الرَّجُلُ: وَمَا تِلْكَ الْعَلامَاتُ؟

قَالَ: **تِلْكَ خِلالٌ أَوَّلُهَا أَنَّهُمْ عَرَفُوا التَّوْحِيدَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَأَحْكَمُوا عِلْمَ تَوْحِيدِهِ، وَالإِيمَان بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ وَمَا صِفَتُهُ، ثُمَّ عَلِمُوا حُدُودَ الإِيمَانِ وَحَقَائِقَهُ وَشُرُوطَهُ وَتَأْوِيلَه».**

بيّن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية العلامة الأولى من علامات الطبقة الأشرف من محبّي أهل البيت عليهم السلام وهم محبّوهم في السرّ والعلانية، حيث وصفهم بأنهم: «عرفوا التوحيد حقّ معرفته»، وأحكموا هذه المعرفة، وآمنوا بذات الله وصفاته التي وصف بها نفسه، وعلموا حدود الإيمان وحقيقته وشروطه، ولم يكتفوا بالفهم السطحي لمعنى الإيمان؛ بل سعوا إلى فهم تأويله والعمل به.

وبعد أن انتهى الإمام من كلامه، «قال سدير: يَا ابنَ رَسُولِ اللهِ مَا سَمِعْتُكَ تَصِفُ الإِيمَانَ بِهَذِه الصفةِ؟ فقال: **نَعَم يَا سدير لَيسَ للسَّائِل أن يَسألَ عَن الإيمانِ مَا هُوَ حتَّى يعلَمَ الإيمانَ بِمَن.**

قال سدير: يا ابنَ رَسُولِ اللهِ إِنْ رَأيتَ أَن تُفَسِّرَ مَا قُلتَ؟

قال الصادق عليه السلام: **مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ الله بِتَوَهُّمِ القُلُوبِ فَهُوَ مُشْرِكٌ. ومَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ الله بالاسْمِ دونَ المَعْنى فقَدْ أَقَرَّ بالطَعْنِ، لأَنَّ الاسْمَ مُحْدَثٌ. ومَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْبُدُ الاسْمَ والمَعْنى فَقَدْ جَعَلَ معَ الله شَرِيكًا. ومَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْبُدُ المَعْنى بالصِفَةِ لا بالإدْراكِ فَقَد أَحالَ على غائِبٍ. ومَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْبُدُ الصِفَةَ والمَوْصوفَ فَقَدْ أَبْطَلَ التَّوْحيدَ لأَنَّ**

الصِفَةَ غيْرَ المَوْصُوفِ. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُضِيفُ المَوْصُوفَ إلى الصِفَةِ فَقَدْ صَغَّرَ بالكَبِيرِ {وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ}[١].

قِيلَ لَهُ: فَكَيْفَ سَبِيلُ التَّوْحِيد؟

قال: **بَابُ الْبَحْثِ مُمْكِنٌ وَطَلَبُ الْمَخْرَجِ مَوْجُودٌ. إِنَّ مَعْرِفَةَ عَيْنِ الشَّاهِدِ قَبْلَ صِفَتِهِ، وَمَعْرِفَةَ صِفَةِ الْغَائِبِ قَبْلَ عَيْنِهِ.**

قِيلَ: وَكَيْفَ نَعْرِفُ عَيْنَ الشَّاهِدِ قَبْلَ صِفَتِهِ؟

قَالَ: **تَعْرِفُهُ وَتَعْلَمُ عِلْمَهُ، وَتَعْرِفُ نَفْسَكَ بِهِ وَلا تَعْرِفُ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِكَ**[٢]**، وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا فِيهِ لَهُ وَبِهِ كَمَا قَالُوا لِيُوسُفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾**[٣]**؛ أَمَا تَرَى الله يَقُولُ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ﴾**[٤]**؛ يَقُولُ لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَنْصِبُوا إِمَامًا مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِكُمْ تُسَمُّونَهُ مُحِقًّا بِهَوَى أَنْفُسِكُمْ وَإِرَادَتِكُم»**[٥].

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٩١.

(٢) «أي تعرف الله معرفة إدراك لا معرفة توصيف لا تستوفي حقّ توحيده وتمييزه، وتعرف نفسك بالله لأنك أثر من آثاره لا تستغني عنه في ذهن ولا خارج، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك حتى تثبت نفسك مستغنيًا عنه فتثبت إلهًا آخر من دون الله من حيث لا تشعر، وتعلم أن ما في نفسك لله وبالله سبحانه لا غنى عنه في حال (ولعل تذكير الضمير الراجع إلى النفس من جهة كسب التذكير بالإضافة).

وأما قوله عليه السلام: «**وتعلم علمه**»، فمن الممكن أن يكون من القلب أي تعلمه علمًا، أو من قبيل المفعول المطلق النوعي، أو المراد العلم الذاتي أو مطلق صفة علمه تعالى.

وأما قوله عليه السلام: «**كما قالوا ليوسف**... إلخ»، فمثال لمعرفة الشاهد بنفسه لا بغيره من المعاني والصفات ونحوهما. وكذا قوله: «**أما ترى الله يقول: ما كان لكم**... إلخ»، مثال آخر ضربه عليه السلام وأوّله إلى مسألة نصب الإمام وأن إيجاد عين هذه الشجرة الطيبة إلى الله سبحانه لا إلى غيره». **تحف العقول**، حاشية العلامة الطباطبائي، الصفحة ٣٢٧.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ٩٠.

(٤) سورة **النمل**، الآية ٦٠.

(٥) حسن بن علي الحراني، **تحف العقول عن آل الرسول**، الصفحات ٣٢٥ - ٣٢٩.

لاحظنا في الرواية السابقة أنّها تضمّنت مفاهيم غايةً في التعالي والدقّة، خاصّةً ما جاء في نهاية الرواية، حيث يصعب علينا فهمها، وبالتالي فهي تحتاج إلى دراسة شاملة ودقيقة للوقوف على حقيقة معانيها.

فقد جاء في أحد مقاطع تلك الرواية، أن سائلًا سأل الإمام الصادق عليه السلام عن التوحيد، فقال: فَكَيْفَ سَبِيلُ التَّوْحِيد؟ فأجاب الإمام عليه السلام: «**إِنَّ مَعْرِفَةَ عَيْنِ الشَّاهِدِ قَبْلَ صِفَتِهِ، وَمَعْرِفَةَ صِفَةِ الْغَائِبِ قَبْلَ عَيْنِهِ**».

فالشخص إذا ما حضر أمامنا بعينه الخارجية وشاهدناه عيانًا، تحقّققت حينئذٍ معرفتنا به وحينها نستطيع تمييزه عن الآخرين، وهذا الحضور الخارجي للشيء والمشاهدة بأعيننا، تجعلنا في غنىً عن صفاته أو ملامحه لمعرفة وتمييزه.

وبعد أن تمكنّا من تمييز الشيء عن الغير وتشخيصه من خلال مشاهدة عينه الخارجية دون الحاجة إلى الاستعانة بصفاته وملامحه، ننتقل بعد ذلك إلى التعرّف على صفاته وملامحه حتّى نزيد من معرفتنا به، وتتكوّن لدينا معرفة كاملة بأحوال هذا الشخص أو الشيء.

فمعرفتنا للعين الخارجيّة الحاضرة أمامنا تحصل بالمشاهدة والإدراك الحضوري، وبهذه الوسيلة نستطيع تشخيصه وتمييزه عن الآخرين، وكذلك نستطيع تعريفه للذين لم يتمكّنوا من مشاهدته عن طريق ذكر صفاته وملامحه.

أما إذا كان الشخص غائبًا، فإنّنا نتعرّف إليه عن طريق صفاته وملامحه، لكن هذه المعرفة ليست سوى معرفة مفهومية كلية إجمالية،

وبالتالي فهي لا تمنحنا القدرة على تمييز هذا الشخص وتشخيصه بشكل تامّ عن الآخرين.

«ومن هنا يتبين أيضًا أن توحيد الله سبحانه حقّ توحيده أن يُعرف بعينه أوّلًا ثم تُعرف صفاته لتكميل الإيمان به، لا أن يُعرف بصفاته وأفعاله فلا يُستوفى حقّ توحيده. وهو تعالى الغني عن كل شيء، القائم به كل شيء، فصفاته قائمة به وجميع الأشياء من بركات صفاته من حياة وعلم وقدرة ومن خلق ورزق وإحياء وتقدير وهداية وتوفيق ونحو ذلك، فالجميع قائم به مملوك له محتاج إليه من كل جهة.

فالسبيل الحقّ في المعرفة أن يُعرف هو أوّلًا ثم تُعرف صفاته ثم يُعرف بها ما يُعرف من خلقه لا بالعكس.

ولو عرفناه بغيره لن نعرفه بالحقيقة، ولو عرفنا شيئًا من خلقه لا به، بل بغيره، فذلك المعروف الذي عندنا يكون منفصلًا عنه تعالى غير مرتبط به، فيكون غير محتاج إليه في هذا المقدار من الوجود.

فيجب أن يُعرف الله سبحانه قبل كل شيء، ثم يُعرف كل شيء بما له من الحاجة إليه حتى يكون حقّ المعرفة»[1].

عظمة معرفة الله الشهودية وإمكان الوصول إليها

قال الإمام الصادق عليه السلام: إن مُحبّينا يعرفون الله عن طريق المشاهدة والعلم الحضوري، لا عن طريق صفاته؛ لأنها ستكون معرفةً غيبيةً تقتصر على معرفته عن طريق المفاهيم، وعندما يناجون الله يُدركون وجوده بكل جوارحهم كأنهم يرونه حاضرًا أمامهم.

---

(١) **تحف العقول**، حاشية العلامة الطباطبائي، الصفحة ٣٢٧.

ما نستنبطه من هذا الكلام هو أن الإنسان - إضافةً إلى معرفته الغيبية بالله التي يمكن أن يصل إليها عن طريق مفاهيم الصفات - له إلى ذلك أن يصل إلى المعرفة الشهودية بالله وإدراك كنه ذاته وحقيقة صفاته، ولا شكّ أنّ هذه المعرفة تختلف عن المعرفة الغيبية الحاصلة عن طريق المفاهيم، وهي أفضل وأكمل منها، ويصل إليها الإنسان بتوفيق الله وبواسطة النور الذي يُلقيه الله في قلبه.

وهذه المعرفة تعني إدراك الله تعالى إدراكًا حضوريًّا، لكن بالطبع ليس إدراكًا حسّيًا بواسطة العين أو غيرها من أعضاء الجسم؛ لأن الله ليس بجسم كي نُدركه بحواسنا الظاهرة؛ بل هو إدراك باطني وروحي يحصل بواسطة القلب المصفّى بنور الله. ونتيجةً لهذا النوع من المعرفة والإدراك يشعر الإنسان أن الله قريب منه ويتكلّم معه، لكنّه يعجز عن وصف هذا الإدراك والشهود الحضوري لله تعالى، ولا يمكنه التعبير عنه بالألفاظ والكلمات.

وهـذه المعرفة التوحيدية، هـي المعرفة التي يأمل الأئمة المعصومون عليهم السلام أن يصل إليها محبّوهم وشيعتهم، فهم لا يُريدون أن تقتصر معرفة محبّيهم بالله على المعرفة الغيبية والحاصلة عن طريق المفاهيم الكليّة؛ لأن هذه المعرفة الغيبية معرفة سطحية لا تؤدّي إلى تقوية ارتباط الإنسان بربّه، فمثلًا لو تصوّر الإنسان اللهَ بأنه الخالق لهذا العالم، فهذا التصوّر لا يخلق ارتباطًا عينيًّا مؤثّرًا ووثيقًا بينه وبين الله عزّ وجلّ.

كما أن البعض قد يعجز عن معرفة الله معرفةً حقيقيةً وشهوديةً نتيجةً لبساطة فهمه وإدراكه وسطحية تفكيره، مما قد يجعل معرفته الحصولية والمفهومية لله تعالى تشوبها الكثير من المفاهيم المادّية

والصفات الجسمانية؛ لهذا قد يتصوّر الله على شكل نور ينتشر في السماء ويستقرّ على العرش.

إن السبيل واسع جدًا أمام الإنسان للوصول إلى المعرفة الشهودية بالله تعالى، فبالسعي والاجتهاد وتقوية القوى العقلية والفكرية وزيادة المعارف الإلهية، يتمكّن الإنسان من نيل المعرفة التوحيدية الحقّة بالله تعالى، ويصبح من محبّي أهل البيت عليهم السلام في السرّ والعلانية الذين عرفوا التوحيد حقّ معرفته.

وبعد ذلك يتمّكن من الانتفاع من هذه المعرفة التوحيدية الحقّة لتقوية إيمانه بالله تعالى ومعرفة حدود هذا الإيمان وحقائقه.

إن هذه المعرفة التوحيدية هي المعرفة الشهودية التي أشرنا إليها في المحاضرة السابقة، والتي تمّ توضيحها في آية «الذر» والآيات المشابهة لها، فالإنسان بواسطة هذه المعرفة الشهودية يعرف الله بالله نفسه؛ أي يعرفه بالمشاهدة والحضور، ثم بواسطة الله تعالى يعرف بقية الأشياء؛ أي يُدرك حضور الله ونفاذ أمره في كل أرجاء العالم وفي جميع الظواهر، وهي المعرفة التي وصفها الإمام السجّاد عليه السلام في قوله: «**إِلَهِي بِكَ عَرَفْتُكَ وَبِكَ اهْتَدَيْتُ إلى أَمْرِكَ وَلَوْلا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْت**»[1].

واتّضح مما تقدّم أن معرفة الله التي أثبتها الحكماء بالبراهين والأدلة العقلية في كتبهم الكلامية والفلسفية، ليست سوى مجموعة من المفاهيم التي تبيّن صفات الله، ولا تؤدّي إلى معرفة حقيقية بالله تعالى؛ بل المعرفة التوحيدية الحقّة إنما تحصل عن طريق الشهود والإدراك

(١) ابن طاووس، **مُهج الدعوات ومنهج العبادات**، الصفحة ١٤٤.

الحضوري لله تعالى، وبسبب هذه المعرفة والإدراك يتسنّى للإنسان إقامة ارتباط وثيق عن وعي تامّ بالله تعالى.

وتختص هذه المعرفة الخالصة الحقّة بأولياء الله ومحبّي أهل البيت عليهم السلام في السرّ والعلانية الذين بلغوا أسمى وأشرف مقام عند الله، فبهم تنزل بركات الله ورحمته على العالمين، وبهم يرزق الورى، وببركتهم تُستجاب الدعوة. أما السبيل إلى نيل هذه المعرفة فهو إطاعة الله والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والتسليم لأوامر الله وإرادته وترجيحها على رغبات النفس وشهواتها.

المقال الخمسون
بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (٣)

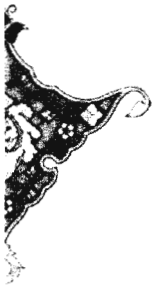

مراجعة للمواضيع السابقة

تحدّثنا في المحاضرة السابقة عن معرفة الله تعالى، وقلنا إن هذه المعرفة تنقسم إلى قسمين: معرفة حصولية، وأخرى حضورية، وبحثنا عن كل واحدة منهما، وانتهينا إلى نتيجة مفادها أن الإنسان وإضافة إلى قدرته على كسب العلم الحصولي بالله تعالى وصفاته عن طريق المفاهيم الذهنية، يمكنه أيضًا بلوغ المعرفة الشهودية والحضورية بالله عزّ وجلّ. وذكرنا روايةً عن الإمام الصادق عليه السلام وَرَدَت في كتاب **تحف العقول** تبيّن حقيقة أن محبّي أهل البيت عليهم السلام والخواص من شيعتهم ينالون المعرفة الحضورية والشهودية بالله سبحانه، وقد أشارت هذه الرواية إلى أن الإمام عليه السلام قد قسّم هؤلاء المحبّين إلى ثلاثة طبقات، ثم بيّن أن الطبقة الأشرف هي طبقة محبّيهم في السرّ والعلانية، وذكر لهم علامات يتّصفون بها، كانت الأولى منها «**أَنَّهُمْ عَرَفُوا التَّوْحِيدَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَأَحْكَمُوا عِلْمَ تَوْحِيدِهِ وَالإِيمَانُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ وَمَا صِفَتُهُ، ثُمَّ عَلِمُوا حُدُودَ الإِيمَانِ وَحَقَائِقَهُ وَشُرُوطَهُ وَتَأْوِيلَه**».

وقد كان سدير الصيرفي - وهو من خواص أتباع الإمام الصادق عليه السلام وممن تتلمذ على يديه - جالسًا عند الإمام، فلمّا سمع كلامه هذا عن الإيمان والتوحيد، عجز عن فهم تأويله، ورأى فيه وصفًا جديدًا عن الإيمان، فقال سدير: يا ابن رسول الله ما سمعتك تصف الإيمان بهذه الصفة؟ فطلب مِن الإمام أن يفسّر له كلامه فقال: يا ابن رسول الله إن رأيت أن تفسّر ما قلت. فأجابه الإمام عليه السلام قائلًا: «**إِنَّ مَعْرِفَةَ عَيْنِ الشَّاهِدِ قَبْلَ صِفَتِهِ، وَمَعْرِفَةَ صِفَةِ الْغَائِبِ قَبْلَ عَيْنِهِ**».

وأسلفنا أن معرفة الشاهد والحاضر، ومعرفة الغائب عن طريق صفاته، يمكن حملهما على العلم الحضوري والعلم الحصولي، حيث يمكننا تفسير معرفة عين الشاهد والحاضر، بأن العالِم يمكنه إدراك ذات المعلوم ومشاهدته مباشرةً دون مساعدة المفاهيم الذهنيّة أو معرفة صفاته، أمّا معرفة الغائب فهي معرفة حصولية يصل إليها العالِم بمساعدة مفاهيم الذهن ومعرفة صفات ذات المعلوم؛ أي إن العالِم لا يمكنه في هذه المعرفة إدراك ذات المعلوم ومشاهدته من دون واسطة؛ بل يحتاج إلى معرفة صفات المعلوم الغائب حتّى يصل إلى معرفة ذهنيّة به.

إذًا، في هذا النوع من المعرفة، نتعرّف أوّلًا على صفات المعلوم قبل معرفة ذات المعلوم الغائب، وبواسطة صفاته نصل إلى معرفة عينه وذاته. ولتقريب هذا التفسير إلى الذهن، نذكر هنا مثالًا حسيًّا (وهو بالطبع يختلف عن المثال الذي يخصّ المعرفة الشهودية؛ لأن معرفتنا الناشئة عن المحسوسات هي معرفة حصولية وغيبية تنشأ عن طريق المفاهيم والصورة المأخوذة عن الصفات والخصائص الحسّية للموجود، ومن ثم تنطبق هذه المعرفة الغيبية على معرفة عين الغائب عن طريق صفاته، وهي التي جاء ذكرها في الرواية)، فلو رزق الله تعالى شخصًا

طفلًا، وأحضروا هذا الطفل لأبيه، فإنه سينظر إلى وجه ابنه ويتعرّف عليه جيّدًا قبل أن يتمعّن في صفاته وخصائصه الأخرى كالوزن والطول ولون البشرة؛ لكن لو أرادوا أن يعرّفوا هذا الطفل لشخص غائب، فإنهم سيصفونه له بذكر صفاته وخصائصه الظاهرية، فلو عاد هذا الغائب إلى وطنه، وشاهد هذا الطفل، فإنه سيتمعّن ويدقّق في تطبيق تلك الصفات والخصائص التي ذكروها له سابقًا على هذا الطفل.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام أن محبّيهم والخواص من شيعتهم يعرفون الله معرفةً شهوديةً وحضورية؛ أي إنهم يُدركون الله ويشاهدونه بالعلم الحضوري الواعي؛ وهم يعرفون الله معرفةً حقّةً أكثر من أي شخص أو شيء آخر، وبواسطة الله نفسه يعرفون الله والآخرين أيضًا.

ولبيان هذه المعرفة الحضورية والشهودية بالله تعالى بشكل أدقّ، يُشير الإمام عليه السلام إلى الآية التي تذكر قصة النبي يوسف عليه السلام وإخوته في مِصر، والحوار الذي جرى بينهما، ونقل ما جاء في الآية عن قول إخوته ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾[1]؛ فالإمام يبيّن أن إخوة يوسف عرفوا يوسف به، ولم يعرفوه بغيره، فهم شاهدوا يوسف بأعينهم فعرفوه ولم يحتاجوا إلى واسطة لمعرفته كالميل العاطفي أو الظن وغيرها.

النظريات المختلفة حول العلم الحضوري بالله تعالى

إن أولياء الله يعرفون الله بذاته، فهم لا يعرفونه معرفةً غيبيةً عن طريق المفاهيم الذهنية والمعرفة المفهومية لصفاته، كأن يعلم الإنسان مثلًا أن

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٩٠.

الله خالق هذا العالَم. فمن يعرف الله بذاته ومن ذاته فهو يعرفه معرفةً شهوديةً وحضوريةً تامّة، وهنا سيعرّف اللهُ نفسَه لهذا الشخص، ويتجلّى له في قلبه فيجعله لا يشك بعدها أبدًا بربّه.

وعند تطبيق المعرفة الشهودية بالله على العلم الحضوري به تعالى، يُطرح هذا السؤال: هل يمكن للإنسان أن يعلم بالله علمًا حضوريًّا؟

لطالما اختلف علماء المعقول في الإجابة عن هـذا السؤال، فالمشّائيون يعتقدون بوجود مصداق واحد فقط للعلم الحضوري، وهو العلم بالذات؛ أي إن العلم الحضوري عندهم يقتصر على علم النفس بذاتها؛ أي إن كل إنسان لا يُدرِك بالعلم الحضوري سوى نفسه، وهو ما يُطلق عليه العِلم بالذات؛ أما غيره من العلوم فجميعها من نوع العلم الحصولي، حتى علم الله بموجوداته.

ولقد كان ابن سينا - بالرغم من دقّته العلمية - يعتقد أن علم الله بموجوداته يحصل برسم صورة هذه الموجودات في الذات الإلهية، مما يعني أننا لا يمكننا الوصول إلى علم حضوري بالله تعالى.

وعلى هذا فكل ما نتحدّث عنه من العلم بالله ورؤيته ومشاهدته لا يمكن أن يحصل حضوريًّا، وجميع ذلك يندرج ضمن العلم الحصولي، حتى عبارة «**ولكن تُدْرِكُهُ القُلوبُ بحقائقِ الإيمانِ**»[1]، تندرج ضمن العلم الحصولي بالله تعالى.

ولكن التطوّر الذي شهده علم الفلسفة ببركة نور الإسلام ومعارف أهل البيت عليهم السلام، خاصّةً بعد ظهور الحكمة المتعالية لصدر المتألهين،

(١) السيد الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ١٧٩.

جعل حكماء الإسلام يصلون إلى نتيجة مفادها أن العلم الحضوري يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام هي: العلم بالذات وقواها المُدرِكة، وعِلم العلة بمعلولها، وعِلم المعلول المُدرِك بعلّته الموجِدَة له.

وما نقصده بالعلة المُوجِدَة هو الفاعل والعلّة التي تُوجِد المعلول، وليس الفاعل الذي يقوم بتركيب المواد أو إحداث تغيير فيها لتكوين هيئة جديدة، فهذا الفاعل يُطلق عليه اصطلاحًا «الفاعل» أو «العامل الإعدادي».

ولتوضيح ذلك نضرب هذا المثال: لو قلنا إن هذا البنّاء قام بتشييد هذه الدار وبنائها، فالواقع أنه لم يقم ببناء الدار حقيقةً ولم يوجدها من العدم؛ بل قام بتركيب مواد البناء وتنظيمها مع بعضها البعض حتّى تشكّلت هيئة جديدة هي الدار، فهو لم يكن سوى واسطة وعامل لإيجاد هذه البناية من مواد متفرّقة؛ لذلك يُطلق عليه اسم «الفاعل الإعدادي».

إنّ العامل وعلّة الإيجاد يعني إيجاد الشيء من العدم، ولا يقتصر عمله على تركيب المواد وتنظيمها؛ بل يوجِد المعلول من كتم العدم. فالله تعالى هو علة إيجاد جميع الظواهر، وبالتالي يكون له علم حضوري بجميع المخلوقات والظواهر، كذلك نفس الإنسان التي هي علة لإيجاد جميع الأفعال والانفعالات الصادرة عنها، فلهذا يكون لها علم حضوري بنفسها، كما ويكون لها علم حضوري بأفعالها وانفعالاتها. فالإرادة والعزم معلولان لنفس الإنسان، والنفس تعتبر علة إيجادهما، لا عاملًا إعداديًّا لهما، كما هو الحال بالنسبة للفنّي في المصنع الذي يُعتبر عاملًا إعداديًّا للمواد التي يصنعها. فالإنسان عندما يُريد ويقرّر القيام بعملٍ ما، فإن النفس توجِد هذه الإرادة والتصميم فجأةً دون تفكير مُسبق؛ أي إن النفس هي التي تخلق هذه الإرادة والتصميم.

كذلك عندما نُشاهد شيئًا، فإن صورته الذهنية تتكوّن في ذهننا، والنفس هي التي تخلق هذه الصورة الذهنية؛ وبهذا يكون للنفس علم حضوري بالصور الذهنية المتكوّنة في أذهاننا. فالمعلول قائم بعلّته الموجِدة له، وليس له وجود مستقلّ عنها، وفعل العلّة حاضر للمعلول، ولا يمكن أن تزول العلة ويبقى المعلول بدون علّته، كما لا يمكن أن يفنى الإنسان أو ينصرف فكره عن إرادته وصورته الذهنيّة، وتبقى هذه الإرادة والصور الذهنية موجودةً عنده؛ بل إن بقاءها متعلّق بعدم غفلة الإنسان عن هذه الإرادة والصورة الذهنية. إذًا، هي تحتاج في إيجادها وبقائها إلى علّتها الموجِدة لها.

كذلك الحال بالنسبة للظواهر والمخلوقات التي تكون قائمة بعلّتها الإيجادية «الله»، وهي حاضرة عند الله، والله عنده علم حضوري بها، وإضافةً إلى أن حدوثها وإيجادها قدّ تم بواسطة الله سبحانه، فإن الله هو من يفيض عليها البقاء في كل لحظة، واستمرار وجودها قائم بإرادته ومشيئته.

دور توسيع مصاديق العلم الحضوري في الفهم الصحيح للمعارف الدينية

اتّضح مما تقدّم أن العلم الحضوري وببركة تأثير العلوم الإسلامية في عِلم الفلسفة الإسلامية، تم تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: ١. العلم بالذات، ٢. علم العلة بمعلولها (وعلى ضوء ذلك، يعلم الله علمًا حضوريًّا بمخلوقاته التي أوجدها بإرادته، ووجودها قائم بوجوده تعالى)، ٣. علم المعلول (المُدرِك) بعلّته.

وعليه فلو كان الموجود المُدرِك يُدرِك ذاته، فسيُدرِك الله أيضًا، ويُدرِك أن وجوده قائم بوجود علّته (الله تعالى) ولا يمكنه البقاء مستقلًا عنها.

وعلى ضوء هذه النتائج والمعطيات المهمّة في الحكمة المتعالية، تمكّنا من تفسير وتأويل الكثير من الآيات المتشابهة في القرآن الكريم، ومنها الآيات التي تتحدّث عن تسبيح المخلوقات لله تعالى، كقوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

ما نتصوّره عن بعض المخلوقات غير المُدرِكة كالنباتات والطيور أنها فاقدة للفهم والإدراك؛ لكن الله يخبرنا في القرآن الكريم أنها تسبّح له، أي لها القدرة على الفهم والإدراك؛ بحيث تُدرِك وجود الله وتُسبّح له؛ بل يُخبرنا الله أن كل واحد من هذه الطيور يعلم تسبيحه وصلاته. وإضافةً إلى إشارته إلى تسبيح هذه الموجودات، يبيّن الله تعالى، في آية أخرى، عجزنا عن معرفة طبيعة فهم هذه الموجودات وإدراكها وحقيقة تسبيحها لله، فيقول عزّ من قائل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2].

تبيّن لنا هذه الآيات الشريفة أن جميع الموجودات - سواء المُدرِكة أو غير المُدرِكة منها وحتى الجمادات - لها نوع من الإدراك والشعور

---

(١) سورة **النور**، الآية ٤١.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٤٤.

الذي تتمكّن بواسطته من تسبيح الله وحمده؛ لكنّنا نعجز عن معرفة حقيقة فهمها وإدراكها وطبيعة تسبيحها وحمدها.

بعض مَن عجز مِن المفسّرين عن فهم مثل هذه الآيات وتفسيرها، قال: والمراد من التسبيح الدلالة بلسان الحال، أي تدلّ بإمكانها وحدوثها دلالةً واضحةً على وجوب وجوده تعالى ووحدته وقدرته وتنزّهه عن لوازم الإمكان وتوابع الحدوث، كما يدلّ الأثر على مؤثّره، ففي الكلام استعارة تبعية كما في نطقت الحال[1].

بيد أنّ هذا التفسير لا يتلاءم مع مضمون هذه الآيات، خاصّةً تعبيره سبحانه ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾، فمثل هذا التعبير لا يمكن أن يقتصر على هذا المعنى وأنها تدل على وجوب وجود الله تعالى ووحدته وقدرته وتنزّهه وكماله المُطلق؛ بل إنّها تتضمّن معنىً أوسع من هذا؛ فإذا ما ثبت أن لكل معلولٍ علمًا حضوريًا بالله تعالى، اتضح حينها معنى هذه الآيات والروايات المشابهة لها، فعلى ضوء علم هذه الموجودات ومعرفتها بالله تعالى نتمكّن من تفسير تسبيحها وحمدها.

وبالطبع، لا بدّ من الإذعان لمسألة أن العلم الحضوري بالله تعالى عند هذه الموجودات - ومنها الإنسان - يتفاوت من حيث الشدّة والضعف، وله مراتب ودرجات مختلفة. فأحيانًا يكون العلم الحضوري قويًّا بما فيه الكفاية ويحصل عن وعي وعلم مسبق، وفي أحيان أخرى يكون ضعيفًا ومن النوع اللاوعي أو شبه الواعي. وأحيانًا يصل هذا العلم الحضوري بسبب شخصيّة الإنسان وعظمته وصفاته الكمالية إلى درجة يشهد فيها جميع حقائق عالم الوجود، حتى تسمع مثل هذا الإنسان

---

(١) انظر: محمود الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، الجزء ٩، الصفحة ١١٩.

الذي بلغ أعلى مراتب الكمال والتعالي، يقول لو رفعت عنّي جميع الحُجب وبدت لي كل حقائق عالم الوجود ما ازددتُ يقينًا: «**لَو كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقينًا**»[1]؛ لكن نجد هذا العلم الحضوري ضعيفًا جدًا عند آخرين، بحيث يبقى حبيسًا في ضميرهم اللاواعي، والاختلاف بين مرتبة هذين النوعين من العلم الحضوري كبير جدًّا كالاختلاف بين شدّة نور الشمعة ونور الشمس.

استحالة معرفة كُنه الله تبارك وتعالى وحقيقته

من يعتقد أن العلم الحضوري يقتصر على معرفة النفس بذاتها، وأن العلم الحضوري لا يشمل إلا علم الإنسان بنفسه، هو في الواقع يعتقد أن علمه بالله تعالى وسائر الموجودات عبارة عن نوع من أنواع العلم الحصولي؛ بل يعتقد باستحالة الوصول إلى معرفة تامّة بكُنه الله وحقيقته بالعلم الحصولي، ويعتبر أن علمنا بالله تعالى يكون من نوع العلم بالوجه؛ أي إن علمنا بالله يحصل عن طريق العلامات والآثار والتجلّيات الإلهيّة، وبالتالي يستحيل معرفة كُنه الله وحقيقته، ولا يمكن لأي أحد معرفة ذات الله تبارك وتعالى، حتى الأنبياء ورسول الله ﷺ لا يمكنهم الوصول إلى معرفةٍ تامّة بذات الله عزّ وجلّ.

ولتوضيح ذلك نقول: يمكن معرفة كُنه الذات لأمرٍ ما إذا كانت له ماهيّة تتشكّل من جنسٍ وفصلٍ، ولمّا كان الله تعالى لا ماهيّة له، وليس له جنس وفصل، يمكن من خلالهما معرفة كُنه ذاته معرفةً تامّة؛ لذا سيكون علمنا بالله علمًا ناقصًا، أو علمًا بالوجه.

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٠، الباب ٩٣، الصفحة ١٥٣، الحديث ٥٤.

ومن هنا فمعرفة الماهية إذا تحقّقت عن طريق «الحدّ التام» المتكوّن من جنس وفصل حقيقيين، فسيعرف الإنسان كُنه تلك الماهيّة وذاتها معرفةً حقيقيةً وتامّة، أما إذا تحقّقت معرفة الماهيّة عن طريق «الحدّ الناقص» أو الأعراض فستكون معرفته بالوجه.

ويعتقد بعض الفلاسفة بعدم إمكانية معرفة كُنه الأشياء أيضًا؛ لأنه لا يمكننا أن نُدرِك جنسها وفصلها الحقيقيين؛ وبالتالي لا يمكننا وضع تعريفٍ كامل عن الأشياء؛ أي تعريفها بالحدّ التام الذي يعبّر عن كنهها، فنستنتج أن معرفتنا بماهيّات الأشياء تكون معرفةً بالوجه أيضًا.

إذًا، فليس بمقدور الإنسان معرفة كُنه ذات الله بالعلم الحصولي؛ لأن الله ليس له ماهيّة مركّبة من جنس وفصل حتى يمكن - عن طريقهما - معرفة كُنه الله ووضع تعريف تام له.

ويذهب هؤلاء كذلك إلى أننا لا يمكننا الوصول إلى علم حضوري بكنه الله، حتى على ضوء النظرية الثانية الموافقة لما جاء في الآيات والروايات والبراهين العقلية، والتي يمكن بحسبها الوصول إلى معرفة الله بالعلم الحضوري؛ لأن العلم الحضوري بكنه الله يستلزم الإحاطة بجميع جهاته الوجودية، مع أنه من المحال أن يحيط المخلوق المحدود بالخالق غير المحدود.

وعليه فلا يمكن معرفة الله بالعلم الحضوري؛ لأنّنا موجودات ناقصة، والناقص لا يمكنه الإحاطة بالكامل المطلق. ولمّا كنا نعجز عن معرفة ذات الله وكنهه بكلا العلمين، أجمع العلماء على عدم إمكانية الوصول إلى علم حضوري أو حصولي بكنه الله وذاته.

وعلى ضوء ما تقدّم، اعتبر العلماء أن التعبير بالعلم الحضوري عن إدراكنا لذات الله وعلمنا بها فيه نوع من المسامحة، وقالوا إن المراد به هو العلم الحضوري بوجه الله تعالى، وليس بذات الله التي هي غيب مطلق؛ فذات الله حقيقة ليس لها «اسم ورسم»[1] حتى يمكن بواسطتهما إدراكها ومعرفتها؛ لذا لا يمكننا تصوّر ذات الله، ولا يمكننا إدراك حقيقتها بالعلم الحضوري.

أما ما نُدركه بالعلم الحضوري فهو وجه الله وتجلّياته الربوبيّة التي أشار إليها القرآن الكريم أيضًا، فقد جاء في بعض الآيات أن علمنا يتعلّق بوجه الله أو بوجه الربّ، وحتى الملائكة والنبي الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام لا يمكنهم الوصول إلى علم حضوري بكنه الذات الإلهيّة.

معنى العلم الحضوري بذات الله تبارك وتعالى

من جهة أخرى، يعتقد أهل المعقول أن العلّة لا تغيب عن معلولها، ووجود المعلول يستلزم علمه بذات علّته؛ وهذا العلم من المعلول لعلّته - حتى لو لم يكن عن وعي وإدراك - هو لا أقل علم حضوري من النوع اللاوعي بذات علّته.

والظاهر أن هذا الكلام يتناقض مع الكلام السابق، حتى إن بعضهم أورد هذين الكلامين المتناقضين في كتبه، مما أثار تعجّبنًا عن سبب إيراده لكلا الكلامين، لكن يبدو أنه يمكن الجمع بينهما بوجود اصطلاحين في «ذات الله».

---

(١) أي حدّ تام أو ناقص.

الاصطلاح الأول يرتبط بعلمي الفلسفة والكلام، وخاصّة ما يتعلق بآراء المتكلّمين الشيعة المستنبطة من كلام أمير المؤمنين وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام، وبحسب هذا الاصطلاح، تكون ذات الله عين صفاته، وصفاته ليس لها وجود مستقلّ عن ذاته، وليست هي زائدة عنها. وهذا الرأي يمكن استنباطه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في **نهج البلاغة**، حيث يقول: «**وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ**»[1].

نفهم من هذا الكلام الشريف لأمير المؤمنين عليه السلام أن صفات الله ليست مستقلّةً ولا زائدةً على ذات الله، وهي عين ذاته، والاختلاف بينهما من حيث المفهوم فحسب، كالاختلاف بين مفهوم العلم ومفهوم الحياة، وكلاهما يختلفان من حيث المفهوم عن مفهوم ذات الله.

ورغم ذلك، إلا أنه لا يوجد في الواقع والمصداق أيّ تفاوت واختلاف بينهما؛ بل العينية والوحدة ظاهرة في المفهومين، على عكس الصفات في الممكنات؛ حيث تكون من جهة المفهوم والمصداق زائدةً على ذات الممكن، وذات الممكن تتّصف بصفات زائدة عليها.

وعلى ضوء ذلك، فعندما نقول إن لله علمًا وحياةً وقدرة، فلا نعني بذلك أن لهذه الصفات وجود مستقلّ عن ذات الله؛ بل ذات الله هي عين العلم والحياة والقدرة وغيرها من الصفات، ولا يوجد أيّ تعدّد أو تمايز حقيقي بينهما.

وفي مقابل هذا الرأي، يظهر قول الأشاعرة الذين يعتقدون أن صفات الله مستقلّة وزائدة على ذات الله، ويقولون بتعدّد القدماء وهم ثمانية؛

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ١.

أي ذات الله وصفاته السبعة (١. العلم، ٢. القدرة، ٣. الحياة، ٤. السمع، ٥. البصر، ٦. الإدراك، ٧. الإرادة)، هم القدماء الثمانية ولكل واحد منها وجود مستقلّ عن الآخر.

فعندما تكون ذات الله بسيطةً وعينَ الصفات، التي تتعدّد من جهة المفاهيم، لكنّها تتّحد في المصداق، وكل واحدة منها عين الأخرى، عندئذٍ لا يمكن للإنسان أن يعرف الصفات دون أن يعرف الذات أيضًا؛ لأن الصفات ليست زائدةً على الذات حتّى تختلف معرفتها عن معرفة الذات.

الاصطلاح الثاني هو اصطلاح العرفاء، وفي هذا الاصطلاح يكون مقام الذات وكُنه الباري تعالى، أو بتعبير آخر «مقام الأحدية»، هو مقام تجلّي الذات للذات، ومقام غيب الغيوب قبل ظهور الأسماء والصفات، ولا يمكن لأي أحد حتى رسول الله ﷺ أن يصل إلى حقيقة هذا المقام، أي حقيقة كُنه ذات الحقّ، ولا يمكنه معرفته أو إدراكه أو مشاهدته.

وقد نجد أحيانًا في كلمات العرفاء استعمالهم لفظ «الله» وهو اسم عَلَم للتعبير عن ذات الله؛ لكن هذا اللفظ لم يؤخذ فيه سائر المعاني كالألوهيّة والتدبير وأمثالها.

وفي المقابل، نجد «مقام الواحدية» وهو مقام ظهور الأسماء والصفات ومظاهرها؛ أي ذات الأشياء وماهيّتها[1].

---

(١) وتوضيح ذلك هو أن العرفاء ينظرون إلى الذات الإلهية نظرةً أدقّ وأعمق من غيرهم؛ حيث إنهم ينظرون إلى الذات مجرّدةً وخالصةً ومطلقةً عن كل قيد وشرط آخر، وفي هذه النظرة هم لا يلحظون مع الذات أي اعتبار آخر حتى اعتبار الأسماء والصفات، فالملحوظ هنا هو الذات فحسب، وبهذا الاعتبار تكون الذات مقدّمةً على الأسماء وإن كانت الأسماء عين الذات بلحاظ آخر. [المُراجع]

ومن هنا فعندما نقول لا يمكننا العلم بذات الله، فنقصد به اصطلاح ذات الله عند العرفاء الذي يتقدّم على مرتبة الأسماء والصفات والتجلّيات الإلهية، وهو مقام لا يبلغ حقيقته حتى الأنبياء والأولياء والملائكة المقرّبون، فهو مقام لا يعلمه إلّا الله تعالى.

وعلى ضوء رأي العرفاء هذا، لا يمكن الوصول إلى علم حضوري بمقام الذات الإلهية؛ لأنه غيب محض، ويقتصر على الله نفسه لكونه الوحيد المحيط بذاته، أما باقي الموجودات فلا يمكنها الإحاطة بذات الله؛ لأنها موجودات محدودة ومحال أن يحيط المحدود بغير المحدود واللامتناهي، وبالتالي لا يمكنها إدراك ومعرفة ذات الله التي تستلزم الإحاطة بجميع جهات الله الوجودية؛ ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1].

يتّضح مما تقدّم، أن من يرى إمكانية العلم بذات الله، بل ويعتقد أن هذا العلم من مستلزمات وجود المعلول، إنما يقصد بذات الله معناها في اصطلاح الفلاسفة والمتكلّمين، الذي يعني أن الذات هي عين الصفات ولا يوجد أي تعدّد أو تمايز بينها وبين صفاتها الوجودية.

وفي مقابل ذلك ثمّة من يرى أن علمنا يتعلّق بوجه الله وتجلّياته الربوبيّة وليس بذاته، فهو يقصد بالذات هنا معناها باصطلاح العرفاء؛ أي مقام «غيب الغيوب» الذي تخرج الإحاطة به عن مجال علمنا وإدراكنا ومشاهدتنا، ويقتصر ذلك على الله فحسب.

فعلى ضوء معنى الذات في اصطلاح الفلاسفة يمكننا الوصول إلى علم حضوري وحصولي بذات الله تعالى، والعلم الحضوري هنا لا يعني

---

(١) سورة طه، الآية ١١٠.

الإحاطة التامّة بكُنه الله وذاته؛ لأن الله وحده هو القادر على الإحاطة التامّة بذاته، وأما العلم الحضوري للآخرين فهو أدنى من هذه المرتبة.

كما أن مراتب هذا العلم الحضوري الذي يبلغه الإنسان تختلف شدّةً وضعفًا باختلاف مقام الإنسان ومراتبه، لكن بالطبع جميع هذه المراتب تعدّ نوعًا من المعرفة بذات الله وليس المعرفة بوجه الله. وهذه المعرفة تكون أحيانًا ضعيفة كما في الحيوانات وحتى الجمادات، وبسبب وجود هذه المعرفة، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وفي آية أخرى، يُشير الله تعالى إلى تسبيح الرعد، فيقول: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[2]. ما نفهمه من هذه الآية أن الرعد يسبّح بحمد الله، ولو لم يكن له شعور وإدراك لما قام بهذا التسبيح. وعلى كل حال، فالمعرفة الحضورية بالله تعالى لها مراتب مختلفة، تقع الحيوانات والجمادات في أدنى هذه المراتب، بينما يتبوّأ أولياء الله والخواص من عباده أعلى هذه المراتب، والمرتبة الأعلى من المعرفة الحضورية تختصّ بمعرفة الله اللامتناهية بذاته.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٧٤.

(٢) سورة **الرعد**، الآية ١٣.

المقال الحادي والخمسون
بحث في معرفة الله، ماهيّتها وشمولها (٤)

الإفراط والتفريط في الآراء المتعلّقة بمعرفة الله وصفاته

ضمن شرحنا وتحليلنا للقسم الأوّل من مناجاة العارفين، تحدّثنا عن مفهوم معرفة الله تعالى وإمكان تحقّقها عند الإنسان، وفي هذا المبحث سنواصل مناقشة موضوع بحثنا السابق، وتلخيص ما توصّلنا إليه في المواضيع السابقة للوصول إلى نتيجة شاملة.

والسؤال الأوّل الذي يتبادر إلى الذهن في موضوع معرفة الله سبحانه هو: هل يمكننا معرفة الله؟

نظرًا إلى التأكيد على ضرورة معرفة الله - التي أشارت إليها الروايات والنصوص الدينية، إضافةً إلى السبل والأدوات الآفاقية والأنفسية التي هيّأها الله تعالى أمام الإنسان ليتمكّن من معرفته - فمن الطبيعي أن الإجابة لا يمكن أن تكون بالنفي، والقول بعدم قدرتنا على الوصول إلى معرفة الله؛ لكن حصل إفراط وتفريط في الآراء التي طُرحت حول إمكان معرفة الله وحدود هذه المعرفة، وقد ترك ذلك آثارًا سلبيةً على هذه المعرفة؛ رغم أن القائلين بهذه الآراء الإفراطية والتفريطيّة قد لا يُدرِكون الآثار السلبية لآرائهم.

أما بالنسبة للآراء التفريطية، فقد تبنّت بعض *الشخصيّات المحترمة* هذه الآراء، وألّفوا كتبًا لشرحها والترويج لها، ومِن هذه الآراء قولهم: إننا لا يمكن أن نعرف الله، ويجب علينا الالتزام في وصف الله بما وَصَفَ به نفسه في القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة، كما أنّنا نعجز عن فهم كل ما جاء في القرآن والسنّة النبويّة؛ لذا ينبغي علينا الالتزام بهما تعبّدًا. كما لا يوجد سبيل لمعرفة الله سوى هذين المصدرين السماويين والإلهيين، فمثلًا يقول القرآن الكريم عن الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[1]، فنحن نعتقد أن الله تعالى خالق هذا العالم؛ لكنّنا نعجز عن فهم معنى هذه الخالقية، كما لا نعرف معرفةً حقيقيةً صفة العالِم والقادر.

وقد صرّح البعض بأنّنا لا نعرف معنى كون الله عالمًا، ولا يمكننا في تعريفه سوى القول إنه ليس بجاهل، كذلك عندما يُقال «الله قادر» فذلك يعني أنه غير عاجز، ومعنى «الله موجود» هو أن الله ليس بمعدوم.

والنتيجة المُستخلصة من هذا القول هي: أن المراد من جميع الصفات الثبوتيّة لله تعالى هو معانيها السلبية، وبالتالي فهم يُعيدون هذه الصفات الثبوتيّة إلى الصفات السلبية المقابلة لها.

ويستند القائلون بهذه النظرية في عدم فهم الصفات وعدم إمكان معرفة الله إلى بعض الروايات التي وَرَدَت في باب المنع من التفكر في ذات الله عزّ وجلّ.

وهنا يُطرح السؤال التالي: عندما تقولون في تعريف العالِم «ليس بجاهل»، وتدّعون أنكم بنفي الجهل عن الله تصلون إلى فهم معنى

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ٢٤.

«العالِم»، فهل أنتم تعلمون معنى «الجهل» الذي تنفونه عن الله؟ أم أنكم لا تعلمون معنى «الجهل» أيضًا؟ إنّ عدم فهم معنى «الجهل» يستلزم الوقوع في التناقض؛ وهذا يعني أن أيّ أحد يمكنه التعبير عن الله بما يرغب من الأوصاف والكلمات؛ لأننا لا نعلم معنى ما نقوله عن الله تعالى. إذًا، فلا فرق بين أن نصف الله بالواحد أو الاثنين أو الثلاثة؛ لأننا لا نعلم معناها.

من هنا، فلا بد أنكم عندما تعرّفون العالِم بأنه «ليس بجاهل» فإنكم تعلمون معنى «الجاهل»؛ لأنكم تقولون إننا لا نعلم معنى الصفات التي تتعلّق بالله تعالى، لكن الجهل من صفاتنا والله منزّه عنه، وبالتالي سيكون معنى «الجهل» قابلًا للفهم عندنا، أي بإمكاننا وضع تعريف له، لكنّهم يقولون في تعريف «الجهل»: «عدم العلم»، وهو مركّب من كلمتين «عدم» و «العلم»؛ أي نفي العلم.

وبتعبير آخر «الجهل هو عدم ملكة العلم»، وما لم نفهم معنى «العلم» لا يمكن أن نفهم معنى «الجهل»، والنتيجة هي أنّ فهم معنى «الجهل» متوقّف على فهم معنى «العلم».

كذلك يقولون: نحن لا نعلم معنى «قادر» في قولنا «الله قادر»، فيقولون في تعريف «القادر» - وهي من صفات الله - «ليس بعاجز»؛ فيضحي معنى «الله قادر» هو «الله ليس بعاجز».

إذًا فهؤلاء يكتفون - في تعريفهم لقدرة الله - بنفي العجز عنه، ولكنهم يعرّفون «العجز» بـ«عدم القدرة»، و«العاجز» بـ«غير القادر»؛ لكنّا إذا ما تمكّنا من فهم هذا التعريف عن العجز والعاجز، فهذا يعني أننا نعلم معنى القدرة أيضًا.

إن تعريف «القدرة» بـ«عدم العجز» لا يبيّن لنا حقيقة معنى «قدرة الله»؛ لكنّ هؤلاء - الذين تبنّوا هذا الرأي التفريطي في باب معرفة الله - كانوا يحاولون تنزيه الله عن النقص في الصفات التي يتصوّرها الناس عن الله تعالى؛ غير أن هذا الرأي التفريطي يترك آثارًا سلبيةً في باب المعرفة.

وعلى كل حال، لا يمكننا إنكار إمكانيّة معرفة الله بنحو مطلق؛ لأن النفي المطلق لمعرفة الله يستلزم نفي الدينِ ووجوبِ الالتزام به.

وقد اتّضح مما أَنَفَ، أن بإمكاننا - وعلى حدّ فهمنا ومستوى إدراكنا - معرفة الله وصفاته كصفة العالِم، والرحمن، والقادر، ومن هنا يبطل النفي المُطلق لإمكان معرفة الله.

ومن جهة أخرى تصرّح الكثير من الآيات والروايات بعدم قدرتنا على معرفة كُنه ذات الله تبارك وتعالى وصفاته، ومنها ما جاء في بداية مناجاة العارفين حيث صرّحت بالعجز عن إدراك كُنه جمال الله تعالى حيث قالت: «**وَعَجَزَتِ العُقُولُ عَنْ إِدراكِ كُنْهِ جَمالِكَ**». وعلى هذا الأساس، جاء في تعاليم المسلمين وثقافتهم، وخاصّةً في عقائد أهل البيت عليهم السلام، أن الإنسان لا يمكنه معرفة الله، وتقتصر معرفته لله على المعرفة بالوجه؛ أي عن طريق علاماته وآثاره وتجلّياته الربوبية. وهذا يتضمّن الحديث عن ماهيّة كُنه الله.

وقال البعض: إن المراد من «كُنه الله» هو «ذات الله»، أي عندما نقول لا يمكن معرفة «كُنه الله»، فذلك يعني لا يمكن معرفة «ذات الله»، أما ما يمكن معرفته ضمن مستوى إدراكنا فهو «صفات الله».

وفي هذه المناجاة، لاحظنا أنّها نسبت كلمة «كُنه» إلى صفات الله أيضًا، وصرّحت أن الإنسان يعجز عن فهم كُنه صفات الله.

والخلاصة هي أنه لا يمكن تفسير «كُنه» بمعنى «الذات»، فينجرّ بنا الحال إلى أنّه كما يعجز الإنسان عن معرفة «كُنه ذات الله»، يعجز أيضًا عن معرفة «كُنه صفاته» تعالى.

نظرة في تفسير «معرفة الله» بالعلم الحصولي والحضوري

قلنا سابقًا إنّ معرفة الله يمكن أن تكون على نحوين: إما معرفة حصولية أو معرفة حضورية.

والمعرفة الحصولية تتحقّق بمساعدة مجموعة من المفاهيم الذهنية، فمثلًا، فيما يتعلّق بماهيّة الله نقول: «الله شخص خلق العالم»، حيث نرى أن هذه العبارة تتألّف من تركيب عدّة مفاهيم «شخص» و«خلق» و«العالم»، وكل واحد من هذه المفاهيم، ومفهوم العبارة «شخص خلق عالم» نفسه، هي من المفاهيم الكلّية، حيث جاء في المنطق والأصول أن المحمولات مفاهيم كلّية. فعندما نقول «زيد قائم» يكون «قائم» محمولًا على «زيد»، والمحمول مفهوم كلّي، وكذلك المحمول في العبارة المذكورة «الله شخص خلق العالم» هو مفهوم كلّي، وهذا المفهوم الكلي - الذي ليس له أكثر من مصداق واحد - يمكن معرفته؛ لكن لا يمكن أبدًا بواسطته معرفة الله؛ بل معرفتنا لله تكون معرفةً غيبية.

إن كل ما يمكن أن يعرفه الإنسان بواسطة العلم الحصولي هو إما مفهوم أو صورة ذهنية، ولا يمكن أن يصل الإنسان بالعلم الحصولي إلى الحقيقة العينيّة والخارجيّة للمعلوم. فمثلًا، معرفتنا لزيد إما تحصل عن

طريق صورته الذهنية التي تكوّنت في ذهننا نتيجةً لمشاهدتنا المستمرّة له، أو إذا لم نكن قد شاهدناه سابقًا فمعرفته تحصل بواسطة مفهوم العبارة التالية «زيد بن فلان».

ولعلّنا نتصوّر أن بإمكاننا معرفة حقيقة الأشياء بواسطة حواسنا الظاهرية، فمثلًا، عندما نلمس شيئًا سنعرف حقيقته، رغم أن ما نعرفه باللمس هو الخشونة والنعومة والبرودة والسخونة وهي من الأعراض، فنحن لا نستطيع معرفة جوهر الأشياء بواسطة الحواس؛ لكن مع ذلك عندما نلمس شيئًا نقول من باب المسامحة إننا تعرّفنا عل هذا الشيء بواسطة اللمس.

إن العلم الحصولي لا يرشدنا إلى معرفة الله؛ بل يبيّن لنا المفاهيم المرتبطة بالله كمفهوم العالِمية والقادرية والرازقية، كما أنّ العلم الحصولي في الأساس لا يتعامل مع كُنه المعلوم وجوهره.

وفيما يتعلق بالماهيّات المركّبة، فإن بإمكاننا معرفة ماهيّة الأشياء وكُنهها بواسطة الجنس والفصل الحقيقيين - أي الحد الحدّ التام - فقط، أما الحدّ الناقص والتعريف بالرسم فلا يبيّنان كُنه الأشياء. لكن رغم ذلك، أي فرض إمكان معرفة حقيقة الأشياء بالتعريف بالحد، فالمعرفة الحصولية معرفة مفهوميّة، لا يمكنها أبدًا أن توصلنا إلى حقائق الأشياء وكنهها إلا بمعرفة ماهياتها، ولمّا لم يكن الله ماهيّةً مركّبةً من فصل وجنس، فلا يمكن الوصول إلى معرفته بما يشبه معرفتنا للأشياء التي نصل إليها بواسطة الحدّ التام.

والخلاصة هي أن جميع المتكلّمين والفلاسفة - ومنهم ابن سينا والخواجة نصير الدين الطوسي والملا صدرا - يتّفقون على عدم معرفة

الله بالعلم الحصولي، فينحصر الكلام هنا في السؤال التالي: هل يمكن بواسطة العلم الحضوري معرفة الله وشهوده؟

وكما أسلفنا، فإن الفلاسفة المشّائيين يعتقدون أن العلم الحضوري ليس له سوى مصداق واحد وهو علم النفس بذاتها، وبالتالي فالإنسان لا يعرف بالعلم الحضوري سوى نفسه، وعلمه بالأمور الأخرى إنما هو من العلم الحصولي. ورغم ذلك، وبعد انتشار الفلسفة وتطوّرها، خاصّةً بعد ظهور الحكمة المتعالية، ذكروا مصاديق أخرى للعلم الحضوري، وقد ثبت للعلم الحضوري حتى الآن ثلاثة أقسام على الأقل، أحدها هو علم النفس بذاتها، والقسم الثاني هو علم العلة والفاعل بفعله وانفعالاته، فنحن نُدرِك بالعلم الحضوري الحالات والانفعالات النفسية كالمحبّة والكره والجوع والعطش، ونُدرِك حقيقتها، فمثلًا عندما نعطش نُدرِك حقيقة العطش بالعلم الحضوري، وليس بواسطة معرفة مفهوم العطش، كذلك نُدرِك بالعلم الحضوري فعل النفس الذي هو عبارة عن الإرادة والتصميم والعلم بالصورة الذهنية الموجودة في الذهن، فإن كل ذلك نعلمه بالعلم الحضوري لا بالمفهوم والصورة الذهنية.

وقد اعتبروا حالات النفس وانفعالاتها وأفعالها بمثابة تجارب داخلية للنفس، ولكي يتمّ التعامل معها ضمن مظاهر العلم الحصولي أطلقوا عليها في المنطق اسم «الوجدانيات».

وأما القسم الثالث من العلم الحضوري، فهو علم المعلول بعلّته، فبعد أن ثبت أن المعلول ليس له وجود مستقل عن علته، ووجوده قائم بوجود علته، يمكن أن نستنبط أن العلّة حاضرة عند معلولها، والمعلول حاضر عند علته.

ولتوضيح ذلك نقول: إن الصورة الذهنية الحاصلة في أذهاننا لو كان لها شعور لأدركت أن وجودها قائم بالذهن.

وعند بيان هذا النوع من العلم الحضوري يصبح من السهل فهم الكثير من معارف الإسلام ومعارف أهل البيت عليهم السلام التي كانت غالبًا ما تفتقد للتفسير الصحيح، وسنُدرِك أن كثيرًا من الموجودات - وفي مقدّمتها الملائكة - لها علم حضوري بالله تعالى. والإنسان أيضًا له علم فطري حضوري بالله تعالى بواسطة العهد والميثاق الذي عقده مع الله في عالم الذّر، وحتى لو تحوّل هذا العلم الحضوري إلى النوع اللاواعي الخفي - نتيجةً لانغماس الإنسان في حياته المادّية وضعف ارتباطه بربه - بيد أنه بمجرّد أن يتعرّض إلى البلاء أو المصاعب وينقطع أمله بكل شيء مادّي، يظهر هذا العلم الحضوري بالله عنده فجأة، ويُدرِك الإنسان عندئذٍ وهو في تلك الحالة ويشهد مدى ارتباطه وتعلّقه بالله جلّ وعلا.

ونظرًا إلى المراتب والمقامات التي تصوّرها العرفاء لله تعالى، فقد اعتبروا أن مقام الذات ومقام غيب الغيوب أعلى المقامات وأسماها، لكنّهم عجزوا عن وضع أي اسم أو رسم له، ولم يتمكّنوا من وصفه أو الإشارة إليه حتى بإشارة عقلية، وكانوا يعتقدون أن الله هو الوحيد القادر على معرفة مقام ذاته، فحتى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكنه العلم بمقام الذات؛ لكونه غيبًا محضًا ومقدّمًا على مقام الصفات وظهور الأسماء والصفات الإلهية.

وعليه فلو قيل «لا يمكن معرفة الذات الإلهية بالعلم الحصولي والحضوري»، فالمقصود بالذات هنا هو مقام الذات عند العرفاء وهو يختلف عن مقام الذات عند الفلاسفة.

حيث يرى بعض الفلاسفة - كالمرحوم صدر المتألهين والمرحوم العلّامة الطباطبائي - أن علمنا الحضوري يتعلّق بالذات الإلهية، وهم يقصدون بهذه الذات الموجود البسيط الذي يمتنع عليه التكثّر والتعدّد، وهذه الذات هي عين الصفات.

وبعبارة أخرى، إنّ الذات من وجهة نظر الفلاسفة هي نفس الوجود الخارجي لله تعالى.

أما من وجهة نظر العرفاء، فمقام الذات هو أحد المراتب والمقامات التي يصوّرها العرفاء لله تعالى، وهم يعتقدون أن الله هو الوحيد القادر على العلم بهذه المرتبة من ذاته.

وبالطبع، فبعض الأفراد - وبحسب مقاماتهم ومراتب معرفتهم - يمكن أن يكون لهم علم حضوري بالمراتب والمقامات الأخرى لله تعالى، ومنها مقام الأسماء والصفات، لكن هذا العلم الحضوري يكون بالوجه؛ لأن العلم الحضوري بكُنه صفات الله محال أيضًا.

نعم إنه وفق رؤية الفلاسفة لا يمكن تصوّر أي مرتبة أو كثرة لله تعالى، وما المراتب التي يتصوّرها العرفاء إلا مفاهيم ذهنيّة فحسب.

فلو قيل في مورد ما «يستحيل معرفة ذات الله»، وقيل في مورد آخر بإمكان معرفة ذات الله، فينبغي علينا التمييز بين تعاريف الذات واصطلاحاتها من وجهة نظر الفلاسفة والعرفاء، حيث ينطبق القول الأوّل على الذات باصطلاح العرفاء الذي يعني مرتبة ومقام غيب الغيوب، والقول الثاني ينطبق على الذات باصطلاح الفلاسفة.

بعد أن أثبتنا أن الإنسان يمكنه - في الجملة - أن يصل إلى علم حضوري بالله تعالى، لا بّد من الإشارة إلى أن هذا العلم الحضوري له مراتب مختلفة تتفاوت بحسب مراتب الوجود ومراتب الكمال عند الأفراد، ولا يمكن أن تتساوى درجة العلم الحضوري *بالله* عند الأنبياء وأولياء الله مع العلم الحضوري للأفراد العاديين.

ولتوضيح مراتب العلم الحضوري بالله تعالى، ومن باب تشبيه المعقول بالمحسوس نذكر هنا مثالًا حسّيًا لهذا الغرض.

تعتبر الحواس الخمسة أكثر أدوات المعرفة الحصولية شياعًا، والبعض يعتقد أن المعرفة الحسّية هي الأقرب للواقع. وأحد أنواع هذه المعرفة يمكن أن يتحقّق بواسطة البصر؛ لكن درجة هذه المعرفة والإدراك الحسّي المتحقّق بواسطة العين لا تتساوى عند الجميع، فمثلًا عندما ينظر عدد من الأفراد إلى جسم واحد، فلا شك أنه ستختلف درجة معرفتهم بهذا الجسم باختلاف سلامة عيونهم، فمن كانت عينه سالمةً تكون درجة معرفته المتحقّقة بواسطة النظر أكبر من الشخص الذي يعاني ضعفًا في بصره، كذلك معرفة الشخص الذي ينظر إلى الجسم عن قرب تكون أكبر من معرفة الشخص الذي ينظر إليه من مسافة أبعد. فعند سافرنا بالطائرة فإننا نستطيع لحظة إقلاعها أن نشاهد السيّارات في الشارع بوضوح، ثم يصغر حجم هذه السيارات كلّما ارتفعت الطائرة وابتعدت أكثر عن الأرض، حتى تختفي تمامًا ونفقد إمكانية رؤيتها. وهذا يعني أن معرفة الأفراد وإدراكهم الحسّي المتحقّق بواسطة البصر لا يكون متساويًا؛ بل يختلف من شخص إلى آخر تبعًا لسلامة العين واختلاف المسافة بينهم وبين الجسم، فكذلك الحال بالنسبة إلى العلم الحضوري

بالله تعالى، فإن له مراتب متعدّدة، تتفاوت عند الأفراد باختلاف مراتب معرفتهم ووجودهم.

وكما ذكرنا سابقًا، فإنا نستنبط من الروايات وآيات القرآن الكريم أن الحيوانات والجمادات هي أيضًا لها علم حضوري بالله تعالى، ولهذا قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1]؛ غير أن هذا العلم الحضوري - وبطبيعة الحال - أقل بكثير من العلم الحضوري الذي عند الإنسان وخاصّة أولياء الله. كذلك علمنا الحضوري بالله تعالى هو أقل بكثير من علم أمير المؤمنين عليه السلام، بل لا يمكن المقارنة بينهما، ولهذا يقول عليه السلام: «**لَو كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقينًا**»[2]؛ ولو قلنا إن المسافة بيننا وبين مقام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام تصل إلى آلاف السنوات الضوئية فليس في ذلك أدنى مبالغة.

والآن، نصل إلى الإجابة عن السؤال الثاني وهو: هل علم الإنسان الحضوري يتعلّق بكُنه ذات الله وصفاته؟

الجواب هو: لقد أثبتنا حتى الآن بواسطة الآيات والروايات أن الإنسان يمكن أن يصل إلى علم حضوري بالله تعالى؛ لكن درجة هذا العلم الحضوري تختلف شدّةً وضعفًا باختلاف مراتب الأفراد ومقاماتهم المعرفية والوجودية. ورغم ذلك، لا يمكن لأي إنسان - حتى أشرف المخلوقات أي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - أن يعلم بكُنه ذات الله وصفاته؛ لأن ذلك يستلزم إحاطته بجميع جهات الله الوجودية، وهذا محال؛ لأن

---

(١) سورة **النور**، الآية ٤١.

(٢) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٠، الباب ٩٣، الصفحة ١٥٣، الحديث ٥٤.

المحدود لا يمكن أبدًا أن يحيط بغير المحدود واللامتناهي؛ لذا فالله سبحانه هو الوحيد الذي له علم حضوري بكُنه ذاته وصفاته.

وبعبارة أخرى: إنّ العلم بكُنه الله هو علم إحاطي يحتاج في العالِم إلى الإحاطة بجميع جوانب المعلوم، ولا يوجد موجود يمكنه الإحاطة بالله؛ لذا لا يمكن أن يتحقّق عند أي موجود علم إحاطي به تعالى. وهذا العلم الإحاطي اللامتناهي يختص بالله تعالى فحسب، فهو الوحيد المُحيط والعالِم بجميع جوانبه الوجودية.

وعلى هذا فعندما نقول إن الإنسان يمكنه الوصول إلى علم حضوري بالله تعالى، وهذا العِلم الحضوري يزداد تكاملًا وشـدّةً كلّما ازدادت قابليات الإنسان الوجودية ودرجة تكامله وقربه من الله تعالى، لا ينبغي أن يتصوّر أحد أن مرتبة علم الإنسان الحضوري بالله يمكن أن تصل إلى مرتبة العلم الحضوري لله بذاته؛ بل الفارق بين هذين العلمين كبير للغاية كالفارق بين المتناهي واللامتناهي. ومعرفتنا بالله تعالى لا يمكن أبدًا أن تصل إلى مستوى معرفة أولياء الله، وحتى لو قضينا ألف سنة من عمرنا في ترقّي مراتب التعالي والكمال لن تصل معرفتنا إلى مستوى معرفة أمير المؤمنين عليه السلام إطلاقًا، فكيف إذا ما قارنّا مستوى علمنا الحضوري بالله بالعلم الحضوري والإحاطي اللامتناهي لله بذاته.

ونستنتج مما تقدّم، أن معرفتنا بكُنه الله محال مطلقًا، سواء بالمعرفة الحصولية أو بالمعرفة الحضورية، فمعرفتنا بالله تكون بالوجه وبما يتناسب مع قابلياتنا الوجودية. وعلى كل حال، فإن علمنا بذات الله وصفاته إنما هو علم محدود وناقص.

المقال الثاني والخمسون
مظاهر معرفة الله ومحبّته

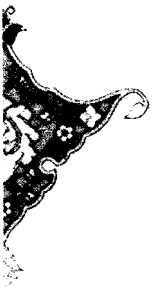

«إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ تَرَسَّخَتْ [تَوَشَّجَتْ] أَشْجَارُ الشَّوْقِ إِلَيْكَ فِي حَدَائِقِ صُدُورِهِمْ، وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ مَحَبَّتِكَ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ إِلَى أَوْكَارِ الْأَفْكَارِ يَأْوُونَ، وَفِي رِيَاضِ الْقُرْبِ وَالْمُكَاشَفَةِ يَرْتَعُونَ، وَمِنْ حِيَاضِ الْمَحَبَّةِ بِكَأْسِ الْمُلاطَفَةِ يَكْرَعُونَ، وَشَرَائِعَ الْمُصَافَاةِ يَرِدُونَ».

آثار محبّة الله

كانت النقطة الأساسية التي بحثناها حتى الآن في هذه المناجاة هي العلاقة بين معرفة الله وبين محبّته وآثار هذه المحبّة ولوازمها. ومن لوازم المحبّة وآثارها التي أشار إليها الإمام السجّاد عليه السلام شوق لقاء المحبوب، وتأثير هذا الشوق على الإنسان حتى يمتلئ قلبه بعشق المحبوب ولا يبقى فيه مكان لحبّ شخص آخر.

كذلك اللوعة والحرقة الناشئة عن هذا الحبّ تجعل الإنسان يتلوّى ويتقلّب كحال الطائر الذي احترق جناحه وأخذ يرفرف باحثًا عن وسيلة يطفئ بها النار، هكذا هو حال العاشق الولهان الساعي لوصال المحبوب كي يُطفئ نار الشوق المستعرة في قلبه.

إن استعمال هذه العبارات الأدبية والاصطلاحات الشعرية وأمثالها في هذه المناجاة وفي الأدعية والمناجيات الأخرى يدلّل على أن استعمالها عند مناجاة الله وفي حالات خاصّة أمر مطلوب ومستحسن؛ إذ لهذه العبارات معانيها الخاصّة حسب الدعاء والمناجاة.

قد يستعمل العرفاء والشعراء في كلماتهم العرفانية وأشعارهم الغزلية بعض المصطلحات الأدبية والغزلية التي لا يستسيغها الأفراد العاديّون وعامّة الناس، حتى أنهم يتساءلون أحيانًا فيما بينهم عن سبب لجوء مثل هؤلاء الأشخاص - الذين هم بهذه المكانة العلمية والمعنوية المرموقة - إلى استعمال مثل هذه العبارات؟

فنحن نقرأ كثيرًا في شعر الغزل لحافظ الشيرازي وغيره من الشعراء وبعض أبيات الغزل للإمام الخميني قدس سره استعمالهم لاصطلاحات مثل الخمر[١]، السُكر[٢]، الخال[٣]، وجه المحبوب؛ رغم أن الخمر يُستعمل في ثقافتنا للتعبير عن النجاسة والشيء القبيح.

---

(١) يُطلق الخمر في العبارات العرفانية للتعبير عن شدّة العشق، وكذلك للتعبير عن المذاق الذي يشعر به السالك أحيانًا فيجعله ينتشي من شدّة السعادة. انظر: سيد جعفر سجادي، **فرهنك لغات واصطلاحات وتعبيرات عرفاني**، الصفحة ٧٥١.

(٢) يُطلق للتعبير عن حالة الحيرة التي يشعر بها السالك عند مشاهدة جمال المحبوب. انظر: المصدر نفسه، الصفحة ٧٢٢.

(٣) يُطلق عند السالكين وأهل الذوق للتعبير عن نقطة الوحدة الحقيقية. يقول اللاهيجي: «الوحدة هي: بداية الكثرة ونهايتها، ويُطلق الخال للتعبير عنها». المصدر نفسه، الصفحتان ٣٣٦ - ٣٣٧.

والسؤال الذي يقفز هنا، هو: لماذا استعملوا هذه الاصطلاحات، ولماذا لم يشعروا بأي ضير في استعمالها؛ بل نراهم يشعرون بحالة من الرضا والسرور والفرح والهيام؟

من الطبيعي أن لهذه الكلمات معانٍ عرفانية خاصّة؛ لكنّها لا تُستعمل في ثقافتنا ولا في اللغة الأدبية الشائعة بين عامّة الناس.

إن التعرّف على مثل هذه الاصطلاحات والعبارات في مختلف أنواع المناجاة وفي القرآن الكريم، يبيّن أنها ليست غير قبيحة وغير سيّئة فحسب؛ بل هي بمعانيها الخاصّة مطلوبة ومُستحسنة في حالات وظروف خاصّة، ونحن إذا ما دقّقنا في آيات القرآن الكريم نجد بعض الآيات قد استعملت عبارات فيها اصطلاحات مثل «أنهار من خمر» لوصف نِعم الجنّة، كالآية الشريفة ﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾[١]؛ وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[٢]؛ كذلك جاء في آية أخرى في وصفه للمؤمنين السابقين في الإيمان والجهاد وطاعة الله، أنهم يُسقَونَ في الجنّة شرابًا طاهرًا لا يصيبهم بالسُكر والصداع والألم وغياب الوعي والعقل، حيث يقول تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾[٣].

فالخمر يعتبر نجسًا ومحرّمًا لكونه يذهب بعقل الإنسان، ولِما يسبّبه من أضرار على جسم الإنسان وسلامة روحه، وما يتركه من آثار سلبية على أخلاقه وسلوكه؛ أما الخمر الذي يشربه أهل الجنّة فليس فيه أي ضرر أو أثر سلبي عليهم، وإنما أطلقوا عليه اسم الخمر بسبب حالة الفرح والسرور والنشوة التي يتركها على الشاربين. فاستعمال القرآن الكريم

---

(١) سورة **محمد**، الآية ١٥.

(٢) سورة **الإنسان**، الآية ٢١.

(٣) سورة **الواقعة**، الآية ١٩.

لكلمات مثل «الخمر» و«الشراب» لوصف نِعم الجنّة، وكذلك استعمالها من قبل العرفاء والشعراء للتعبير عن حالة الهيام في المحبوب، إنما جاء بسبب الخاصّية الثانية التي ذكرناها فيهما، وهي حالة الفرح والسرور والنشوة التي يتركها على الشارب، ولم يرد أبدًا استعمالهما للتعبير عن الخاصّية الأولى فيهما وهي ذهاب العقل والأضرار المعنوية والجسدية.

لذائذ أولياء الله تفوق كل اللذائذ المادّية والحيوانية

لم تستعمل الكلمات والعبارات المعنوية والعرفانية التي وَرَدَ ذكرها في هذه المناجاة كثيرًا في المناجيات والأدعية الأخرى، فلا ريب أنّه يصعب علينا للغاية فهمها والوقوف على دقّة معانيها. والشيء الوحيد الذي يمكن أن نفهمه من هذه العبارات هو وجود لذائذ معنوية أخرى غير اللذائذ المادّية والحيوانية التي نعرفها كالأكل والشرب والنوم، وهذه اللذائذ المعنوية يختص بها أولياء الله والخواص من عباده، وهي أحلى من الشهد وتفوق الوصف إلى حدّ أنهم يستغنون بها عن النظر إلى أي لذّة مادّية أو حيوانية أخرى.

وهنا نلفت بصراحة إلى مسألة: إن كثيرًا من المؤمنين ومحبّي أهل البيت عليهم السلام يُبدون مشاعر جيّاشةً وعواطف جمّةً تجاه أهل البيت كأمير المؤمنين والإمام الحسين أو أبي الفضل العباس عليهم السلام، ويُظهرون لهم الولاء والحُبّ الشديد ويذرفون الدموع حزنًا وحُبًّا لهم، أكثر مما يُبدونه من حُبّ وعاطفة تجاه الله تعالى.

ولكن الحال أن الروايات والمناجيات تتحدّث عن أشخاص يعشقون الله ويذوبون بحُبّه، ويجهشون بالبكاء سواء حزنًا على فراق المعبود أو شوقًا إلى وصاله أو من شدّة اللذّة التي يشعرون بها.

ورغم أن للعبادة والعبودية تأثيرًا كبيرًا ومهمًّا على سلوك الإنسان وتعاليه، سواء كانت خوفًا من الله ومن عذاب نار جهنّم، أو أملًا بثواب الله والفوز بالجنّة، وهي بالطبع تمثّل أدنى وأقل مراتب العبادة؛ إلا أن هذه المرتبة من العبادة وهذه الغاية منها بعيدة كل البعد عن تفكير أولياء الله تعالى؛ لأن غايتهم الأساسيّة من عبادة الله هي خوف الحرمان من لقاء المعبود والأمل بالوصال، فهم لا يأبهون بِنعم الجنّة والنِعم الأخرى العادية كالأكل من فاكهة الجنّة أو من لحم طيرها؛ بل يسعون إلى الفوز بنعمٍ ألذّ وأشهى وأكثر تعاليًا من تلك النِعم. ورغم أننا لم نصل إلى تلك المقامات والمراتب المعنوية، ولم نتذوّق حلاوة لذّتها، لكن لا بأس في التعرّف والاطلاع عليها فهو لا يخلو من فائدة على سلوكنا، إذ قد تؤدّي - تلك المعرفة - إلى تنمية بعض القابليات الكامنة في نفوسنا، والتي لم تستطع عوامل الطبيعة والظروف المحيطة بنا تنميتَها وإبرازها إلى العلن؛ حيث يمكن للنصيحة والعبر المستقاة من حياة أولياء الله ومقاماتهم ومراتب إيمانهم أن تحدث تحوّلًا كبيرًا في شخصية الإنسان فتكون كالمرهم على الجرح، وتستمدّ روحه الطاقة والعزيمة منها، لتسير في طريق الرُقي والتعالي حتى تسبق الآخرين في الوصول إلى مقام القرب من الله سبحانه.

ونحن عندما نتطرّق إلى توضيح هذه المعارف المتعالية وبيانها فهذا إنّما يكون من باب شُكر نِعم الله وتعظيم معارف أهل البيت عليهم السلام، ورغم أننا نعجز عن إدراك وفهم معانيها؛ لكن التذكير بها ومطالعتها قد يترك أثرًا في نفوس بعض الأفراد، فيوفّقهم الله لفهمها واستقاء العبر منها

حتى يصلوا إلى مرادهم ومقصودهم، كما قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه**»[١].

أشار الإمام السجّاد عليه السلام في بداية المناجاة إلى أن الإنسان يعجز عن معرفة الله تبارك وتعالى، وقلنا في توضيح ذلك إنه يستحيل على الإنسان معرفة كُنه ذات الله وصفاته، ومهما سعى فلا يمكن له بلوغ هذه المرتبة من المعرفة؛ لأن إدراك البشر محدود، ومعرفة كُنه ذات الله وصفاته تحتاج إلى الإحاطة بجميع الذات الإلهية، مع أنه يستحيل على المحدود والمتناهي الإحاطة بغير المحدود واللامتناهي، وبالتالي فالعلم بالذات على هذا النحو إنما هو من مختصات الذات فحسب، وحتى أشرف مخلوقات الله، أي الرسول الأكرم ﷺ، لن يستطيع بلوغ مقام معرفة كُنه ذات الله.

ولمّا كان بلوغ هذه المعرفة يستحيل على الإنسان؛ لم يسأل الإمام عليه السلام اللهَ بلوغها والوصول إليها؛ بل أقرّ أن الله وحده له علم إحاطي بذاته وصفاته.

لكنّ إظهار العجز عن معرفة كُنه ذات الله لا يعني أن يتوقّف المرء عن السعي إلى بلوغ مراتب معرفة الله، وإذا كان من المستحيل على الإنسان بلوغ مرتبة معرفة غير المحدود واللامتناهي، فلا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في عدم السعي إلى بلوغ مراتب معرفة الله الأخرى؛ بل على العكس من ذلك، يجب علينا السعي لتنمية قدراتنا حتى نتمكّن من ترقّي مراتب معرفة الله، حتى نبلغ أعلى مرتبة يمكن أن يصل إليها الإنسان.

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٢، الباب ٢١، الصفحة ١٦٤، الحديث ١٧.

فلو توقّف الإنسان عن السعي في تنمية معرفته بالله بما يتناسب مع قابليات البشر، فما هو الفارق بينه وبين الحيوان، أو بين المؤمن والكافر؟

ولذا فيجب علينا السعي في العثور على وسيلة لبلوغ معرفة الله عزّ وجلّ، حتى نتمكّن قدر الإمكان من تنمية معرفتنا الحصولية والحضورية بالله تعالى.

والنقطة المهمّة الأخرى هي أنّ جميع الناس يمكنهم الإفادة من النِعم المادّية والدنيوية كاللذائذ الجنسية والأكل والشرب والإمكانات الرفاهية الأخرى، فيشترك في ذلك المؤمن والكافر؛ بل قد يستفيد الكفار منها أكثر من المؤمنين، وهذا يعني أن هذه النِعم لا تُعدُّ نوعًا من الكمال بالنسبة للإنسان، وبالتالي لا يليق بالمؤمن أن يجعل همّه وحاجاته تقتصر على هذا النوع من النِعم. فلو اقتصرت مطالبنا وحاجاتنا على الحصول على زوجة مؤمنة، وسيّارة حديثة، ومنصب ومقام ممتاز، فما هو الفارق حينئذٍ بيننا وبين الكفّار؟ فهل نحن ننعُم الآن بنِعمة الإسلام، والإيمان، ومعرفة أهل البيت عليهم السلام والتمسّك بولايتهم، حتى نشغل أنفسنا باللهاث وراء هذه الأمور التافهة والفانية، ونغفل عن الاحتياجات المتعالية؟ ولهذا طلب الإمام عليه السلام - في المقطع الثاني من المناجاة - من الله الاستجابة لبعض الاحتياجات والمطالب المتعالية، وأرشدنا أيضًا إلى ضرورة أن تكون لنا مثل هذه الاحتياجات. فقد سأل الإمام عليه السلام ربّه أن يوفّقه لأن يكون في زمرة من توشّجت أشجار الشوق إليه في قلوبهم حتى ملأ حبّه جميع شراشر قلوبهم. وقد ذكر الإمام عليه السلام هذه الصفة والصفات الأخرى التي تميّز الخواص من عباد الله وتبيّن شدّة حبّهم لله تعالى، وهي تدّل على العلاقة الوثيقة بين المعرفة والمحبّة والتأثير المتبادل بينهما.

والآن يُطرح السؤال التالي: هل المحبّة هي الدافع والموجب لإيجاد المعرفة، أم أنّ المعرفة هي الدافع والموجب لإيجاد المحبّة؟

ونفس هذا التساؤل يُطرح حول العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح: فهل أنّ الإيمان بالله هو الدافع والموجب للقيام بالعمل الصالح، أم العكس هو الصحيح؟

والجواب هو: إنّ التأثير متبادل بين الاثنين، فالإيمان له تأثير على الإنسان فيدفعه للقيام بالعمل الصالح، وكذلك القيام بالعمل الصالح يحفّز الإنسان لتقوية إيمانه بالله تعالى.

كذلك الحال بالنسبة للعلاقة بين المعرفة والمحبة، فإن أدنى مرتبة من المعرفة سبب لإيجاد أدنى مراتب المحبّة لله، ثم كلّما ازدادتْ شدّة هذه المحبّة ازدادتْ معرفة الإنسان بربّه، وكذلك كلّما ازدادتْ معرفة الإنسان بالله وارتقى أعلى مراتبها ازدادتْ شدّة محبّته لله وارتقى أعلى مراتبها أيضًا. فكلاهما يؤدّي إلى تقوية الآخر.

ومن الطبيعي أن الإنسان لا يمكن أن يُحبّ شخصًا أو شيئًا ما لم يعرفه جيّدًا، ويجد فيه حُسنًا وجمالًا خاصًا؛ لأن المحبّة أمر إدراكي أساسه المعرفة، ولن يُحبّ الإنسان ربّه ما لم يعرفه جيّدًا ويُدرِك أنه يستحقّ هذه المحبّة. وكلّما ازدادتْ معرفة الإنسان وكانت حيّةً وفعّالةً ازداد تأثيرها إيجابيًّا على عمل الإنسان، والعكس فيما لو كانت معرفة الإنسان سطحيةً وضعيفةً فإنها لن تؤثّر تأثيرًا ملحوظًا على عملنا وسلوكنا. فنحن نُدرِك جميعًا أنّنا نقفُ في حضرة الله، وهو ينظر إلى أعمالنا وسلوكنا، لكن هذه المعرفة ليست حيّةً ولا فعّالةً، لذلك فهي لا تؤثّر شيئًا في

حياتنا وعاداتنا. والشرط الأساس لبقاء هذه المعرفة حيّةً فعّالةً هو استمرار التدبّر فيها وتقويتها وعدم الغفلة عنها.

فقد يسمع الإنسان عن شخصٍ صالح عاش في هذه الدنيا قبل مئة أو ألف سنة، خدم الناس وضحّى من أجلهم، فتراه يُحبّ هذا الشخص حبًّا جمًّا رغم أنه لم يره من قبل ولم يصبه أي خير أو معروف منه؛ لكنّه أحبّ الكمال الذي رآه في شخصيّته. فالإنسان عندما يرى الكمال متحقّقا في شخصٍ ما، فإنه سيُحبّه تلقائيًا بمرتبة من مراتب المحبّة، التي يمكن تقويتها وتنميتها تدريجيًا، كما هو الحال بالنسبة لعلاقات المودّة والمحبّة التي تنشأ بين الأصدقاء والأقرباء والجيران، كلّما اهتمّ بها الإنسان أكثر ازدادتْ شدّتها بينهم، وكلّما ضعف اهتمامه بها وازدادتْ الفاصلة بينهم، ضعفتْ هذه المحبّة تدريجيًا حتّى تزول تمامًا.

السُبل الفعالة لتقوية محبّة الإنسان لله وأوليائه

نظرًا إلى التلازم الموجود بين المعرفة والمحبّة، نجد أنّ الأدعية والزيارات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وخاصّة زيارة الإمام الحسين عليه السلام إضافة إلى اهتمامها بتقوية عقائدنا الدينية وتنمية معرفتنا بأهل البيت عليهم السلام، قد اهتمّت أيضًا بتقوية أمر أساسي آخر ألا وهو محبّتنا لهم عليهم السلام.

إن البعدين الأساسيين في روح الإنسان هما: المعرفة، والعواطف والأحاسيس، وهما اللذان تؤدّي تقويتهما إلى تقوية صفة الإنسانية فيه. والعكس أيضًا صحيح، بمعنى أنه كلّما ضعفتْ معرفة الإنسان وخَبَتْ عواطفه ومنها حُبّه للقيم النبيلة والرموز المقدّسة، ضعفتْ إنسانيّته أكثر فأكثر. فالإنسان البعيد عن المعرفة، والأناني الذي لا يفكّر إلا في

نفسه ومصلحته، ولا يحمل أي عاطفة ومحبّة للآخرين، يكون شكله شكل الإنسان، لكن قلبه قلب حيوان؛ بل هو أضلّ من الحيوان، كما يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1].

إن الاحتفاء بذكر أهل البيت عليهم السلام وخاصّة ذكر الإمام الحسين عليه السلام، الذي أكّدت عليه الكثير من روايات أهل البيت عليهم السلام، هو تدبير ناشئ عن حكمة الله لتقوية كِلا البُعدين في نفوسنا، بُعد المعرفة وبُعد العاطفة، وهو ما يؤدّي إلى تنمية صفة الإنسانية فينا.

وقد علّمتنا التجارب أنّنا كلّما أظهرنا لأصدقائنا والمقرّبين مِنّا مدى محبّتنا لهم، أدّى ذلك إلى تقوية هذه المحبّة واستمرار العلاقة بيننا؛ أما إذا لم نُظهر هذه المحبّة لهم، فإنها ستضعف تدريجيًّا حتى تزول تمامًا. وعندما نلتقي بصديقنا وبالشخص الذي نُكن له المحبّة والاحترام، فإذا أظهرنا له كل الاحترام والمحبّة قولًا وعملًا، فإن ذلك سيؤدّي لا محالة إلى تقوية محبّته واحترامه لنا أيضًا؛ لكن لو لم نأبه لوجوده ولم نُلقِ السلام والتحية عليه، فإن ذلك سيؤدّي إلى تقليل هذه المحبّة وإضعافها.

والنقطة الأخرى الجديرة بالاهتمام، هي أن دوافع الأفراد في إظهار المحبّة تختلف بين شخص وآخر، فقد يذهب الإنسان إلى صديقه بهدف أن يستقرض منه مبلغًا من المال أو لطلب المساعدة، وفي المقابل فإنه قد يشتاق إلى رؤيته فيذهب إليه لإطفاء حرارة هذا الشوق، وهو لا يروم منه شيئًا آخر، ورغم أن هذا النوع من إظهار المحبّة أصدق من إظهار المحبّة لغاية مادّية؛ لكنها تؤدّي - على كل حال - إلى رفع حاجةٍ في روح الإنسان. وبتعبير آخر: تكون دافعًا لتحقيق منفعة معيّنة.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

إنّ أسمى مراتب المحبّة هي التي تتحقّق دون أي دافع نفساني، وعندما يُظهر الإنسان محبّته لمحبوبه، فإنه لا يهدف من ذلك تحقيق أيّ منفعة مادّية؛ بل ينسى نفسه ويرمي بها عند قدمَيْ المحبوب خاضعًا متذلّلًا يطلب رضاه ووصاله، ويرى نفسه فانيًا في حبّه وعشقه.

فعندما يصل الإنسان إلى مرتبة من مراتب المعرفة بالله تعالى وبأهل البيت عليهم السلام وبمقدّساته، ويطبّق لوازم هذه المعرفة، فإنه يُحبّهم ويتعلّق بهم، مما يدفعه نحو الاهتمام أكثر بمن يُحبّهم، ويلتزم بآثار هذه المحبّة، ونتيجةً لذلك تزداد هذه المعرفة، خاصّةً معرفته الحضورية بالله تعالى، وتصبح أكثر نقاءً وصفاءً وتضحي عن وعي ودراية، وكلّما ازدادتْ هذه المعرفة والمحبّة، ازدادتْ علاقته القلبية بالله خالق هذا الوجود وأصبحتْ أكثر قوّة.

وكما قُلنا سابقًا، فإضافةً إلى معرفة الإنسان الحصولية بالله تعالى التي تتحقّق بواسطة المفاهيم الذهنيّة، تنشأ لدية أيضًا معرفة حضورية أو معرفة قلبية به تعالى، وفي ظل هذه المعرفة الحضورية يتعلّق قلب الإنسان بمن يرزقه، ومن ينصره ويقف إلى جانبه في الشدّة والمصاعب والأزمات التي يمرّ بها، وينقذه من الأخطار التي يتعرّض إليها.

فعندما يرى الإنسان جميع الأبـواب موصدةً في وجهه، وينقطع رجاؤه وأمله من كل شيء، فإنه يشعر حينها أنّ شخصًا ما يقف إلى جانبه ويحاول مساعدته وإنقاذه مما هو فيه. فإذا ما اهتم الإنسان أكثر بهذه المعرفة التي لم تنشأ لديه بواسطة الصور والمفاهيم الذهنيّة، وسعى إلى تقويتها وتنميتها، وزاد من معرفته القلبية بربّه خالق الوجود وواسطة الفيض، فإن هذه المعرفة تصبح أعمق وأشدّ، وأكثر نقاءً وصفاءً، بل تصبح خاليةً من كل شائبة مادّية ودنيوية.

والمعرفة الحصولية والذهنيّة بالله تعالى يمكن أن تكون وسيلةً مهمّةً لتقوية تلك المعرفة الحضورية والقلبية؛ وذلك بسبب العلاقة بين العلم الحصولي والحضوري، وهي مسألة ترتبط بعلم النفس، والمفروض على علماء النفس المسلمين، وخاصّة أهل العرفان، تخصيص بعض وقتهم لبحث وتحليل هذه المسألة، حتّى يتمكّنوا من تعيين درجة تأثير العلم الحصولي للإنسان على علمه الحضوري.

إن الإنسان يُحبّ بالفطرة كل من يساعده ويقدّم له خدمةً، فإذا ما قدّم لنا شخص مساعدةً ماليةً أو أقرضنا مبلغًا مِن المال في وقت حاجتنا وفاقتنا، فإنّنا سنُحبه ونشعر بالامتنان تجاهه.

فلو اعتقدنا أن كل ما نملك في هذا الدنيا هو من عند الله، وأن كل النِعم التي ننعُم بها الآن هي مِن فضل الله ورزقه، ولو اعتقدنا أن الله قد أنعَمَ علينا بأمٍ حنونة تعطف علينا وتبذل كل ما لديها في سبيل تعليمنا وتربيتنا حتى نبلغ أشدّنا، وأنه هو الذي أنعَم علينا بهذا النظام الإسلامي لنعيش تحت ظله سالمين آمنين، فإننا حينئذٍ سنُحبّ الله بكلّ وجودنا وجوارحنا وسنسجد له شكرًا وحمدًا على نِعمه.

فهل يُعقل أن يُحبّ الإنسان شخصًا قدّم له مساعدة محدودة، كأن يكون أقرضه مبلغًا بسيطًا من المال مثلًا، ولا يُحبّ الله الذي أغدق عليه بكل هذه النِعم، وجعل هذا الكون وكل ما عليه من نِعم وطيّبات تحت اختياره؟

إنّ المشكلة تكمنُ في أنّ محبّة الله لم تستقرّ جيّدًا في قلوب البعض ولم تترسّخ فيها بشكل تام، فهم يتذكّرون الله ويشعرون بمحبّته في قلوبهم عندما يفكّرون بِنعمهِ وكرمه؛ لكن ما إن يظهر حُبٌّ آخر غير حُبّ الله حتّى ينسوا ذكر الله وينشغلوا بحُبّ الآخرين. ففي موارد

التعارض والتزاحم بين رغباتهم النفسية والدنيوية وبين الرغبات الإلهية والمعنوية، وفي موارد التزاحم بين محبّة غير الله ومحبّة الله، تراهم يرجّحون ويقدّمون الرغبات النفسية ومحبّة غير الله؛ لذلك نرى الإمام السجّاد عليه السلام يسأل الله أن يجعله ممن توشّجت أشجار الشوق إليه في قلوبهم حتّى تترسّخ جذور محبّته فيها، فتقتلع من قلبه كل أنواع الشهوات والرغبات النفسية والعواطف والأحاسيس غير الإلهية. فمحبّة الله لا ينبغي أن تصبح كالنبتة الضعيفة التي تقتلعها الريح البسيطة من مكانها لتحلّ محلّها محبّة غير الله؛ أو قد ينسى البعض سريعًا محبّة الله عندما يخيل إليه أن بعض الظروف والأحداث التي قدّرها الله له لا تنسجم مع رغباته.

المظاهر الخالصة لمحبّة الله تعالى

جاء في إحدى الروايات: «أنّهُ صلى الله عليه وآله وسلم سَلَّمَ عَلَيْهِ غُلَامٌ دُونَ الْبُلُوغِ وَبَشَّ لَهُ وَتَبَسَّمَ فَرَحًا بِالنَّبيِّ، فَقَالَ لَهُ: **أَتُحِبُّني يَا فَتَى؟** فقال: إِي وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ لَه: **مِثْلَ عَيْنَيْكَ؟** فَقالَ: أَكْثَرَ؟ فقالَ: **مِثْلَ أَبِيكَ؟** فَقَالَ: أَكْثَرَ. فَقالَ: **مِثْلَ أُمِّكَ؟** فقالَ: أَكْثَرَ. فَقالَ: **مِثلَ نَفْسِكَ؟** فَقالَ: أَكثرَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ فَقالَ: **أَمِثْلَ رَبِّكَ؟** فَقالَ: اللهَ اللهَ اللهَ يا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ هَذَا لَكَ ولاَ لأَحد، فَإِنَّمَا أَحْبَبْتُكَ لِحُبِّ اللهِ. فَٱلْتَفَتَ النَّبِيُّ إلى مَنْ كانَ مَعَهُ وَقَالَ: **هَكَذَا كُونُوا، أحِبُّوا اللهِ لإِحسانِهِ إِلَيْكُمْ وَإِنْعَامِهِ عَليكُمْ وَأحِبُّوني لِحُبِّ اللهِ»**[1].

---

(١) الديلمي، **إرشاد القلوب**، الجزء ١، الصفحة ١٦١.

عندما رفع اللهُ نبيه إبراهيم ومَنَّ عليه بمقام الخلّة وجعله خليله فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[١]، قالت الملائكة بعضهم لبعض: اتخذ ربّنا من نطفةٍ خليلًا، وقد أعطاه مُلكًا عظيمًا جزيلًا. فأوحى الله تعالى إلى الملائكة اعمدوا على أزهدكم ورئيسكم، فوقع الاتفاق على جبرئيل وميكائيل فنزلا إلى إبراهيم في يوم جمع غنمه، وكان لإبراهيم عليه السلام أربعة آلاف راع وأربعة آلاف كلب في عُنق كل كلب طوقٌ وزنُ مَنّ مِن ذهبٍ أحمر وأربعون ألف غنمة حلابة وما شاء الله من الخيل والجمال، فوقف الملكان في طرفي الجمع فقال أحدهما بلذاذة صوتٍ: سبّوح قدّوس، فجاوبه الثاني: ربّ الملائكة والروح، فقال: أعيداهما ولكما نصف مالي، ثم قال أعيداهما ولكما مالي وولدي وجسدي، فنادت ملائكة السماوات: هذا هو الكرم هذا هو الكرم، فسمعوا مناديًا من العرش يقول: الخليل موافق لخليله[٢].

فعندما تتوشّج شجرة محبّة الله في أعماق قلب الإنسان وتترسّخ جذورها وتنمو حتى تصبح شجرةً عظيمةً ثابتة، فإن الإنسان يشعر بلذّةٍ تفوق الوصف كلّما سمع اسم الله، ويطلب سماع كلّ ما يليق بالمحبوب، وتزداد علاقته بربّه وتترسّخ محبّته في قلبه. وبالعكس، نرى أولئك الذي خلا قلبهم من محبّة الله وترسّخت في قلوبهم محبّة سواه، تشمئز قلوبهم عند سماع اسم الله تبارك وتعالى، وقد وصف الله حالهم بقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٢٥.

(٢) محسن الفيض الكاساني، **التفسير الصافي**، الجزء ٢، الصفحة ٣٢٥.

(٣) سورة **الزمر**، الآية ٤٥.

فلو كان الإنسان ممن يطلب الوصول إلى مراتب المعرفة المتعالية التي يمكن له بلوغها، لِما لها من تأثير إيجابي كبير على روح الإنسان وسلوكه، فلا بدّ أن يسعى أيضًا للوصول إلى مرتبة عالية من مراتب محبّة الله، وبالطبع لن يصل الإنسان إلى هذه المرتبة من المعرفة والمحبّة ما لم يحالفه توفيق من الله تعالى وعناية منه. ولو أنّا نُدرِك عظمة وأهمّية هذه المراتب العالية من مراتب معرفة الله ومحبّته، لسألنا الله ودعوناه أن يمنّ علينا بمحبّته ومعرفته، بدلًا من أن نشغل أنفسنا باللهاث وراء الرغبات المادّية والنفسية كالأكل والشرب والمنصب وغيرها من الرغبات الدنيويّة التافهة.

المقال الثالث والخمسون
الغايات المقدّسة عند أولياء الله

ضرورة الاستفادة من معارف أهل البيت عليهم السلام

قلنا إن مناجاة العارفين أكّدت كثيرًا على معرفة الله ومحبّته؛ لذلك عمدنا في المباحث السابقة إلى بيان العلاقة المتبادلة بينهما، فقلنا إن كل مرتبة من المعرفة تكون أساسًا لظهور ما يقابلها من مراتب المحبّة، وإن الإنسان لن يصل إلى بعض مراتب المعرفة إلّا بما يناسبها من مراتب المحبّة وشدّتها، فكلّما ازدادتْ محبّة الإنسان بالله تطوّرت معرفته به أيضًا، وكلّما ازدادت معرفة الإنسان بالله اشتدت محبّته له تعالى، حتى يصل إلى أعلى مراتب المحبّة التي تختص بأولياء الله.

إن المقامات المتعالية في محبّة الله التي تضمّنتها هذه المناجاة، تبعث في الإنسان الأمل والنشاط والحيوية للسير في طريق الكمال حتّى يرتقي المراتب المتعالية في محبّة الله التي تختص بأولياء الله، وتبعث في النفس حافزًا قويًا لنيل هذه المقامات والاستفادة من قابليّاته الوجودية لتحقيق هذه الغاية. إن اللهاث وراء زخارف الدنيا وملذّاتها يُقلّل من همّة الإنسان ونشاطه، ويدفعه نحو الانحطاط الأخلاقي والمعنوي، وحتى المؤمن المُحبّ لأهل البيت عليهم السلام يمكن أن يسقط

إلى أدنى درجات الإنسانية؛ بل وقد يصل إلى مرتبة الحيوانات أيضًا، فانشغال الإنسان بأمور الدنيا ومتطلّباته المعيشية يبعده عن الاهتمام بالأمور المعنوية.

ومن المآسي الشديدة التي يمكن أن يمرّ بها الإنسان أن يمتلك مؤهّلات علمية في الدراسات الدينية ومعارف أهل البيت عليهم السلام، لكن لا يتمكن من الاستفادة من هذه المعلومات في ترقّي مراتب المعرفة، ويكتفي بالأكل والنوم وما يرتبط بأمور الدنيا الأخرى. فانظروا من بين أكثر من ستّة مليار إنسان في هذا العالم كم هي نسبة الذين يحملون معارف أهل البيت عليهم السلام وولايتهم، ويمكنهم الانتفاع من كلماتهم وتوصياتهم؟ أليس من المؤسف أن نهمل هذه المعارف المتعالية وننشغل بالأمور المادّية التافهة، ونعيش حياة الحيوان لا نهتم سوى بالأكل والشرب والنوم والشهوة، لنصبح مصداقًا للآية الكريمة ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

تُعدّ مناجيات أهل البيت عليهم السلام وكلماتهم من النِعم الإلهية العظيمة التي منّ الله بها علينا، لتكون وسيلةً لترقّي مراتب الكمال والمعرفة الإلهية المتعالية، ونُـدرِك بواسطتها أن وظيفة الإنسان لا تقتصر على صفاته الحيوانية؛ بل مقام الإنسانية أسمى بكثير، ولو أدرك الإنسان أهمّية هذا المقام وعظمته، لما اهتمّ ولو للحظة واحدة بهذه الرغبات الحيوانية التافهة.

وقد تضمّنت مناجاة العارفين للإمام السجّاد عليه السلام مجموعةً من المطالب الإلهية والقيم المتعالية والاحتياجات الإنسانية الأصيلة، حيث

---

(١) سورة **الحجر**، الآية ٣.

تمكّنا حتى الآن من شرح وبيان بعض مقاطعها التي كانت تدور حول محور محبّة الله وشوق الوصال والأنس بقربه تعالى.

وفي المباحث اللاحقة سنكمل شرح المقاطع الأخرى من المناجاة التي تختص بمعرفة الله سواء المعرفة الحصولية أو الحضورية، حيث يقول الإمام السجّاد عليه السلام:

«قَدْ كُشِفَ الْغِطَاءُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ، وَانْجَلَتْ ظُلْمَةُ الرَّيْبِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ وضَمَائِرِهِمْ، وَانْتَفَتْ مُخَالَجَةُ الشَّكِّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ، وَانْشَرَحَتْ بِتَحْقِيقِ الْمَعْرِفَةِ صُدُورُهُم».

طلبُ كشف الحجاب الذي يمنع الرؤية ويحول دون مشاهدة الحقائق

في هذا المقطع من المناجاة يسأل الإمام السجّاد عليه السلام ربّه أن يكشف عنه الحجاب الذي يحول دون رؤيته الحقائق عيانًا وحقيقة، وقد عبّر عن ذلك باستعمال اصطلاح «كشف الغطاء» الذي يعتبر أحد خصائص يوم القيامة الذي تنكشف فيه جميع الحقائق أمام الإنسان، وتبعًا للقرآن الكريم، وَرَدَ هذا الاصطلاح في الكلمات والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

---

(١) سورة ق، الآية ٢٢.

قد يخيّل إلينا أنا نُدرِك ونفهم جيّدًا حقائق هذا العالم؛ لكن القرآن الكريم يبيّن وجود حجاب وغشاوة أمام أنظار الناس تحول دون رؤيتهم لهذه الحقائق، ولهذا يتعذّر علينا معرفة وإدراك باطن هذه الحقائق وملكوتها. ولتقريب هذا المعنى إلى الذهن، يمكن القول إننا أحيانًا نرى بعض الأفراد على هيئة بسيطة وملابس رثّة، فنظن أنهم أفراد عاديون، وهذه الهيئة تنمّ عن سوء شخصيّتهم؛ لكن بعد أن نتحدّث إليهم ونتعرف على حقيقتهم ونأنس بالتعامل معهم، نُدرِك جيّدًا مدى النقاء والصفاء الذي يحملونه، ونفهم أن هذا المظهر البسيط والملابس الرثّة لا تعكس حقيقة شخصيّتهم وإنما كانت بسبب طبيعتهم العائلية وظروفهم المعيشية الصعبة.

والعكس صحيح أيضًا، فأحيانًا نرى أفرادًا ظاهرهم الصلاح، فنظن صلاحهم وإيمانهم؛ لكن ما أن نتعامل معهم حتى نُـدرِك مدى سوء صفاتهم، ونكتشف أن حسن ظاهرهم لا يعكس أبدًا حقيقة سوء باطنهم.

إن حكمة الله والمصلحة تقتضي أن تبقى حقائق العالم - ومنها باطن الأفراد - خفيةً عن أنظار الناس، حتى لا تنكشف أسرارهم وتتّضح حقائقهم وصفاتهم الحسنة والسيّئة أمام الجميع، وبالتالي تستمرّ الحياة بشكل طبيعي، ويستمرّ تعامل البشر مع بعضهم البعض دون مشاكل أو عوائق، وتتهيّأ الظروف اللازمة للاختبار الإلهي، وفي هذا الشأن يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَوْ تَكاشَفْتُم ما تَدافَنْتُمْ**»[1].

بالطبع، إنّ أولياء الله والذين تمكّنوا من تسنم أعلى مراتب الكمال والتعالي، تُرفع الحجب والغشاوة عن أنظارهم في هذا الدنيا، ويتمكّنون

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٧، الباب ١٥، الصفحة ٣٨٥، الحديث ١٠.

من معرفة باطن الأشياء وملكوتها، وفي مقدّمة هؤلاء الأولياء وأبرزهم أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول: «**لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا**»[١].

إن الظلمة والحجب في هذه الدنيا تمنع الإنسان من الوصول إلى درجة اليقين بحقائق هذا العالم، وبالتالي يبتلي بالشك الذي قد يؤدّي إلى إنكاره لوجود الآخرة، وعدم اكتراثه بأمر الثواب والعقاب الأخروي؛ لكن عندما ينتقل الإنسان إلى عالم الآخرة ترتفع عن عينيه جميع الحجب فيرى حينها حقائق الأشياء التي كانت غائبةً وخفية عنه؛ لهذا يقول المذنبون يوم القيامة كما ينقل عنهم القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[٢]، فيأتيهم الجواب، لقد تمّت الحُجّة عليكم في الدنيا، وأرسلنا لكم الأدلة والبراهين الواضحة التي تهديكم إلى طريق السعادة والخلاص؛ لذا لا عذر لكم اليوم، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣].

وعالم الآخرة هو عالم الكشف والشهود وتجلّي ولاية الله وقدرته وحاكميته المطلقة، وفيه يُدرك الجميع أنه لا قدرة تعلو على قدرة الله، وأن قدرته هي الوحيدة المؤثّرة والنافذة، ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٤].

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٤٦، الباب ٨، الصفحة ١٣٥، الحديث ٢٥.

(٢) سورة **السجدة**، الآية ١٢.

(٣) سورة **الزمر**، الآية ٧١.

(٤) سورة **غافر**، الآية ١٦.

لمّا كانت الحقائق في هذا العالم خفيّةً عن أعين الناس، ويمكن مشاهدتها والاطلاع عليها بإزالة الحجب عنها، ولمّا كان بعض أولياء الله ممن تفتّحت أعينهم البرزخية قادرين على مشاهدة أسرار وحقائق هذا العالم؛ يطلب الإمام السجاد عليه السلام في هذه المناجاة من الله تعالى أن يجعله ممن كُشف الغطاء عن أبصارهم.

النقطة المهمّة الأخرى هي أنّ الشكّ والشبهة قد يَرِدا أحيانًا إلى نفوسنا فيهدّدا إيماننا وعقائدنا، ولحسن الحظ، فإن الشبهات لا تصل جميعها إلى أسماع الناس وإلّا لتأثرت عقائدهم بشدّة بها ولتعرّضوا إلى خطر الانحراف العقائدي والديني. وحتى في الحالات التي نصل فيها إلى درجة عالية من الاطمئنان بعقائدنا وإيماننا، ونتسلّح بأسس علمية قوية وثابتة تحصّننا من الوقوع في كمين الشبهات، يجب علينا الحذر وعدم الاطمئنان تمامًا لقدراتنا حتى لا تتأثّر عقائدنا وتضعف بفعل الشبهات القوية التي تطرح.

ونظرًا إلى الخطر المحدق بعقائد الإنسان وإيمانه بسبب الشكّ والشبهة التي قد تُطرح في هذا المجال، نرى الإمام السجّاد عليه السلام يسأل ربّه أن يجعله ممن منّ عليهم بجلاء ظلمة الشكّ والشبهة عن ضمائرهم وعقائدهم، وأزال مُخالجة الشكّ عن قلوبهم وسرائرهم، وممن شرح صدورهم بنور العلم والمعرفة بحقائق الإيمان.

وفي هذا المقطع من المناجاة، استعمل الإمام السجّاد عليه السلام تعبير «وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم»، فهو يسأل الله أن يشرح صدره، وهو اصطلاح شائع في لغة العرب، وقد استُعمل في القرآن الكريم مقابل اصطلاح «ضيق الصدر»، حيث قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

والاصطلاحان «شرح الصدر» و«ضيق الصدر» هما تعبيران بالكناية شاع استعملاهما في القرآن الكريم للحكاية عن حالتين وشعورين نفسيين مختلفين؛ الحالة الأولى: هي حالة انبساط القلب وانفتاحه التي تبعث الشعور بالنشاط والحيوية عند الإنسان، وتحفّزه على العمل والتفكير والعبادة والمحبّة. والحالة الثانية: هي حالة انقباض القلب التي تبعث الشعور بالضيق والقلق والهمّ والكسل عند الإنسان، فتبعده عن العبادة والعمل.

تظهر حالة شرح الصدر عند الإنسان نتيجةً لاختلاط المحبّة بالمعرفة في قلبه، فتجعله يتلذّذ بالعبادة والعمل الذي يقوم به، وحتى في علاقاته الاجتماعية مع الآخرين تحفّزه حالة انشراح الصدر على الاستئناس بالحديث معهم وملاطفتهم والمزاح معهم، وتُضفي عليه طابع المرح والبشاشة، وتجعله يتحمّل أذى الآخرين وسلوكهم غير اللائق.

وعلى العكس من ذلك حالة ضيق الصدر وانقباض القلب، حيث تجعل الإنسان سريع الغضب فاقد القدرة على التحمّل وفاقد الرغبة في التعامل مع الآخرين والحديث معهم.

أما بالنسبة للأمور المعنوية والأخروية، فإن حالة انشراح الصدر تهيّئ قلب الإنسان للتسليم بأمر الله وإطاعته، وتجعل الإنسان خاضعًا خاشعًا

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٢٥.

أمام عظمة الله، وملتزمًا بطاعته وعبادته، كما تجعله يتلذّذ بمناجاة ربّه ودعائه.

أما لو ابتلي الإنسان بحالة من ضيق الصدر نتيجة ضعف إيمانه بالله، فإنه يفقد الرغبة بمناجاة الله وعبادته، ويصمّ أذنيه عن سماع آيات القرآن الكريم، ويتمرّد على أحكام الله وتعاليمه؛ بل تجعله يشعر بالضيق عند سماع اسم الله أو الحديث عن الآخرة ونِعمها، وبالتالي تؤدّي حالة ضيق الصدر إلى إبعاد الإنسان عن السير في طريق التقرّب إلى الله.

يصف القرآن الكريم حال الكافرين الذين أصابهم ضيق الصدر، بأن قلوبهم أصبحت تشمئز من سماع اسم الله، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1].

وفي المقطع التالي من المناجاة، يقول الإمام السجّاد عليه السلام:

«وَعَلَتْ لِسَبْقِ السَّعَادَةِ فِي الزَّهَادَةِ هِمَمُهُمْ، وَعَذُبَ فِي مَعِينِ الْمُعَامَلَةِ شِرْبُهُمْ، وَطَابَ فِي مَجْلِسِ الْأُنْسِ سِرُّهُمْ، وَأَمِنَ فِي مَوْطِنِ الْمَخَافَةِ سِرْبُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ بِالرُّجُوعِ إِلى رَبِّ الْأَرْبَابِ أَنْفُسُهُمْ، وَتَيَقَّنَتْ بِالْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ أَرْوَاحُهُمْ، وَقَرَّتْ بِالنَّظَرِ إِلى مَحْبُوبِهِمْ أَعْيُنُهُمْ، وَاسْتَقَرَّ بِإِدْرَاكِ السُّؤْلِ وَنَيْلِ

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٤٥.

الْمَأْمُولِ قَرَارُهُمْ، وَرَبِحَتْ فِي بَيْعِ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ تِجَارَتُهُم».

أولياء الله يسعون لكسب رضاه والاستئناس بتجلّياته

يزيد الإنسان في العادة من همّته في سبيل تحقيق رغباته في ترقّي المناصب والمقامات الدنيوية، فمن يشحذ همّته ويوظّفها لبلوغ أعلى المقامات والمناصب الدنيوية، يوصف بكونه شخصًا ذا همّة عالية، فمثلًا لو سألنا التلاميذ في الصف عن مستقبلهم، وعن الوظيفة التي يرغبون الوصول إليها في المستقبل، فإن إجاباتهم ستختلف بما يتناسب مع تفكير كل واحد منهم والمحيط الذي يعيش فيه، فيقول أحدهم: «أريد أن أصبح بقّالًا» مثلًا؛ لأنه متأثّر بأخلاق وطيبة البقّال الموجود في محلّته، وبما يقدّمه من مواد غذائية سالمة وصحيّة للناس، ويقول الآخر: «أريد أن أصبح مُعلّمًا» مثلًا؛ لأنه متأثّر بطيبة معلمه وحرصه الشديد وتفانيه في التدريس وتعامله الحسن مع التلاميذ، والثالث يقول: «أريد أن أصبح طيّارًا»، وآخر يقول: «أريد أن أصبح طبيبًا»، وبعض آخر يقولون: «نريد أن نصبح مخترعين أو من الأثرياء جدًّا»، وهكذا.

ولو قارنّا بين رغبات هؤلاء التلاميذ لاستنتجنا من هو أكثرهم همّةً وحيويةً في هذه الدنيا. وكذلك تختلف همّة الأفراد بالنسبة لرغباتهم الأخروية، فمن كان ضعيف الهمّة قليل العزيمة لا يتمنّى من الله سوى أن يرزقه الجنّة ويقيه عذاب النار، أو أن يمنّ عليه بقصرٍ في الجنّة، وأن يتلذّذ بطيّبات الجنّة ويتمتّع بمناظرها. أما من كانت همّته عالية، فستزداد رغباته وتسمو أكثر، حتى تصل عند أصحاب الهمم العالية للغاية

إلى الرغبة في كسب رضا الله تعالى، والقرب من مقام الحقّ عزّ وجلّ، ليغرق في بحر لذّة مشاهدة جماله.

وقد وَرَدَ في بعض الروايات أن بعض أهل الجنّة يتأثّرون بشدّة عند النظر إلى تجلّيات الله حتى يفقدوا معها شعورهم بما يحيط بهم، وتستمرّ دهشتهم من عظمة جمال الله لسنوات طويلة، فتشكو زوجاتهم - أي الحور العين - إلى الله عدم اهتمامهم وعدم رغبتهم بهن، ويقلن: إلهنا لقد خلقتنا ليتمتّعوا بنا، وهم لا يأبهون بنا ولا يشعرون بوجودنا. فتأثّرهم الشديد بتجلّيات الله والغرق في بحر لذّة مشاهدة جماله، يدل على إدراكهم أعلى درجات اللذّة التي لا تبلغها أي لذّة أخرى يمكن أن يصل إليها الإنسان عبر نِعم الجنّة وطيّباتها، فكيف إذا ما قارنّاها باللذّة الناشئة عن المقامات الدنيوية التافهة!

وعلى ضوء ما تقدّم، فإن أصحاب الغايات المتعالية قد فرّغوا قلوبهم من جميع علائق الدنيا وشهواتها، وأصبحوا - بحسب قول الإمام السجّاد عليه السلام - ممن عَلتْ هممهم لنيل مقام السعادة والزهد بكل ملذّات الدنيا وزخارفها.

في زمن خلافة أمير المؤمنين عليه السلام كانت تخضع لحكومته كل البلاد الإسلامية كمصر والعراق وإيران، عدا بلاد الشام التي كانت تحت ولاية معاوية بن أبي سفيان آنذاك؛ لكن مع ذلك ينقل لنا الإمام الباقر عليه السلام في رواية: أن عليًّا عليه السلام دخل السوق وهو أمير المؤمنين، فاشترى قميصًا بثلاثة دراهم ونصف، فلبسه في السوق، فطال أصابعه، فقال للخياط: «قصه»، قال: فقصّه[1]. كذلك تنقل كتب السيرة عن أحوال

(١) الميرزا حسين النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، الجزء ٣، الصفحة ٢٦٤.

أمير المؤمنين عليه السلام وشدّة عبادته، حتى روي أن جبهته اسودّت من كثرة السجود، وأنه كان يلبس الخشن، وينتعل نعلًا من ليف النخل، لكن عندما كان يرتقي المنبر كان يخطب في الناس تلك الخطب العظيمة بما تتضمّنه من توصيات ومطالب رفيعة.

وقد روي عن عبد الله بن عباس أنه قال: دخلتُ على أمير المؤمنين بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: «**ما قيمة هذه النعل؟**»، فقلتُ: لا قيمة لها، فقال: «**والله لهي أحبُّ إلي من إمْرتكِم إلا أن أقيمَ حقًّا أو أدفعَ باطلًا**»[1].

إن هذه الصفات والخصائص التي كان أمير المؤمنين عليه السلام يتحلّى بها ناشئة عن زهده بكل ملذّات الدنيا، وفناء روحه بحُبّ المعبود. ولا شكّ في أنه عليه السلام يُعد أعلى مثل لأصحاب الهمم العالية ممن وظّفوا همّتهم للزهد في الدنيا وعدم التعلّق بملذّاتها، ولنيل مقام السعادة وكسب رضا الحقّ تعالى، وليتبوّؤوا مكانتهم في مجلس أنس الحقّ، حتّى ينهلوا من شراب وصل محبوبهم ومعبودهم. وهؤلاء هم مَن تمنّى الإمام السجّاد عليه السلام أن يجعله الله تعالى في زمرتهم.

وفي نهاية هذه المناجاة، يقول الإمام السجّاد عليه السلام:

«إِلَهِي مَا أَلَذَّ خَوَاطِرَ الْإِلْهَامِ بِذِكْرِكَ عَلَى الْقُلُوبِ، وَمَا أَحْلَى الْمَسِيرَ إِلَيْكَ بِالْأَوْهَامِ فِي مَسَالِكِ الْغُيُوبِ، وَمَا أَطْيَبَ طَعْمَ حُبِّكَ، وَمَا أَعْذَبَ شِرْبَ قُرْبِكَ، فَأَعِذْنَا

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٣٣.

مِنْ طَرْدِكَ وَإِبْعَادِكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَخَصِّ عَارِفِيكَ وَأَصْلَحِ عِبَادِكَ وَأَصْدَقِ طَائِعِيكَ وَأَخْلَصِ عُبَّادِكَ، يَا عَظِيمُ يَا جَلِيلُ يَا كَرِيمُ يَا مُنِيلُ، بِرَحْمَتِكَ وَمَنِّكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

أولياء الله في معرض الإلهامات الربّانية واللقاء الإلهي

نحن نعجز عن إدراك لذّة ذكر الله وفهمها، لأنّنا لم نذق حلاوة طعمها؛ لكن الإمام السجّاد عليه السلام يصف خواطر الإلهام التي تنبّهه إلى ذكر الله بأنّها ألذّ ما يمكن أن يشعر به الإنسان، ويقول: ما ألذّ خواطر ذكرك التي ألهمتها قلبي.

ولكم أن تتصوّرا حال عاشقٍ امتلأ قلبه بحُبّ معشوقه ومحبوبه، بحيث لا يفتأ يفكّر فيه؛ لكن يتعرّض فجأةً لمشكلة يغفل معها للحظة عن محبوبه، فيُرسل إليه المحبوب إشارات وعلامات تنبّهه، وتذكّره أن لا يغفل عنه. فلا شكّ تكون هذه الإشارات من المحبوب ألذّ ما يمكن أن يشعر به العاشق الولهان بحُبّ معشوقه الحقيقي وهو الله تعالى، فلا توجد لذّة تُضاهي بحلاوتها اللذّة التي يشعر بها الإنسان عندما يُلهمه الله أن يتذكّره ولا يغفل عنه.

ثم يقول الإمام عليه السلام: **«وَمَا أَحْلَى الْمَسِيرَ إِلَيْكَ بِالْأَوْهَامِ فِي مَسَالِكِ الْغُيُوبِ»**.

ولتوضيح هذه الجملة، يمكن القول إن الإنسان - ونتيجةً لكثرة عبادته ودوام ذكر الله تعالى - قد يمرّ بحالة يشعر فيها أن المحبوب

يراه، وذلك من خلال مشاهدة الإنسان ورؤيته تجلّيات الله الرحمانية؛ فعندما طلب نبي الله موسى عليه السلام أن يرى الله جهرة، أجابه الله تعالى قائلًا: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

على كل حال، يتعرّض أولياء الله أحيانًا وفي لحظات معيّنة لمراتب من تجلّيات الله، ورغم قصر تلك اللحظات إلا أنها تبعث فيهم نوعًا من اللذّة تفوق كل وصف، حتى يغرقوا في بحرٍ من السعادة والسرور بحيث لا يشعرون بكل ما يحيط بهم.

وأولئك الذين وفّقهم الله لبلوغ هذه المرتبة المعنوية، يحمدون الله ويشكرونه على هذه النِعمة العظيمة، ويسعون إلى المحافظة على تأثير هذه الحالة وعدم زوالها.

ولتوضيح تلك اللحظة التي يمرّ بها أولياء الله عند تجلّي مظاهر عظمته أمام أعينهم، ووصف عظمة اللذّة التي يشعرون بها، ولتقريب ذلك إلى الأذهان، نذكر مثالًا من حياتنا الاجتماعية، فنحن نرى في حياة الإمام الخميني قدس سره أن بعض الناس كانوا يقطعون مسافات طويلة من مدنهم وقراهم ليحظوا بعد سنوات من الانتظار بفرصة لقاء الإمام والتمتّع برؤية جمال وجهه النوراني، لكن ما أن تتحقّق رغبتهم وتقع أعينهم على الإمام حتّى تتلعثم ألسنتهم من شدّة الشوق لرؤية وجهه، فلا يمكنهم التفوّه حتى ولو كلمة واحدة.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.

كذلك الحال بالنسبة لبعض الأشخاص ممن يحدوهم أمل لقاء قائد الثورة الإسلامية، فإنهم عندما يتحقّق هذا الأمل ويحظون بفرصة لقائه ولو لمرّة واحدة، يشعرون بلذّة لا توصف، ويسعون للمحافظة على هذه اللذّة حتى بعد مرور فترة طويلة على ذلك اللقاء، من خلال استذكار لذّة تلك اللحظات الجميلة وإبقائها حيّةً في أذهانهم دائمًا. إن الصورة التي تبقى عالقةً في أذهانهم عن ذلك اللقاء هي صورة ذهنية عن تلك الرؤية والمشاهدة، لكنّها تبعث في نفوسهم اللذّة والسعادة.

يُشير الإمام السجّاد عليه السلام إلى تلك الحالة، ويقول إن لذّة تلك اللحظات عظيمة جدًّا إلى الحدّ الذي يحلو معه حتّى توهّم السير إلى منازل القرب من الله تعالى؛ أي إن الإنسان عندما يحظى بفرصة مشاهدة تجلّيات الله تعالى، ولشدّة وعظمة اللذّة التي يشعر بها في تلك اللحظة، يسعى لإبقاء صورة ذهنية عنها حتى يتذكّرها دائمًا فلا يزول طعم حلاوتها من قلبه، والإبقاء على تلك الصورة حيّة في ذهن الإنسان يُعدّ بمثابة توهّم السير في مسالك القرب من الله تعالى.

إن إدراك ومشاهدة تجلّيات الله مقامٌ رفيع لا يبلغه في هذا العالم سوى أولياء الله والخواص من عباده، وإذا ما تمكّن شخص من نيل هذا المقام الرفيع وحصلت له حالات من المكاشفة ومشاهدة بعض تجلّيات الله تعالى، فيجب عليه أن يسعى لحفظ صورة وهميّة عنها في ذهنه حتّى تبقى ذكرى تلك اللحظات الجميلة حيّةً عنده؛ لأن الإبقاء على تلك الصورة الوهميّة حيّةً في الذهن يُعدّ نوعًا من الشكر لله تعالى على هذه النعمة العظيمة، وتجعل نفس الإنسان مستعدّةً لاستقبال تجلّيات أخرى، حتّى يظن فيها أحيانًا أنه يُشاهد تجلّيات إلهيّة جديدة. ولا ريب أن المحافظة على تلك الصورة الوهميّة للحظات مشاهدة التجلّيات الإلهية

من شأنها تقوية علاقة الإنسان بربّه، كما هو الحال في علاقات العشق الإنسانية، كالتي حدثت بين قيس وليلى. فتوهم مشاهدة المحبوب يبعث نوعًا من النشاط والحيوية عند العاشق؛ لذا فلو حظي العاشق بلقاء معشوقه لمرّة واحدة طيلة السنة، فإنه يعيش بقية أيام السنة على ذكرى حلاوة ذلك اللقاء، وهذه الصورة الوهميّة تبعث فيه الأمل والنشاط والشعور باللذّة.

والواقع أن العاشق يعيش بذكرى المعشوق، ولولا تلك الذكرى لمات من الاضطراب والتلوّي؛ لأن ذكرى المعشوق تبعث فيه الأمل بالحياة وبدونها لا يبقى لحياته أي معنى أو طعم.

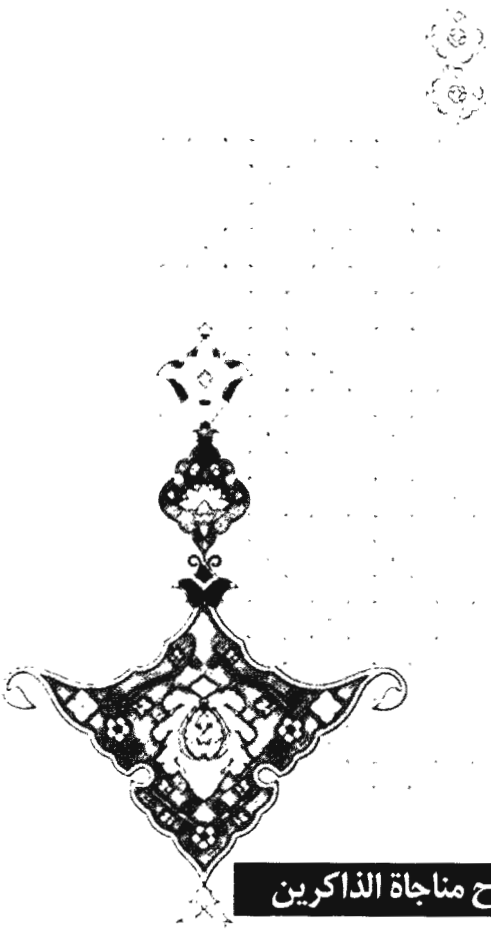

شرح مناجاة الذاكرين

المقال الرابع والخمسون
أهمّية وعظمة ذكر الله

مناجاة الذاكرين واحدة أخرى من المناجيات الخمس عشرة للإمام السجّاد عليه السلام، والتي يبدؤها بقوله:

«إلهي لَوْلا الْواجِبُ مِنْ قَبُولِ أمْرِكَ لَنَزَّهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إيَّاكَ، عَلى أَنَّ ذِكْرِي لَكَ بِقَدْرِي، لا بِقَدْرِكَ، وَما عَسى أَنْ يَبْلُغَ مِقْدارِي، حَتّى أُجْعَلَ مَحَلًّا لِتَقْدِيسِكَ، وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَيْنا جَرَيانُ ذِكْرِكَ عَلى أَلْسِنَتِنَا، وَإذْنُكَ لَنا بِدُعائِكَ وَتَنْزِيهِكَ وَتَسْبِيحِكَ».

عموم الذكر وإرتباطه بالمعرفة

تحدثنا، قبل عشر سنوات تقريبًا، بالتفصيل عن موضوع ذكر الله تعالى، وجمعنا تلك المحاظرات في كتاب حمل عنوان «ذِكْرُهُ»[1]؛ فلن نسعى في

---

(١) عنوان الكتاب: «ياد او»، ويمكن ترجمته أيضًا «ذكرُ الله».
أقول: الكتاب المذكور تُرجم واقعًا إلى العربية بعنوان «ذكرُ الله»، وطُبع في دار المعارف الحكمية [وهي الدار عينها التي ترجمت وطبعت هذا الكتاب القائم بين يديك] في العام ٢٠١٧ م الموافق ١٤٣٨ هـ ق. [المحرّر]

هذا المبحث للحديث بالتفصيل عن هذا الموضوع، وإعادة التذكير بما جاء في ذلك الكتاب، لكننا مضطرون، بمناسبة الحديث عن مناجاة الذاكرين وشرح كلماتها وتحليل مطالبها، إلى الحديث باختصار عن بعض النقاط المهمّة المرتبطة بموضوع ذكر الله.

النقطة الأولى، إن المتبادر إلى أذهان عامّة الناس من الذكر هو الأذكار اللفظية، نظير قولنا: الله أكبر، لا إله إلّا الله، وغيرها. بيد أنّ ما نستنبطه من آيات القرآن الكريم، والمناجيات، والأدعية، هو شمولية ذكر الله وسعة دائرته، فهو لا يقتصر على الألفاظ فحسب، وإنما يشمل الذكر المعنوي أيضًا؛ بل الذكر يرتبط أساسًا بالقلب قبل اللفظ؛ لأننا عندما نتذكّر شخصًا، فلا يعني ذلك أن نكتفي بذكر اسمه فقط؛ بل ينبغي أن نتذكّره بالقلب أوّلًا. والذكر اللفظي إنما يكتسب أهمّيته من كونه سببًا لتذكير القلب، حتى أنه أطلق عليه لفظ «الذكر» لكونه يتلازم مع الذكر القلبي، بل حقيقة الذكر هي في ارتباطه بالقلب، ولهذا يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[1].

النقطة الثانية، إن الإنسان عندما يذكر ربّه - بما فيه الذكر القلبي - فإنه يستحضر بهذا الذكر في ذهنه أسماء الله وصفاته وأفعاله، فمثلًا عندما يصف اللهَ بالكريم والرزّاق أو الغفار فإن مفاهيم هذه الأسماء ستترسّخ في ذهنه، وسيعبّر كل واحد منها عن موجود يحمل هذه الصفات.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠٥.

وبعبارة أخرى: إنّ الذكر تابع للمعرفة، فالإنسان يذكر الله بما يتلاءم مع معرفته له. ولتوضيح هذه العبارة نقول: إن الإنسان قد يرتبط بعلاقةٍ وثيقة مع شخص لسنوات طويلة، كتعلّقه الشديد بأستاذه، فتراه يحضر دروسه باستمرار، ويستفيد من كلماته ونصائحه، وبعد أن يفارق هذا الأستاذُ الحياةَ، يبقى يتذكّره، وهذا الذكر يتناسب بالطبع مع معرفته لأستاذه، وهو لا محالة يختلف عن ذكر الشخص الذي لم يعرف الأستاذ جيّدًا واقتصرت معرفته له بما سمعه من الآخرين عن صفاته وخصاله؛ إذ إنه سيتذكّره بما يتناسب مع هذه المعرفة الضعيفة.

إذًا، لمّا كان ذكر الله يتناسب مع معرفة الإنسان لربّه، ولمّا كانت مراتب هذه المعرفة تختلف باختلاف الأفراد، فإن ذكر الله أيضًا إذا لم يقتصر على لقلقة اللسان، وكان ينبع من صميم قلب الإنسان، فسيكتسب أهمّيةً عظيمةً بما يتناسب مع معرفة الإنسان بالله؛ ولهذا فكلّما ازدادت درجة معرفة الإنسان بالله وصفاته وأفعاله، ازدادت بنفس المقدار أهمّية ذكر الله وشدّة تأثيره عليه.

عظمة ذكر الله وعجز الإنسان عن أداء حقّه

النقطة الثالثة، والتي تمثّل المحور الرئيسي لهذه المناجاة الشريفة وموضوعها الأساسي، هي أننا نعجز عن أداء حقّ ذكر الله بما ينسجم مع عظمة الله وجلال شأنه. فرغم أننا في المباحث السابقة ذكرنا الكثير من الآيات الروايات التي أشارت إلى موضوع ذكر الله؛ لكنّنا لم نلتفت إلى هذه النقطة الرئيسة، وهذا يجعلنا نُدرِك أهمّية الرجوع إلى أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بوصفهم أعظم نِعم الله علينا، فقراءة الأدعية والمناجيات أو الروايات الواردة عنهم تفتح للإنسان آفاقًا جديدة من المعرفة.

نحن نعجز عن أداء ذكر الله بما يتلاءم مع شأنه وعظمته، ولو لم يأمرنا الله بذكره، لنزّهناه عن الذكر؛ لأن ذكرنا له يتناسب مع مرتبة وجودنا ودرجة معرفتنا له تعالى، فكلّما عَلَتْ مرتبة وجودنا ومعرفتنا بالله واتسعت، كان ذكرنا له أكثر شدّة وتأثيرًا؛ لكن لمّا كان وجودنا محدودًا وضعيفًا وفقرًا محضًا، فذكرنا لله سيكون بالدرجة نفسها من الضعف والمحدودية، وبالتالي سوف لن يليق بشأن الله وعظمته، لأن وجوده غير محدود ولا متناهٍ.

وحتى لو ازدادت قابلياتنا ومعرفتنا، وتبعًا لها ازدادت قيمة ذكرنا لله تعالى، فإن ذكرنا لن يصل إلى المرتبة التي تتناسب مع شأن الله وجلاله، لعجز المحدود والمتناهي عن وصف المطلق اللامحدود واللامتناهي؛ إذ لا يمكن أبدًا مقارنة المحدود باللامحدود أو إيجاد نسبة وعلاقة فيما بينهما؛ لذا لن نتمكّن أبدًا من أداء حقّ ذكر الله بما يتناسب وشأنه ووجوده المطلق غير المحدود؛ لكن رغم ذلك يجب علينا إطاعة أوامر الله والالتزام بتعاليمه التي حثّنا فيها على ذكره بما يتناسب مع قدراتنا ومعرفتنا، مع الإقرار بأن ذكرنا له تعالى لن يتناسب مع شأن وجوده المطلق.

وعلى هذا فإن من أعظم نِعم الله علينا أنه سمح لنا بذكره ومناجاته بكلمات تتناسب مع قدراتنا ومعرفتنا، لا مع عظمة شأنه ورفعة جلاله.

وقد وَرَدَتْ روايات كثيرة في بيان فضيلة ذكر الله وأهمّيته، بعضها يحمل مضامين تُثير الحيرة والتعجّب في وصفها لمكانة الذاكرين لله وعظمة منزلتهم. فمثلًا، نذكر لكم هذه الرواية التي يسأل فيها نبي الله

موسى عليه السلام ربّه، فيقول: «**يَا رَبِّ أَقَرِيبٌ أَنْتَ مِنِّي فَأُنَاجِيَكَ أَمْ بَعِيدٌ فَأُنَادِيَكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى، أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي**»[1].

لطالما تمنّينا في حياتنا مجالسة العلماء والعرفاء والشخصيات المرموقة، وكلّما كان الشخص الذي نتمنّى لقاءه ومجالسته ذا منزلة وشأن أكبر، جَعَلَنا نفتخر ونتباهى بلقائه أكثر. فمثلًا قبل الثورة الإسلامية كان الملايين من الناس يتمنّون لقاء السيد الإمام الخميني (رضوان الله عليه)، وكذلك في وقتنا الحاضر يتمنّى الملايين من الناس لقاء السيد الخامئني قائد الثورة الإسلامية، فإذا ما حظوا بفرصة لقائه بصورة شخصيّة، فإنهم سيشعرون بسعادة غامرة لا يمكن وصفها. وستزداد سعادة الإنسان وفخره أكثر إذا ما وفّقه الله للقاء إمام العصر والزمان، الإمام الحجّة بن الحسن عليه السلام؛ لكن ينبغي أن نُدرِك أن هؤلاء الأنبياء والأولياء والصالحين الذين نتمنّى لقاءهم، ليسوا سوى بشر وعبيد لله مثلنا، وأن كل ما يحظون به من منزلة رفيعة وبركات وكرامات إنما هي من فضل الله ونعمه عليهم، ولا يمكن لمقامهم ومنزلتهم أن يصل أبدًا إلى مقام الله ومنزلته وشأنه؛ لذا يجب أن نُدرِك جيّدًا أن مجالسة الله تعالى والقرب منه يُعد أعظم نِعم الله علينا وأسمى شيء يستحقّ الفخر والمباهاة.

ذِكر الله أو مجالسته تعالى

وَرَد مضمون عبارة «**أنا جَليسُ مَن ذَكَرَني**» في كثير من الروايات، فنجد مثلًا شبيه هذا المضمون في عبارة «**يا جَليسَ الذاكِرينَ**» التي وَرَدَتْ في الدعاء الذي يُقرأ بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام، كذلك جاء هذا المضمون

(١) محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٤٩٦، الحديث ٤.

في عبارة «**يا مَوجودَ مَن طلبه**»، وهي عبارات خاصّة لم تَرِد في غيرها من الأدعية والروايات.

والعبارة المذكورة تبيّن حقيقة أن الله لا يمكن أن يبتعد عمَّن يذكره ويناجيه؛ لكن ضعفَ بصيرتنا وقلّة إيماننا يحولان دون أن نُدرِك قربه مِنّا، فنظن أن الله لا يأبه بدعائنا وذكرنا له، ولا يستجيب لنا عندما نطلبه أو نحتاجه.

فلو كنّا نعرف معنى مجالسة الله، ونُـدرِك عظمة هذه النِعمة الإلهية؛ لتركنا كل مشاغل الحياة سوى ما هو ضروي لتمشية أمور حياتنا اليومية، وانصرفنا إلى ذكر الله والأنس بمناجاته؛ لكنّنا وللأسف الشديد لا أنّا لا نشعر بلذّة ذكر الله وحلاوة مجالسته فحسب، بل لا نجد في أنفسنا الرغبة للقيام بهذا الأمر، كما ونشعر بالملل والتثاقل من التفرّغ لذكره تعالى، حتى يصل شقاء البعض إلى درجة يكرهون فيها ذكر الله ويشمئزون منه، وقد وصف الله تعالى - في القرآن الكريم - حال هؤلاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1].

فضل الذكر، والأمر به من قبل الله، والنواقص في ذكرنا لله

بالرغم من أهمّية ذكر الله، نرى الإمام السجّاد عليه السلام يخاطب ربّه، قائلًا: «**إلهِي لَوْلا الْواجِبُ مِنْ قَبُولِ أمْرِكَ لَنَزَّهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إيَّاكَ**»؛ أي إلهي أنا خجل من ذكري لك، لما يشوبه من نقص وعيوب، لكنني إنما ذكرتك لأنك أوجبتَ ذلك عليّ، وقلتَ جل شأنك: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، وقلتَ

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٤٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٥٢.

أيضًا: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**}[١]؛ بل الله تعالى يشجّعنا على ذكره في كل حال، حتى في أسوء أحوالنا التي لا نرغب أن يرانا فيها أحد، كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**لاَ بأسَ بِذِكْرِ اللهِ وَأَنتَ تَبوُلُ فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ حَسَنٌ عَلى كُلِّ حالٍ فَلا تَسْأَمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»[٢].

كذلك وَرَدَ في التوراة غير المحرّفة أن موسى عليه السلام خاطب ربّه قائلًا: «**إِلَهِي إِنَّهُ يَأْتِي عَلَيَّ مَجَالِسُ أُعِزُّكَ وَأُجِلُّكَ أنْ أَذْكُرَكَ فِيهَا. فَقَالَ: يَا مُوسَى إِنَّ ذِكْرِي حَسَنٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[٣].

وبعد أن عرفنا قيمة ذكر الله وأهمّيته، وتأكيد الله تعالى على الالتزام به، وما أوصى به من عدم الانشغال عن ذكره حتى في أسوأ حالات الإنسان وأوضاعه، يُطرح السؤال التالي: لماذا إذًا قال الإمام السجّاد عليه السلام: «**إِلهِي لَوْلا الْواجِبُ مِنْ قَبُولِ أَمْرِكَ لَنَزَّهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إيَّاكَ**»؟

والجواب على هذا السؤال يتألف من قسمين: القسم الأوّل هو ما أشرنا إليه في حديثنا من أن ما يميّز وجود الإنسان وقدراته - حتى المعصومون عليهم السلام والأولياء والصالحون - هو النقص والفقر الذاتي المحض؛ فلا يمكن بالتالي لمن شأنه النقص والفقر الذاتي أن يصف مَن شأنه الكمال والغنى وعدم الحاجة، فكل ما يمكن أن يتصوّره الإنسان يبقى محدودًا بما يتناسب مع وجوده وقابلياته المحدودة.

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٤١.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٤٩٧، الحديث ٦.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٨.

فكل ما يمكن أن يصدر عن الإنسان بوجوده المحدود - ومنها ذكره لله تعالى - لا يمكن أن يفيَ بما يليق بشأن الله وعظمة جلاله المطلق اللامتناهي، وحتى ذكر الرسول الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام لن يفي بحقّ مقامه تعالى. فجسمنا محدود، وروحنا - رغم أنها ألطف من المادّة - لكن افتقارها إلى جميع مراتب الكمال والوجود التي تتمتّع بها الأرواح الأخرى، وعجزها عن الاطّلاع على ما يجري في العوالم الأخرى، والأهم من ذلك كونها مخلوقةً لله تعالى، يجعلها روحًا تتّصف بالنقص والمحدودية والفقر، فالنقص والعجز الذاتي والتكويني هو صفة المخلوقات، وبالتالي فما يصدر عن هذا الموجود المحدود الفقير لا يمكن أن يفي بحقّ الموجود اللامتناهي والغني بالذات، بل لا يمكن لوم هذا المخلوق على نقصه وعجزه؛ لأنها صفة أساسية من صفات جميع المخلوقات.

القسم الثاني من الجواب، يتعلّق بالنواقص والعيوب التي يعود سببها إلى الإنسان نفسه وانشغاله عن ذكر الله وعدم إدراكه لما يتطلّبه هذا الذكر، فنحن نذكر الله أحيانًا بلساننا فقط، دون التوجّه إلى معنى الكلمات التي نتفوّه بها، فمثلًا وَرَدَ استحباب ذكر عبارة «لا إله إلّا الله» مئة مرّة، ونحن نذكر هذه العبارة بألسنتنا طلبًا للثواب، لكن دون توجّه إلى معناها، بل نردّدها بمجرّد لقلقة لسان، ولا يختلف حالنا في ذكرها عن حالنا في ذكر غيرها من الألفاظ والكلمات.

وبالطبع فإنه رغم الثواب الحاصل من مجرّد ترديد هذه العبارة حتى بدون فهم معناها، وما يمكن أن تتركه من آثار على تقوية ذكر الله في قلوبنا؛ إلا أنّ هذا النوع من الذكر لا يمكن أن يصل إلى مرتبة الذكر

الحقيقي لله تعالى، الذي يشعر فيه الإنسان كأنّه يُجالس الله ويقف في حضرته.

وعليه فهذا النقص والإشكال يتعلّق بذكرنا لله أيضًا؛ لكونه يفتقد إلى الروح والتوجّه القلبي.

فإذا ما أردنا أن يكون ذكرنا وعبادتنا لله مزّينةً بالتوجّة القلبي والروحي، فلا بدّ من أن نستحضر معاني الكلمات التي نتلفّظ بها ونحن في أفضل حالاتنا من الذكر والعبادة. فلو نطقنا بعبارة «يا غفار» فما يمكن أن نتصوّره في ذهننا، هو وجود شخص يغفر ذنوب الإنسان، لكنه لا شكّ في أن لا قيمة تذكر لمثل هذا التصوّر، وهو تصوّر لا يسمو في معناه أكثر مما يحمله اللفظ نفسه، ولا يمكن أن يتجاوز لقلقة اللسان، بل لا يعدو هذا المفهوم أكثر من كونه تصوّرًا يتكرّر دائمًا في أذهاننا، أو مطلبًا علميًا خطر في بالنا.

إذًا، عندما نذكر الله تعالى، ينبغي أن نستحضر معاني الألفاظ في هذا الذكر بأقصى حدّ ممكن، ونتصوّر المصداق الذي تُشير إليه مفاهيمه، حينئذٍ وبهذه المرتبة من الذكر سيتولّد في قلوبنا توجّه ضعيف لله تعالى.

أما لو أردنا أن نصل إلى أعلى مراتب ذكر الله، فيجب أن لا نكتفي بتلفّظ كلمات الذكر واستحضار معانيها فحسب؛ بل يجب أن نستشعر ونتصوّر الذات الإلهية بكل جوارحنا ومن أعماق قلوبنا.

في الأمور العادية، لو افترضنا أنّنا نريد استذكار الإمام الخميني (رض) والدعاء له، فنقول مثلًا «اللهم ارحم الإمام الخميني واحشره مع الأنبياء»، فنحن قد نتلفّظ بهذه الكلمات أحيانًا دون استحضار معانيها،

وفي أحيان أخرى قد نستحضر معاني هذه الألفاظ؛ لكن عدم استحضارنا لوجود الإمام إلى درجةٍ يصح فيها إشارة تلك الألفاظ والمفاهيم إلى وجوده المبارك، يجعل منها ألفاظًا بلا روح، ويفقد الدعاء أهمّيته، ويبتعد عن حقيقته.

كذلك الحال بالنسبة إلى ذكر الله تعالى، فأحيانًا يكون ذكرنا لله مجرّد لقلقة لسان، وفي أحيان أخرى نستحضر معاني ألفاظ الذكر فتكون مرتبته أفضل من لقلقة اللسان وتصوّر المفاهيم فقط؛ لكنّها حتمًا لن تصل إلى مرتبة الذكر عندما يستشعر الإنسان في قلبه المصداق الذي تُشير إليه تلك الألفاظ؛ أي الله تعالى، وفي هذه الحالة يتحقّق الذكر والدعاء الحقيقي.

ولو لم يشأ الله تعالى أن يوفقّنا لذكره بما يستحقّه ويليق به، فهل يمكن للساننا العاجز وذهننا العليل الملوّث بالذنوب أن يوفَّق تلقائيًا لذكر الله دون مساعدته وعونه تعالى؟

ما نستنبطه من الآيات والروايات يفيد أن جميع تصرّفاتنا وسلوكنا - ومن بينها الذنوب - تترك آثارًا وضعيةً وواقعيةً على وجود الإنسان وروحه، ومن هذا ما يصوّره البارئ عزّ وجلّ في هذه الآية الشريفة عن الغيبة بصورة حسّية، ويبيّن أثرها الوضعي والملكوتي على الإنسان إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. فقد وصف الله تعالى الغيبة في هذه الآية الشريفة بأنّها كمن يأكل لحم أخيه الميت، فهذه الآية تكشف للجميع حقيقة الغيبة وأثرها الواقعي في الآخرة، رغم

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٢.

تأثيرها غير المحسوس في الدنيا بالنسبة لعوام الناس؛ أما أولياء الله الذين فتح الله أبصارهم الباطنية، فإنهم يرون في هذه الدنيا تجسم هذه الأعمال القبيحة وينكشف لهم مدى تأثيرها.

وإضافةً إلى التأثير السيّئ للغيبة على روح الإنسان، كذلك الخصال السيّئة الأخرى كالكذب والألفاظ البذيئة وغيرها من الذنوب، فإنها تترك آثارًا وضعيةً سيّئةً على قلب الإنسان، مما يعني أن لسان الإنسان وقلبه ملوّث بكثير من الذنوب التي لا تخفى على من يرون بعين البصيرة حقيقة الأعمال.

فكيف يُريد الإنسان بلسانه وقلبه الملوّثين بكل هذه الذنوب أن يواجه الله، ويقف في حضرته، ويذكره ويناجيه باسمه؟

لتوضيح هذا الأمر، يمكن أن نضرب لكم مثالًا قد يكون قاصرًا نوعًا ما، لكنه قد يفي بالغرض ويقرّب المعنى، فنقول: لو أن شخصًا يحتفظ بصورة صديقه في إطار قديم مكسور ويعلوه الغبار، أفلا يعتبر هذا السلوك إهانةً لصاحب الصورة؟ إذ من اللائق أن يحتفظ الإنسان بصورة صديقه ومحبوبه في إطار جميل ونظيف؛ لأن الشيء كلّما كان عزيزًا ومقدّسًا عند الإنسان، وجب أن يحتفظ به في مكان مناسب وأن يعتني به وبنظافته أكثر؛ بل وأن يعطّر مكانه أيضًا. فهل أن لساننا الملوّث بكل هذه الذنوب يستحقّ أن يذكر اسم الله بكل عظمته وجلاله وقدسيّته؟ وهل يصح أن نذكر الله بمثل هذا اللسان، ونستغلّ حلمه علينا؟ كذلك هل يليق بالله تعالى وعظمة جلاله، أن نحجّمه بتصوّر ذهننا الملوّث بالذنوب؟

بيد أنه وبالرغم من كل هذه الذنوب العظيمة التي تلوّث ألسنتنا وأذهاننا، نجد الله تعالى يمنّ علينا بلطفه ورحمته، فيسمح لنا بذكره

ومناجاته وتسبيحه وطلب قضاء حاجاتنا منه، أفلا يُعد ذلك من أعظم نِعم الله علينا؟.

المقال الخامس والخمسون
منشأ ذكر الله وعوامل تقويته

العلاقة بين الذِكر وعواطف الإنسان وأحاسيسه

قمنا في المحاضرة السابقة بمناقشة وتحليل مقطع من مناجاة الذاكرين، وقلنا إن الذِكر يعني: استحضار الإنسان لشيء يعرفه بعد نسيانه، وهذا الاستحضار بعد النسيان عادةً ما يرتبط بالقلب. فمِن الواضح جدًّا أن كلمة «القلب» التي وَرَدَتْ في القرآن الكريم والروايات لا يُقصد بها ذلك العضو الكمّثري الشكل الموجود في جسم الإنسان، بل يُقصد بها تلك القوّة الداخلية للإنسان التي تمثّل مركز الإدراك والعواطف والأحاسيس.

والذِكر قد يتحوّل عند الإنسان إلى حالة لا إرادية أحيانًا، بحيث لو أراد الإنسان أن يمحو شيئًا مِن ذاكرته لما تمكّن من ذلك، بل تراه يعود ويتذكّر هذا الشيء تلقائيًّا. ونحن بالطبع لا نسعى هنا لتحليل هذه الحالة من الناحية النفسية، لكن يمكننا القول إجمالًا إن الإنسان قد يشتدّ تعلّقه ببعض الذكريات المؤلمة أو السعيدة، فيشغل ذهنه بها إلى درجة يؤدّي معها هذا الحُبّ أو الكُره الشديد إلى بقاء تلك الذكرى عالقةً في ذهنه دائمًا، دون التمكّن من نسيانها. فإن من الطبيعي مثلًا أن تذكّر

المصائب والأحداث المؤلمة والحزينة يبعث في النفس الألم والحزن؛ غير أنها لا مفرّ منها فنبقى نتذكّرها دائمًا بشكل لا إرادي تقريبًا.

أما في الحالات الأخرى غير هاتين الحالتين، فيجد الإنسان صعوبةً في تذكّر معلوماته ما لم يتمرّن على استحضارها في ذهنه، وما لم يواظب باستمرار على الاهتمام بها وتذكّرها، ومن هنا فإن قدرتنا على تذكّر المعلومات ترتبط بالدرجة الأولى بشدّة حُبنا أو كرهنا لها، فلو كان حُبّنا أو كرهنا لشيء ما طبيعيًّا متعارفًا، فمِن الممكن أن ننساه سريعًا جدًّا؛ لكن لو كان تعلّقنا بذلك الشيء وحُبّنا أو كرهنا له شديدًا وجارفًا، فإن من الصعب علينا نسيانه وسيبقى عالقًا في أذهاننا إلى الأبد، حتى لو سعينا إلى نسيانه ومحوه من ذاكرتنا.

ويتّضح مما تقدّم، أن ضعف إيماننا بالله تعالى وقلة محبّتنا له يؤدّيان بنا إلى نسيانه والغفلة عن ذكره، والانشغال بأمور الدنيا وملذّاتها وبما يواجهنا فيها من مصائب ومشاكل عديدة. وفي هذه الحالة، يستطيع الإنسان أن يحيي ذكر الله مجدّدًا في قلبه بالسعي الدؤوب وإيجاد العوامل التي تساعد على إحياء رغبته بذكر الله.

أما من كان إيمانهم بالله قويًّا وحُبّهم له شديدًا جارفًا، فإنهم لا ينسون الله أبدًا، ولا يغفلون عن ذكره لحظةً واحدة، ولا تستطيع أي قوّة أن تُبعدهم أو تُنسيهم ذكر الله، فحالهم كحال المفجوع الذي لا يستطيع نسيان مصيبته أبدًا، رغم سعي المقرّبين منه للتخفيف من شدّة تأثّره بها عن طريق إشغاله أو الترفيه عنه بأمور أخرى.

السُبل الكفيلة بتقوية ذكر الله عند الإنسان والمواظبة عليه

إذا ما تلطّف الله بالإنسان، ووفّقه لتقوية إيمانه بالله وزيادة محبّته له، فإن هذا الإنسان سيتذكّر ربّه باستمرار، ولن يشعر بالتعب أو الكلل؛ بل سيتلذّذ بهذا الذكر ويأنس به. إن مشكلتنا تكمن في انشغال أذهاننا بأمور الدنيا وتعلّق قلوبنا بمحبّة الآخرين بعيدًا عن محبّة الله، مما جعلنا نغفل عن ذكر الله، وحتى نتخلّص من هذه الغفلة ونتمكّن من إحياء ذكر الله في قلوبنا، عيّن الشرع المقدّس وأساتذة الأخلاق سبلًا وبرامج مختلفةً لو التزم الإنسان بتطبيقها، لتمكّن من بلوغ تلك الغاية وتحقيق ذلك الهدف، حتى يبلغ مرحلةً من الإيمان لا يغفل فيها عن ذكر الله لحظةً واحدة، ويستشعر لذّة ذكر الله أثناء تطبيقه تلك البرامج، وينبعث النشاط والحيوية في قلبه.

تعتبر الصلاة من أفضل هذه البرامج وأهمّها، حيث يذكّرنا الله تعالى في القرآن الكريم بالدور الأساسي والحيوي الذي تؤدّيه الصلاة في تقوية ذكره في قلب الإنسان؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]، فمن هذه الآية الشريفة يمكن أن نستنبط أن أحد حِكم الله في تشريع الصلاة هو أن تكون وسيلةً لذكره، فلو لم يوجب الله الصلاة لنسينا ذكره، إذ قد تَمرّ علينا عِدّة أيام لا نذكر الله سبحانه فيها.

ونظرًا لاختلاف مراتب الذكر من حيث الشدّة والضعف، فلو أراد الإنسان أن يزيد من كمّية وكيفية ذكره لله تعالى، يجب أن يضع ضمن أولويات برامجه اليومية الالتزام بأداء الصلوات والعبادات المستحبّة، إضافةً إلى مواظبته على أداء الواجبات من الصلاة والصوم وغيرها من

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٤.

الواجبات، وعليه أن يسعى دائمًا إلى أداء مستحبّات الصلوات الواجبة، خاصّةً الالتزام بأداء الصلاة في أوّل وقتها.

ولعل أحد الأسرار الكامنة في التأكيد على أداء الصلاة في أوّل وقتها هو أن يعتاد الإنسان على ذكر الله عند اقتراب وقت الصلاة، كما أن التزامه بأداء الصلاة في أوّل وقتها يدفعه إلى السعي لتنظيم وقت عمله وبرمجته بحيث لا يتعارض مع وقت الصلاة، فمثلًا ينظم وقته من الصباح الباكر بحيث ينتهي عمله عند وقت صلاة الظهر، مما يتيح له أداء الصلاة في وقتها، وهكذا بالنسبة للصلوات الواجبة اليومية الأخرى، وهذا النوع من تنظيم الوقت يُذكّر الإنسان بالله طيلة اليوم، أي إن الالتزام بأداء الصلاة الواجبة في أوّل وقتها يؤدّي إلى أن ينشغل الإنسان بذكر الله طيلة ساعات اليوم.

وعندما يتذكّر الإنسان ربّه باستمرار فإنه سيعتاد على ذلك حتّى يأنس بذكر الله ومناجاته؛ لأن الإنسان بطبيعته يأنس بكل شيءٍ أو شخصٍ يتكرّر عليه باستمرار ويزداد تعلّقه به، ومن ذلك الصعوبة التي يلقاها الإنسان عند فراق أحبّته وجيرانه إذا ما اضطر إلى الانتقال عن المنطقة التي كان يقطن فيها، خاصّةً إذا كان يشعر فيها بالراحة وكانت تربطه فيهم علاقات صداقة وثيقة.

إن طبيعة الإنسان الاجتماعية تعتبر عاملًا مهمًّا ومؤثّرًا جدًّا في تطوّره في عمله، فلو لم يتّصف الإنسان بهذه الصفة ولم تصبح جزءًا من طبيعته الإنسانية، لما تمكّن من أداء عمله بصورة صحيحة، ولأصبح شاقًّا ومُجهِدًا عليه. أما في مجال المعرفة، فإن كثيرًا من المعارف والمعلومات قد تتكرّر على الإنسان حتى تصبح عنده ملكةً في أدائها، فيسهل عليه نطقها أو تعلّمها، فأداء الصلاة اليومية الواجبة مثلًا وقراءة أذكارها باستمرار وتكرارها يوميًّا، يحوّلها عندنا إلى نوع من العادة والملكة، بحيث ما أن نبدأ بأداء

الصلاة حتى نتذكّر بدون تأمّل هذه الأذكار ونشرع بقراءتها، وإلا فبدون هذه الملكة سيصعب علينا تذكّرها، وعندما نريد قراءة سورة الحمد ونبدأ بقراءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ سنجد صعوبةً في تذكر باقي الآيات، وسنحتاج إلى وقتٍ أكبر لتذكّر هذه الآيات وقراءتها بصورة صحيحة، وبالتالي سنصرف وقتًا طويلًا في أداء واجبات الصلاة وأذكارها.

وطبيعي أن التعوّد على الصلاة وغيرها من العبادات لا يخلو من الآفات أيضًا؛ لأن الصلاة أو غيرها من العبادات عندما تصبح عادةً ونوعًا من الملكة بالنسبة للإنسان، فإنه سيؤدّيها دون التفات إلى مضمونها ومعانيها، فتفقد روحها وتأثيرها الحقيقي على الإنسان وتخلو من فائدة ذكر الله؛ لهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**لَا تَنْظُرُوا إلى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُجُودِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ اعْتَادَهُ فَلَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ لِذَلِكَ وَلَكِنِ انْظُرُوا إلى صِدْقِ حَدِيثِهِ وَأَدَاءِ أَمَانَتِهِ**»[1].

كذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما وُصفَ رَجُلٌ عِنْدَه صلى الله عليه وآله وسلم بِحُسْنِ عِبَادَتِهِ، أنه قال: «**انْظُرُوا إلىَ عَقْلِهِ فَإنَّما يُجْزىَ العِبادُ يَومَ القِيامَةِ عَلى قَدرِ عُقُولِهِم وحُسْنُ الأَدَبِ دَليلٌ عَلى صِحَّةِ العَقْلِ**»[2].

نستنبط من هاتين الروايتين أن لا قيمة للعبادة التي يؤدّيها المرء على نحو العادة دون توجّه إلى مضمونها أو حضور قلب، وأن الفائدة المرجوّة منها لن تتحقّق إذ ذاك، وستفقد تأثيرها الحقيقي على الإنسان؛ لذا يجب علينا أن نسعى لأداء صلاتنا وعباداتنا بحضور قلبٍ والتفات إلى مفاهيمها، ونسعى إلى تحسين كيفيّتها إضافةً إلى زيادة كمّيتها.

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ١٠٥، الحديث ١٢.

(٢) حسن الديلمي، **إرشاد القلوب**، الجزء ١، الصفحة ١٩٩.

وليس من شكّ أنّ لمحبّة الله دور مؤثّر للغاية في زيادة ذكره عند أدائنا لمختلف أنواع العبادات؛ لهذا نرى أولياء الله والخواص من عباده ممن فاضت قلوبهم بمحبّة الله، ينهضون لعبادة الله وذكره والسعادةُ والبهجةُ تملأ قلوبهم، بحيث يستغرب الأفراد العاديون لحالهم ويُثار تعجّبهم وحيرتهم لما يرونه من سلوك عجيب يطرأ عليهم عند وقوفهم في حضرة الربّ تعالى.

نماذج من عبادة أولياء الله السالكين في طريق محبّته

ينبغي على الجميع الاطّلاع على حال الأئمة المعصومين عليهم السلام وتلامذتهم وحال العلماء والأولياء، ودراسة سيرتهم الشخصية وتحليلها، حتى يتسنّى لنا معرفة كيف كانوا يلتزمون بعبادتهم وذكرهم المستمرّ لله تعالى إلى جانب انشغالهم بالدرس والبحث وإدارة أعمالهم اليومية وتسيير أمور حياتهم المعيشية. فعندما نُدقّق النظر في سيرة الشخصيّات العلمية المعروفة نُدرك كيف كانوا يلتزمون عبادتهم وأذكارهم بشدّة إلى جانب جهودهم العلمية الشاقّة التي أنتجت لنا العديد من المؤلّفات القيّمة سواء كمناهج دراسية أو مصادر علمية مهمّة.

يعتبر الحاج المرحوم آية الله الشيخ محمد حسين الغروي الأصفهاني رحمه الله أحد الشخصيّات العلمية البارزة التي قدّمت خدمات علمية وتدريسية جليلة للحوزات العلمية؛ وقد كان سماحته - بالإضافة إلى التزامه بالبرامج العلمية - يخصص جزءًا كبيرًا من وقته للعبادة وأداء المستحبّات، حيث كان ملتزمًا يوميًّا بقراءة زيارة يوم عاشوراء وصلاة جعفر الطيار.

وكان الشيخ آية الله بهجت رحمه الله من تلامذة المرحوم الأصفهاني رحمه الله؛ فقد تتلمذ على يديه لسنوات طويلة وارتبط معه بعلاقة وثيقة جدًا، وكان يقول عن أستاذه: «كل من يرى عبادة المرحوم الأصفهاني رحمه الله كان يظن أنه لم يكن يهتم بالدرس والتحقيق وإنما يلتزم بعبادته فقط»، وينقل آية الله بهجت رحمه الله أن المرحوم الأصفهاني كان يقول: «سألتُ الله تعالى أن يوفّقني للالتزم بهذه العبادة إلى آخر يوم في حياتي»، وقد استجاب الله دعاءه؛ إذ انتقل إلى جوار ربّه وهو في حالة السجود بعد أن أنهى جميع عباداته وصلى نافلة الليل.

وبالإضافة إلى التزام المرحوم الأصفهاني بهذا البرنامج العبادي الشاقّ، فقد كان إلى ذلك يُعد من الشخصيات العلمية البارزة؛ حيث ترك لنا العديد من المؤلّفات العلمية القيّمة كحاشيتيه على كتابَيْ **الكفاية** و**المكاسب** اللتان امتازتا بدقّة البحث والتحليل، حتى كان الفقهاء عندما يريدون اختبار فقيه لمرتبة الاجتهاد يطلبون منه قراءة قسم من هذين الكتابين وتفسيره، وإذا ما وُفق في تفسير مطالب هذين الكتابين يمنحونه إجازة الاجتهاد.

وما يثير الإعجاب أن المرحوم الأصفهاني أكملَ تأليف هذين الكتابين الاجتهاديين القيّمين ولم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من عمره.

وكان المرحوم آية الله بهجت رحمه الله يقول: «عندما كان المرحوم الأصفهاني يُنهي درسه وبحثه العلمي ويفرغ من عبادته الشاقّة، كان ما أن يضع رأسه على الوسادة ليأخذ قسطًا من النوم حتّى يجهش بالبكاء وتسيل دموع عينيه حتى تبتل وسادته». وعندما يُمعن الإنسان النظر بحياة مثل هذه الشخصيّة العلمية البارزة ويقارنها بحياته، يشعر بالأسف

والألم على حاله. فقد كان الأصفهاني شخصيةً علميّةً بارزةً يلتزم بعبادة ربّه ويلهج لسانه بذكره ويمتلئ قلبه بحبّه، ومع ذلك لم يترك مجال العلم والبحث والتدريس حتى تتلمذ على يديه كبار العلماء والفقهاء والمحقّقين أمثال المرحوم العلامة الطباطبائي، وآية الله بهجت وآية الله الميلاني (رحمهم الله).

ومن أولئك أيضًا المرحوم الحاج الشيخ غلام رضا كوچه بيوكي اليزدي رحمه الله، وهو من الشخصيات العلمية البارزة التي قلّ نظيرها في عبوديّتها وعبادتها لله تعالى، وقد صدر كتاب حول سيرته الذاتية تحت عنوان **تنديس پارسايى**[1]. كان المرحوم اليزدي يرتقي منبر الوعظ والخطابة حتى سن التسعين من عمره، وكان حافظًا للقرآن الكريم، وكان يركّز في محاضراته على مناقشة بعض النقاط المهمّة في تفسير القرآن وآياته، وكان أحيانًا يُنشد بعض الأبيات الشعرية من ديوان حافظ الشيرازي ويقرؤها بحرقة وألم، وأتذكّر أني كنتُ في طفولتي أحضر بعض مجالس وعظه، فكنتُ أسمع هذا الشيخ العجوز في التسعين من عمره يردّد بحرقة وألم وحالة خاصّة هذين البيتين من الشعر:

لو تَعلَم قيمة الخمر
لسهرتَ الليل ولم تستيقظ في النهار

ولجلستَ قرب كل عنقود عنب
خادمًا لتُبعد الذباب عنه

يتضمّن هذان البيتان - كما هي باقي الأبيات في الشعر العرفاني - بعض المعاني والاصطلاحات العرفانية الأصيلة، حيث لا تعبّر كلمة

---

(١) أي «مسال التقوى».

«الخمر» هنا عن الشراب المتعارف؛ بل تعبّر عن غلبة حالة الهيام بالمعبود على روح السالك وذهنه، أما إبعاد الذباب عن عناقيد العنب - التي يُصنع منها الخمر الذي ينقل السالك إلى حالة الهيام والعشق والمعرفة - فيعني إفراغ الذهن من كل الأفكار التي تشغل فكر الإنسان وتُضعف تعلّقه بالله تعالى.

وأهل الذوق والعرفان الذين يكثر تعاملهم مع هذه الاصطلاحات العرفانية مثل «الخمر» و«السُكْر» و«الخال» التي يتكرّر ذكرها في الأشعار العرفانية، يُدركون ما تعنيه هذه الاصطلاحات وما تحمله من مفاهيم عرفانية متعالية.

وكان العرفاء وبعض العلماء العظام كالإمام الخميني رحمه الله عندما يصلون إلى قمّة سلوكهم المعنوي، وعندما تفيض قلوبهم بمحبّة المعبود والهيام به، يردّدون مثل هذه الأبيات الشعرية ذات المعاني العرفانية الرفيعة، حتى يعبّروا عن اللذّة التي يشعرون بها نتيجة خلوتهم بمعبودهم وأنسهم بالقرب من حضرته.

بعد أن قرأ المرحوم الحاج الشيخ غلام رضا اليزدي رحمه الله هذين البيتين بحرقة وألم شديد، تلا هذه الآية الشريفة التي تبيّن حال أولياء الله والخواص من عباده ممن يُحيون ليلهم بالعبادة والدعاء وذكر الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

«البارحة أجهشتُ بالبكاء حتى جفى النوم عيني

---

(١) سورة **السجدة**، الآية ١٦.

فحاولتُ عبثًا أن أرسم على الدمع صورة وجهك الكريم

وكلّما أجلسني طائر الفكر لكتابة الشعر بحقّك

سرعان ما تهرب الكلمات منّي ولا أتمكن من نطقها

فأوقعته في كمين خصال شعرك الجميل

وبدأتُ أنظم قصيدةً في هواك»[1].

نعم إنّ عباد الله السالكين في طريق معرفته يتمكّنون بواسطة الرياضة والتمرين والمواظبة على ذكر الله من إبعاد شهوات النفس ورغباتها عنهم، ويحيون قلوبهم بذكر الله، ويجافي النوم عيونهم من شدّة حُبِّهم وتعلّقهم بمعبودهم، ويجهشون بالبكاء وتنهمر الدموع من عيونهم حزنًا وألمًا على فراق المحبوب.

وفي مقدّمة هؤلاء الأولياء وخاصّة عباد الله نبي الله شعيب عليه السلام، الذي لم يكن قلبه يهدأ لحظةً واحدةً، وكان يبكي باستمرار من لوعة فراق المحبوب، حتى جاء في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بكى شعيب من حُبّ الله عزّ وجلّ حتّى عمي، فردّ اللهُ عزّ وجلّ عليه بصره، ثم بكى حتّى عمي، فردّ اللهُ عليه بصره، ثم بكى حتّى عمي، فردّ اللهُ عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحى اللهُ إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبدًا مِنك؟ إن يكن هذا خوفًا من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقًا إلى الجنّة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيّدي أنت تعلم أني ما بكيتُ خوفًا من نارك ولا شوقًا إلى جنّتك، ولكن عقد حُبّك في قلبي فلستُ أصبر أو أراك،**

(١) ترجمة لسعر فارسي من ديوان حافظ السيرازي.

فأوحى الله جل جلاله إليه: أمّا إذا كان هكذا، فمِن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران»[١].

إن من المُسلَّم أن فقيهًا مثل آية الله الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ مع مكانته العلمية وسعة فكره، كان يسعى دائمًا لكسب رضا الله تعالى؛ لذا كان يجتهد في اهتماماته العلمية كالبحث والتدريس، لكنّه لم يكن يغفل لحظةً واحدةً عن عبوديته لله تعالى، وشفاهه تتمتم دائمًا بذكر الله تعالى، وبعد أن ينهي عبادته الشاقّة، ويجنّ عليه الليل تجده مضطربًا لا يهدأ له بال، ولا يغمض له جفن شوقًا للقاء محبوبه، فكان يجهش بالبكاء فتنهمر دموعه حزنًا على فراق مولاه.

فمثل هذا الإنسان يذكر الله حتّى في نومه، كما أن الله تعالى لن يجعل مثل هذا العبد يغفل عن ذكره حتّى وهو في تلك الحال.

الله تعالى يُلهِمُ عباده ذِكره

إن أهل الدعاء والعبادة والعبودية لله تعالى، لا يفترون عن ذكر الله ولا يغفلون عنه لحظةً واحدة؛ لأنه سبحانه يعتني بهم دائمًا، فما أن يواجهوا بعض الموانع والمعوقات الدنيوية التي تحاول إشغال ذهنهم عن ذكر الله، حتى يزيلها عن طريقهم، فيمنع وقوعهم في الغفلة ويُعيدُهم إلى ذكره مرّةً أخرى.

فالخواص من عباد الله ممن يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بربّهم، ما أن يقتربوا من الغفلة عن ذكره تعالى حتّى تصلهم إشارات كافية تنبّههم وتُعيد قلبهم إلى ذكر الله، أما أولئك الذين تضعف علاقتهم بالله، فإنه

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ١٢، الباب ١١، الصفحتان ٣٨٠ - ٣٨١، الحديث ١.

يُرسلُ إليهم إشارات أكثر قوّةً وتأثيرًا، كتعرّضهم لبعض أنواع البلاء مثل المرض والفقر والفاقة حتّى يعودوا من غفلتهم ويتذكروا ربّهم من جديد.

وعلى كل حال، فعندما يكون المرء من أهل العبادة وطاعة الله، ويتعرّض لبعض الموانع التي توقعه في الغفلة عن ذكره سبحانه، فسُرعان ما يُلهمه الله العودة إلى ذكره؛ ولهذا قال الإمام السجّاد عليه السلام في المقطع التالي من المناجاة:

«إِلَهي فَأَلهِمْنَا ذكِرَكَ فِي الْخَلاء وَالْمَلاء وَاللَّيْلَ وَالنَّهارِ وَالإعلانِ وَالإِسْرارِ وَفي السَّراءِ وَالضَّراءِ، وآنِسْنَا بِالذِّكرِ الخَفِيّ وَاسْتَعْمِلنا بِألعَمَل الزَّكيِّ والسَّعيِ المَرضيِّ وجَازِنا بِالميزان الوَفِيِّ».

فالإنسان لا يتسنّى له الأنس بالذكر اللفظي، خاصّةً إذا ما كان بين الناس أو كان يؤدّيه لعادة يومية؛ لأن الأنس بالذكر يحصل عندما يتوجّه الإنسان إلى ربّه من أعماق قلبه، ويذكره في خلوته بعيدًا عن أعين الناس. وإذا ما أخذ الإنسان يأنس بارتباطه بالله تعالى عن طريق الرياضة والتمرين الشاقّ والذكر المتواصل، فإنه سيشعر بالحزن والألم إذا ما غفل لحظةً واحدةً عن ذكره تعالى، وأما الشخص الذي لم يصل إلى مرحلة الأنس بالله فلا بد أن يهيئ الظروف اللازمة ويجد في نفسه الاستعداد الكافي لترديد بعض الأذكار مثل «**سبحان الله، الله أكبر، والحمد لله**»، فإذا ما أنس بذكر الله فلن يتمكّن بعدها من تركه أو الغفلة عنه، وستبقى شفاهه تتمتم بذكر الله دائمًا، وسيبقى قلبه مُفعمًا بحُبّ ذكره تعالى،

وسيشعر بالحزن والألم الشديد إذا ما انشغل لأي سبب كان عن ذكر الله عزّ وجلّ.

كما لا بد أن يُدرك الإنسان حقيقة أن تقدير جميع الأمور بيد الله تعالى، فهو الوحيد القادر على جذب قلبه إليه، وأن يُحييه بنور هدايته وجمال ذكره، وهو الذي يمنّ على هذا الإنسان بنعمة الأنس بذكره ومناجاته.

المقال السادس والخمسون
مظاهر ذكر الله وآثاره

«إلهي بِكَ هامَتِ الْقُلُوبُ الْوالِهَةُ، وَعَلى مَعْرِفَتِكَ جُمِعَتِ الْعُقُولُ الْمُتَباينَةُ، فَلا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إلّا بِذِكْراكَ، وَلا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلّا عِنْدَ رُؤْيـاكَ، أَنْتَ الْمُسَبَّحُ فِي كُلِّ مَكان، وَالْمَعْبُودُ فِي كُلِّ زَمان، وَالْمَوْجُودُ فِي كُلِّ أَوان، وَالْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسان، وَالْمُعَظَّمُ فِي كُلِّ جَنان».

الجملة الأولى في هذا المقطع من المناجاة تبيّن قمة العواطف والمشاعر الإنسانية في محبّة الله تعالى، في حين تبيّن الجملة الثانية أن لكل العقول المتباينة نصيبًا من معرفة الله تعالى، فقد خلق الله العقل قادرًا على معرفته؛ لهذا يحظى كل عقل بمرتبة دنيا - على الأقل - من معرفة الله. وهذا المقطع من المناجاة يظهر لنا مفهومين مختلفين: الأول يرتبط بالعواطف والمشاعر الإنسانية ويظهر في كلمات مثل «الهيام» و«الوله»، والمفهوم الثاني يظهر من خلال كلمات مثل «النفس» و«القلب» و«العقل» وهي تعبّر عن هوية الإنسان وحقيقته وتمثّل مركز العواطف والمشاعر الإنسانية ومصدر الإدراك والمعرفة.

حقيقة الإنسان وهويّته، نفسهُ وروحهُ، وهي حقيقة ثابتة ودائمة، حيث تحافظ على ثباتها وبقائها رغم التغيرات المتعاقبة التي تطرأ على جسم الإنسان، وهي الحقيقة نفسها التي نعبّر عنها بكلمة «أنا» والجسمُ أداتها. وعلى ضوء ذلك، فإنه حتى لو كان أحدنا في ظروف خاصّة لا يلتفت فيها إلى جسمه وأعضائه وشكله، إلا أنه يُدرِك وجوده المتمثّل بنفسه وروحه. وعن مسألة إدراك النفس بعيدًا عن كل ما يرتبط بها؛ أي إدراك النفس في الفراغ المطلق، يقول ابن سينا: «ولو توهّمت أن ذاتك قد خُلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة، وفُرض أنها على جملة من الوضع والهيئة لا تبصر أجزاءها ولا تتلامس أعضاؤها؛ بل هي منفرجة ومعلّقة لحظةً ما في هواء طلق، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت إنيّتها»[١].

إذًا فالجسم وأعضاؤه لا يمثّلون هوية الإنسان وحقيقته، ونحن عندما نتحدّث عن النفس وعن الـ«أنا» لا نقصد منهما التعبير عن جسمنا؛ لأن هذا الجسم في حالة تغيّر دائم وتحوّل مستمّر، لكن رغم كل هذا التغييرات نجد أن ما يعبّر عن هويّتنا وحقيقة نفسنا يبقى ثابتًا لا يطرأ عليه أي تحوّل وتغير. فحقيقتنا هي تلك النفس والروح التي تمثّل مصدر المشاعر والإدراك والعواطف، أما الجسم وعناصر وجودنا المادّية فتكون فاقدةً لهذه المشاعر والعواطف وتعجز عن الإدراك، وليست سوى وعاء مادّي يضمّ هذه الروح والنفس حتى نتمكّن بواسطته من تنفيذ إرادتنا وقراراتنا.

---

(١) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، الجزء ٢، النمط الثالث، الصفحة ٣٤٣.

ولذا فعندما نقول «أنا» فإنّا لا نقصد بها الإشارة إلى جسمنا، بل نعني بها النفس والروح التي تمثّل هوية الإنسان، والجسم ليس سوى وعاء مادّي لتلك النفس. طبعًا، يحتاج هذا الموضوع إلى بحث مفصّل ضمن مباحث علم النفس، حيث يُطرح السؤال التالي: إضافةً إلى الروح، هل يوجد شيء غير مادّي آخر باسم «النفس» أم أن كلاهما يعبّران عن حقيقة واحدة؟

فنحن عندما نقول: أنا أقرّر، أنا أفكّر، أنا أحب، أنا أغضب، أنا أخاف، فنحن نقصد بهذه «الأنا» الروح التي ننسب إليها هذه الأفعال والصفات وغيرها من الخصال. كذلك استعمل القرآن الكريم كلمة «النفس» وكلمة «الـروح» إلى جانب كلمات «القلب» و«العقل» وغيرها من الكلمات المشابهة لهما، وقد بحث علماء اللغة والتفسير معنى كل واحدة من هذه الكلمات وشروط وموارد استعمالها.

ومن الواضح جدًّا أن ما نقصده بالنفس في هذا البحث وفي مناجاة الإمام السجّاد عليه السلام هو ماهيّتها الفلسفية، أما الاصطلاحات الأخرى نظير النفس الأمّارة والنفس المطمئنة التي لها ماهيّة أخلاقية وتُطرح ضمن مباحث علم الأخلاق، فتُطلق على بعض الصفات الأخلاقية للنفس والروح. كذلك كلمة «القلب» لا تعني ذلك العضو الكمّثري الشكل الموجود في جسم الإنسان، بل يستعمل في القرآن الكريم والأحاديث والعرف للتعبير عن الإحساس ببعض صفات النفس والروح التي ترتبط بأمور مثل الحب، الرغبة، الإرادة، الكره، والعداوة.

واستُعملت كلمة «الفؤاد» في اللغة العربية والقرآن الكريم إلى جانب كلمة «القلب» للتعبير عن الإحساس بهذه الصفات أيضًا، ونظرًا للترادف والاشتراك في المعنى بين كلمتي «القلب» و«الفؤاد» فقد نسبوا

الرؤية لكليهما، حيث أشار القرآن الكريم إلى رؤية الفؤاد في قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[١]، واستعمل القرآن الكريم كلمة الفؤاد في قصّة أم موسى عليه السلام عندما أمرها الله تعالى أن تُلقي موسى في البحر حتى ينجو من بطش عدوّه، وأوحى لها أن تطمئنّ على ولدها ولا تخف عليه، لأنه سيُعيده إليها مرّةً أخرى، وسيجعله من المرسلين... بعدها قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

ويعبّر أحيانًا عن النفس - بحسب بعض مراتب الإدراك - بكلمة «العقل»، وتُنسب بعض إدراكات النفس إلى «العقل» الذي يُعدّ أحد شؤون النفس، لكن القرآن الكريم نسب التعقّل والإدراك إلى القلب أيضًا، كقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[٣]. ويحتاج هذا الموضوع إلى بحث مستقل في محله، وهل أنّ العقل والقلب يُعتبران ضمن قوى النفس أم شأنًا من شؤونها؟ فكما هو المعروف بين الحكماء [حكماء الحكمة المتعالية] فالعقل ليس قوّةً مستقلّة، بل هو من شؤون النفس، كذلك القلب لا يمكن أن يكون قوّةً مستقلّةً أيضًا؛ لأنهم ينسبون إليه استعمالات مختلفةً تتفاوت في ماهيّتها، بعضها انفعالات والأخرى أفعال.

وبعبارة أخرى: يمكن أن يعبّر القلب عن النفس ذاتها من جهةِ ما يُنسب إليه من إدراكات ومشاعر وعواطف إنسانية؛ بل نسب إليه القرآن الكريم قدرة الاختيار والانتخاب أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا

---

(١) سورة **النجم**، الآية ١١.
(٢) سورة **القصص**، الآية ١٠.
(٣) سورة **الحج**، الآية ٤٦.

يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[1].

مظاهر محبّة الله وأوليائه الصالحين

قلنا إن القلب يمثّل مركز المشاعر والأحاسيس والعواطف، وهي موجودة عند الحيوانات أيضًا؛ لكنّها أقلّ شدّةً وتنوّعًا مما هي عليه عند الإنسان. والحُبّ أحد هذه العواطف التي يتّصف بها الإنسان، حيث عادة ما يُحبّ الإنسان الأشياء والأفراد الذين يلائمون طبعه وسلوكه، ويتعلّق بهم تعلّقًا شديدًا. فعندما يقول الإنسان إنه يُحبّ هذا الشراب أو هذا الغذاء أو هذا العلم ويشعر بالراحة واللذّة به، فهذا يعني أنها تُناسب طبعه وتتلائم مع سلوكه، ولأنه يرى رغبةً في نفسه بهذه الأشياء، سيعمل على تهيئتها وتوفيرها. وللمحبّة مراتب طولية، يقع «الهيام» و «الوله» في قمّة هذه المراتب، حيث يعبّر «الوله» عن الحيرة الناشئة عن شدّة الحُبّ، أما الهيام فيُطلق على مرتبة المحبّة التي تجعل الإنسان مضطربًا ومجنونًا من شدّة عشقه وحُبّه لمعشوقه، وينسى فيها العاشق نفسه ويحوّل جلّ اهتمامه نحو معشوقه، ويقدّم كل وجوده وفكره رخيصًا أمام معشوقه.

وقد وَرَدَتْ في نصوصنا الدينيّة وخاصةً الأدعية والمناجيات أعلى مراتب المحبّة نظير «الهيام» و«العشق» للتعبير عن شدّة ارتباط العبد بربّه، ثم استُعملت لوصف علاقة العبد بأولياء الله أيضًا.

وتختص ثقافة الشيعة بشدّة الحُبّ لأهل البيت عليهم السلام وعشقهم، حتّى وصلت شدّة تعلق بعض الأفراد وحبّهم لأهل البيت عليهم السلام إلى

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٥.

درجةٍ كانوا معها على استعداد للتضحية بأرواحهم على طريق محبّتهم والتمسّك بهم.

ويمثّل نبي الله إبراهيم عليه السلام مظهرًا تامًّا وكاملًا من مظاهر عشق الله تعالى، وعندما اختاره الله خليلًا له، قالت الملائكة بعضها لبعض: اتخذ ربّنا من نطفة خليلًا، وقد أعطاه مُلكًا عظيمًا جزيلًا، فأوحى الله تعالى إلى الملائكة أن اعمدوا على أزهدكم ورئيسكم، فوقع الاتفاق على جبرئيل وميكائيل فنزلا إلى إبراهيم في يومِ جمْع غنمه، وكان لإبراهيم عليه السلام أربعة آلاف راعٍ وأربعة آلاف كلبٍ في عُنق كل كلب طوق وزن من ذهب أحمر وأربعون ألف غنمة حلابة وما شاء الله من الخيل والجمال، فوقف المَلَكان في طرفي الجمع فقال أحدهما بلذاذة صوت: سبّوح قدّوس، فجاوبه الثاني: ربّ الملائكة والروح، فقال: أعيداهما ولكما نصف مالي، ثم قال: أعيداهما ولكما مالي وولدي وجسدي، فنادت ملائكة السماوات: هذا هو الكرم هذا هو الكرم، فسمعوا مناديًا من العرش يقول: الخليل موافق لخليله[1].

وتتحقّق مرتبة أدنى من هذه المحبّة في العلاقة مع أولياء الله الصالحين، حيث سمعنا عن علاقة بعض الأفـراد بأهل البيت عليهم السلام وعشقهم ومحبّتهم لهم، خاصّةً حُبّهم للإمام الحسين عليه السلام، بحيث يصل حبهم إلى درجة عندما يأتي ذكر اسمه عليه السلام أمامهم، يشعر واحدهم بالسرور والاطمئنان كأن أحدًا قدّم له هديةً عظيمةً لا نظير لها. فهذا التعلّق يعتبر أحد خصال روح الإنسان بحيث عندما تتعلّق بحب شخصٍ أو شيء ما تكون مستعدّةً للتضحية بكل وجودها في سبيله،

(١) محسن الفيض الكاساني، **التفسير الصافي**، الجزء ٢، الصفحة ٣٢٥.

وتشعر بالنشوة والهيام ما إن تسمع باسم محبوبها، فكيف بحالها إذا ما رأته حاضرًا أمامها وأنست بقربه؟ وتُشير الكثير من النصوص الدينية كالأدعية والمناجيات إلى وجود الكثير من هذه الحالات التي ترد على أهل البيت عليهم السلام نتيجة ارتباطهم بالله تعالى، ومنها علاقة أمير المؤمنين عليه السلام بالله سبحانه حيث بلغتْ شدّة عشقه لله تعالى درجةً يغشى عليه معها عند وقوفه بين يدي حضرته قائمًا في الليل يدعو ربّه ويناجيه.

وقد يتصوّر البعض أن مثل هذه الحالات إنما تحصل بسبب الخوف من عذاب الله فحسب، في حين أن أغلب هذه الحالات تحصل عند أولياء الله لشدّة عشقهم بالله تعالى وشوقهم للقائه والأنس بمناجاته، غير أنّ كثيرًا من الناس لا يعلمون ولا يفهمون أن العاشق لله تعالى يمكن أن يفقد صوابه من شدّة العشق ويصاب بالحيرة والهيام والذهول عن نفسه وما حوله، فما بال هؤلاء الناس يصدّقون الحيرة وفقدان الوعي التي تصيب الإنسان من شدّة خوفه من عذاب الله، لكن يتعجّبون من حال الإنسان عندما يفقد صوابه ووعيه لشدّة عشقه ومحبّته لله تعالى.

ذكر الله يجلب الهدوء والسكينة للروح، فما هو التحليل الفلسفي والنفسي لهذا التأثير؟

في مقابل حالة التعلّق والعشق والمحبّة، تتعرّض روح الإنسان أحيانًا لحالات من الاضطراب والقلق تسبّب له ألمًا شديدًا. ورغم أن الإنسان لا يحبّذ مثل هذه الحالات ولا يرغب التعرّض إليها؛ إلا أنه لا يستطيع تجنّبها والتخلّص منها بسهوله، حتّى أن شيوع حالة الاضطراب وملازمتها للإنسان دفع بعض الفلاسفة وبالأخص الوجوديين منهم إلى جعلها الصفة الغالبة للإنسان، فعرّفوا الإنسان بأنه «حيوان مضطرب» في مقابل الفلاسفة

الإسلاميين واليونانيين الذين عرّفوه بأنه «حيوان ناطق»، حيث كان الوجوديون يعتقدون أن صفة الاضطراب هي الفصل الحقيقي للإنسان وليس النُطق.

طِبقًا لتعاليم القرآن الكريم ونصوصه يُعدّ ذكر الله تعالى العلاج الوحيد والناجع للتخلّص من هذا الاضطراب والقلق والحيرة، ويبعث في النفس الهدوء والسكينة؛ إذ يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1].

تقع حالة الاطمئنان والهدوء مقابل حالة الاضطراب، وهي لا تُعدّ ضمن مقولة المعرفة؛ بل ضمن المشاعر والأحاسيس. وقد ذكرتْ مباحث علم النفس أن وصول النفس إلى حالة الاطمئنان والسكينة يمثّل هدف علم النفس وغايته. ونظرًا إلى شيوع حالة الاضطراب والقلق بين الناس - حتّى تحوّلت إلى أحد الأمراض الخطيرة التي تُهدّد استقرار البشرية اليوم - أصبحت المهدّئات والمسكّنات من أكثر الأدوية شيوعًا وتداولًا بين الناس، وأكثرها كلفةً، وازدادت في الدول الغربية المستشفيات والمراكز الصحّية المتخصّصة بمعالجة الأمراض النفسيّة وحالات الاضطراب والقلق؛ لكنّهم لمّا عجزوا عن اكتشاف الدواء الناجع للتخلّص من هذا القلق والاضطراب عمدوا إلى إنتاج الأدوية المهدّئة والمسكّنات التي تؤدّي إلى تخدير الإنسان وإفقاده التركيز والإدراك وجعله يفقد شعوره مؤقّتًا ويفقد الإحساس بما حوله.

إن ما يجعل الإنسان يشعر باللذّة هو أن يحظى بدرجة عالية من الفهم والإدراك المصحوب بالهدوء والطمأنينة، ولا يمكن الوصول إلى

---

(١) سورة **الرعد**، الآية ٢٨.

هذه الحالة إلا باتباع تعليمات القرآن الكريم التي تصف لنا ذكر الله كأهمّ دواء لمعالجة حالات الاضطراب والقلق، وتمنح روح الإنسان شعورًا بالهدوء والسكينة.

ثم إن تحقّق الهدوء والطمأنينة بذكر الله يحتاج إلى تحليل فلسفي ونفسي، وأحد هذه التحليلات التي يمكن ذكرها هنا، هي أن روحنا نشطة وفعالة دائمًا وفي حالة حركة دائمة لا تهدأ ولا تسكن، فهي تبحث عن التطوّر والتحوّل والتغيير. كما أن كلمة «الـروح» هي من ضمن مجموعة كلمة «الريح»، ولعل هذا الاشتراك اللفظي يرجع إلى صفة الحركة الموجودة في كليهما، فعندما يُقال إن الروح متحرّكة ذاتًا ومتجدّدة؛ يعني أنها ذاتًا تطلب الكمال ولا تتوقّف أبدًا ما لم تصل إلى قمّة تكاملها.

والإنسان لا يفتأ يطلب أعلى مراتب الكمال والترقّي، والتجربة أثبتت أن كل ما هو محدود لا يمكن أن يُقنع الإنسان، فإذا ما كان طالبًا للثروة والسلطة فلن يتوقّف طموحه عند حدّ معيّن حتّى لو امتلك الكرة الأرضية بأكملها، بل سيفكّر في زيادة ثروته وملكه ويتحرّك للسيطرة على الكواكب الأخرى أيضًا.

إن وجود هذه الرغبة نحو الكمال عند الإنسان، وسعيه المستمرّ لبلوغ مرتبة الكمال المطلق، اعتبره العلماء والحكماء دليلًا على فطرة الإنسان في التوحيد وإثبات وجود الله؛ أي إن الله تعالى بقدرته جعل الإنسان بالفطرة يسعى نحو الكمال، وهذا السعي والرغبة يحفّز الإنسان ويدفعه نحو التطوّر والكمال، لكن مقصد تكامل الإنسان غير موجود في عالم الممكنات، لهذا فمهما بلغت إمكاناته وسلطته وثروته في الدنيا، تراه لا يتوقّف طموحه على هذه الإمكانات المحدودة، وحتى

لو بلغ جميع حدود عالم الممكنات، فلا يروي ذلك عطشه إلى الكمال والتعالي. إن أقصى نقطة في تكامل الإنسان وتعاليه هي عندما يبلغ مقام القرب الإلهي، وإذا ما بلغ الإنسان هذا المقام سيصل حينئذٍ إلى كماله المطلوب، وسيهدأ عندها روعه ويصل إلى حالة من الطمانينة الأبدية الثابتة.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «**وَلا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلّا عِنْدَ رُؤْياكَ**»، أي إن هدف الإنسان وغايته هو رؤية الله ولقاؤه، وبلوغ حالة لا يبقى فيها أيّ حجاب أو غطاء يحول بين الإنسان وربّه. وهذا هو الهدف والغاية التي خُلق من أجلها الإنسان، فإذا ما حقّق هذا الهدف وبلغ هذه الغاية تهدأ روحه وتشعر بحالة من الاطمئنان والسكينة.

ولمّا كان الناس يختلفون في قابليّاتهم الوجودية، فإنهم سيختلفون بالطبع في قدرتهم على الاستفادة من قربهم من الله تعالى ولقائهم به، لكنّهم يشتركون جميعًا في أن هدفهم وغايتهم القصوى هو لقاء الله تعالى وبلوغ مرتبة الكمال بما يتناسب مع قابلياتهم الوجودية.

المقال السابع والخمسون
بحث في حقيقة اللذّة واحتياجات الإنسان

إن التمعّن في حالات أولياء الله وما يشغل فكرهم وما يطلبونه في أدعيتهم من الله تعالى، يخلق في نفس الإنسان حافزًا قويًا للتأسّي بهم والسير على نهجهم، والطلب من الله أن يمنّ عليه بالوصول إلى مثل هذه الحالات. فنحن نطلب من الله في أدعيتنا أشياءً نُدرِك عادةً قيمتها وحاجتنا إليها؛ لأنّنا لو لم نكن نُدرِك ذلك لما سعينا إلى تحقيقها أو الحصول عليها. وعندما نتمعّن في أدعية أولياء الله سنعرف الأمور التي تحظى باهتمامهم وعنايتهم، فنسعى إلى جعل هذه الاحتياجات محور أدعيتنا وأساس طلباتنا من الله تعالى.

ومن الاحتياجات المتعالية التي يسعى أولياء الله إلى تحقيقها، الاحتياجات التي ذكرها الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاة الذاكرين، حيث يقول:

«وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ راحَةٍ بِغَيْرِ أُنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرُورٍ بِغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْلٍ بِغَيْرِ طاعَتِكَ».

في الجملة الأولى من هذا المقطع من المناجاة، يستغفر الإمام ربّه من كل لذّة تنشأ عن غير ذكره عزّ وجلّ، ويسأل الله العفو والمغفرة عنها. وقد عرّف الفلاسفة اللذّة بأنها: إدراك الذات ما يلائمها؛ أي ما يلائم طبع الإنسان، أما الألم فهو: إدراك الذات ما ينافيها؛ أي ما يخالف طبع الإنسان. ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الإنسان يمتلك عدّة قوى نفسية تتطلّب كل واحدة منها تأمين بعض الاحتياجات الخاصّة بها، فإذا تمكّن المرء من توفيرها وتهيئتها فإنه سيشعر بحالة نفسيّة خاصّة يُطلق عليها اسم اللذّة، وهي الحالة التي تنطبق على التعريف السابق، أي إدراك الذات ما يلائمها.

وهذه اللذّة الداخلية تخلق عند الإنسان حافزًا قويًا للتحرّك والسعي لتأمين احتياجاته المادّية والمعنوية وبلوغ مراتب كماله.

وبعبارة أخرى: اللذّة هي من جهة تعبير عن الحافز الذي يخلق النشاط والحركة والسعي الدؤوب في الحياة، ومن جهة أخرى هي ثمرة ذلك النشاط والسعي؛ لأن الحافز يعدّ علّةً غائيةً للسلوك، ومن حيث التصوّر تكون العلة الغائية متقدّمةً عليه، أما من جهة تحقّقها في الخارج فهي متأخرةٌ عنه.

ومن زاوية ثالثة يمكن تعريف اللذّة بأنها نوع من الكمال النسبي للموجودات ذات الشعور والإدراك باعتبارها صفةً وجوديةً، للإنسان الاستعداد اللازم للتحلّي بها[1].

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي، **به سوى خودسازى [نحو تهذيب النفس]**، الصفحه ٨٣.

ويمكن أن تنسب اللذّة إلى الله أيضًا؛ لكنّها تكون حينئذٍ لذّةً متكاملةً خاليةً من كل نقص أو عيب؛ لأن الذات الإلهية كمال مطلق ولا متناهٍ ومبرّأ من كل نقص وعيب. فإذا ما اعتبرنا اللذّة نوعًا من الكمال الوجودي للمُدرِك وجرّدناها من كل نقص وعيب، ساعتئذٍ يمكن نسبتها إلى الله تعالى. ولكن بالنسبة إلى الله تعالى لا يوجد تعدّد بين الذات الإلهية المتلذّذة وبين الشيء الذي تلتذّ وتبتهج به؛ فإن الذات الإلهيّة المقدّسة متلذّذة بذاتها من ذاتها، لا بشيء خارج عنها، وإن رجّح العلماء التعبير في مورد الذات الإلهية باصطلاح «البهجة» ومشتقّاتها بدلًا من «اللذّة»، فمثلًا يقولون إن الله تعالى مبتهج بإدراك ذاته.

وما نستنبطه من الآيات والروايات هو أن الملائكة تلتذّ هي الأخرى بما يتناسب مع وجودها، فهي تلتذّ بعبادتها لله تعالى؛ أي إن الله خلق الملائكة على نحو يجعلها منشغلةً دائمًا بعبادته والتلذّذ بهذه العبادة. وفي هذا المورد يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وإنَّ لله ملائكةً رُكّعًا إلى يومِ القيامَةِ، وإنَّ للهِ مَلائكةً سُجّدًا إلى يومِ القيامَة**»[1]، كذلك يقول تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[2].

والحيوانات أيضًا لديها نوع من اللذّة تشبه تلك الموجودة عند الإنسان؛ لذلك نراها تتصرّف كالإنسان عندما يسعى لتأمين احتياجاته الطبيعية. فكما يلتذّ الإنسان بالأكل والشرب، تلتذّ الحيوانات كذلك بأكلها وشربها، وعندما تتناول غذاءها أو شرابها تُظهر سلوكًا معيّنًا يشبه سلوك الإنسان نفهم منه أنها تلتذّ بهذا الغذاء والشراب. وعندما يُقدم أحد على

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٥٩، الباب ٢٣، الصفحة ١٧٤، الحديث ٤.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ٢٠.

إيذائها تُظهر ردود فعل معيّنة بإحداث نوع من الضوضاء والصوت العالي واتخاذ سلوك دفاعي يُظهر شعورها بالألم والأذى.

ما هي الحكمة من وجود اللذّة، وما هو التطوّر التدريجي للشعور بها؟

إذا ما سأل أحد: لماذا جعل الله تعالى اللذّة عند كل موجود مُدرِك؟ فللإجابة على هذا السؤال لا بد من القول: لا شكّ في أن وجود أنواع اللذّة عند الموجودات ذات الإدراك والشعور لا يخلو من حكمة وسبب، وأحد هذه الأسباب والحكم هي أن الموجودات الحيّة ذات الإدراك والشعور تحتاج إلى توفير مجموعة من الأشياء اللازمة لبقائها واستمرارها في الحياة، وما لم تشعر هذه الموجودات باللذّة عند تأمين هذه الاحتياجات فإنها لن تجد في نفسها الحافز القوي لتأمينها والحصول عليها، وبالتالي لن ترتفع حاجتها لهذه الأشياء. فمثلًا، إذا فقد الحيوان الجائع الشعور بهذا الجوع بنقص الغذاء، ولم يشعر باللذّة عند الأكل، فإنه لن يجد الحافز الكافي للسعي في تأمين الغذاء اللازم لبقائه.

ونحن أيضًا إن لم نشعر بالجوع، أو لم نشعر باللذّة عند الأكل لرفع النقص الحاصل في الغذاء، لن نجد الحافز الكافي لتأمين الغذاء وتناوله لرفع النقص الحاصل نتيجة الجوع، فلولا وجود الشعور بالجوع وبالألم الناشئ عنه، والشعور باللذّة عند الأكل لرفع هذا الجوع، لما تذكّر الكثير منّا ضرورة تهيئة هذا الغذاء وتناوله، وبالتالي نفقد القدرة على الاستمرار بالحياة. ولولا وجود أنواع اللذّة الحيوانية في أنفسنا، لاختلّت حياة الإنسان، ولتوقّف نشاطه وحركته وفعاليّته؛ لأن معظم نشاطات الإنسان ترتبط بتحصيل لذّة البطن وغيرها من اللذائذ الحيوانية.

وعلى كل حال، فالحكمة الإلهيّة من خلقِ موجود يشعر بأنواع النقص والحاجة ويسعى لرفعها، تقتضي أن يشعر هذا الموجود بالألم لوجود هذا النقص، وأن يشعر باللذّة والراحة إذا ما تمكّن من رفع هذا النقص وتأمين ما يحتاجه جسده للاستمرار في حياته.

ولا شكّ في أن الإنسان يشعر بأنواع من اللذّة، تختلف بحسب قواه النفسية والفكرية، بحيث يشعر بلذّة خاصّة تتناسب مع كل واحدة من قواه وإدراكاته. ونظرًا إلى تطوّر قوى الإدراك عند الإنسان وتكاملها تدريجيًا، يمكن أن تتكامل قوّة معيّنة عند إنسانٍ ما، بينما لا تكون واصلةً بعدُ إلى قمّة تكاملها عند إنسان آخر، وبالتالي يزداد إدراك الإنسان لأنواع اللذّة تدريجيًا بما يتناسب مع درجة تكامل قواه وقابلياته[1].

وإذا ما بحثنا في أنواع اللذّة التي يشعر بها الإنسان في حياته، نكتشف أن أوّل لذّة يشعر بها هي تلك اللذّة الناشئة عن رضاعته حليب أمّه عند ولادته؛ فالحاجة الشديدة إلى الغذاء تعتبر أولى احتياجات الإنسان وأهمّها. فالطفل عند ولادته يحتاج إلى حليب أمّه حتى يستمرّ في الحياة؛ لهذا يجد لذّةً عندما يحصل على هذا الحليب لرفع حاجته إلى الغذاء والتخلّص من الجوع.

كذلك أثبتت الأبحاث والتحقيقات الخاصّة بعلم النفس، أن الطفل يشعر بلذّة كبيرة عندما ينام في حضن أمّه ويشعر بعناقها وحنانها.

وعندما يكبر هذا الطفل تدريجيًّا تظهر لديه احتياجات أخرى، منها حاجته للهو واللعب، خاصّةً بألعاب الأطفال، فيشعر بلذّة قويّة بهذا اللعب واللهو تصل إلى درجة ينسى معها شعوره بالجوع وحاجته إلى

(١) محمد تقي مصباح اليزدي، **به سوى خودسازى**، الصفحة ٨٣.

الغذاء، مما يعني أنّ لذّة الإنسان باللعب واللهو تفوق في هذه السن لذّته بالأكل والشرب.

وطبقًا لهذه التحقيقات، فإن السبب في هذا التغيير هو أن النموّ الفكريّ والذهنيّ للطفل يحصل بوتيرة أكبر نتيجة اللعب واللهو، فما لم يلعب الطفل بشكل كافٍ فإن دماغه لن يحصل على الوقت الكافي للنمو والتكامل، وسيتأخَرّ نمو قواه العقلية والفكرية.

إذًا، فالله تعالى جعل في الطفل الحاجة والرغبة في اللعب واللهو كيما يشعر باللذّة عندما يلعب بألعاب الأطفال وباللعب مع أقرانه، وبالتالي يزيد من سرعة نمو قواه العقلية وتطوّرها، فلو كان الطفل في سنٍ خاصّة يحتاج إلى اللعب واللهو حتى يتمكّن من تأمين احتياجاته الطبيعية، لكنّه نسي ذلك وبدلًا عن اللعب واللهو استمر على عادته السابقة في وضع الملهاة في فمه ومصّها، ورفض ترك هذه العادة مهما حاول والداه صرفه عنها، وظل يشعر باللذّة معها، [لكان مؤدى ذلك تفويت فرصة تأمينه لتلك الاحتياجات]، لكن ليس من شكّ في أنّ هذه اللذّة الناشئة عن هذه العادة ليست طبيعية ولا تتناسب مع حاجته في هذه السن؛ بل هي ناشئة عن عادته السابقة، وما أن ينمو عقل هذا الطفل وفهمه حتى ينتبه لهذه العادة السيّئة فيخجل منها، وعندما يرى الآخرين يلومونه عليها ويسخرون منه بسببها، يظهر عنده نوع من الصراع الداخلي الذي ينتهي بتركه لها.

وكلّما نما الطفل تدريجيًا ظهرت لديه احتياجات جديدة، وشعر باللذّة كلّما تمكّن من تأمين هذه الاحتياجات، ومن هذه الاحتياجات رغبته في الاستقلال، حيث اهتمّ علماء النفس ببحث ومناقشة هذه الحاجة النفسية. وتبعًا لهذه الرغبة في الاستقلال لا يسمح الطفل

للآخرين وضع الغذاء في فمه، ويحاول أن يتناول غذاءه بنفسه دون مساعدة الآخرين، حيث يشعر بلذّة كبيرة عندما يمسك الملعقة بيده ويضع الغذاء في فمه.

فبواسطة هذا الشعور الروحي والنفسي يشعر الطفل بحاجته ليكون مستقلًا، وأن لا يعتمد على الآخرين في إطعامه؛ بل يشعر أنه يجب عليه الاعتماد على نفسه في تناول الغذاء ورفع حاجته الشديدة له، رغم أنه في البداية سيشعر بصعوبة في الأكل، فيقع الأكل من فمه وتتّسخ ملابسه وما حوله بفتات الطعام.

كذلك الحال عندما يحاول الوالدان الأخذ بيد طفلهم ذو الأربع سنوات لمساعدته في عبور الشارع، فنراه يحاول إفلات يده منهما والسعي لعبور الشارع بمفرده؛ لأنه يرفض أن يمسك أحد يده ويساعده في عبور الشارع، وحينئذٍ سيشعر باللذّة عندما يستطيع السير لوحده دون مساعدة الآخرين.

كما أنّ من الاحتياجات النفسية الأخرى التي تظهر عند الطفل، حاجته للتشجيع والمدح، حيث نرى الطفل يسعى إلى جذب انتباه الآخرين بسلوكه وتصرّفاته الغريبة وإحداث الفوضى حتى يحصل على تشجيع الآخرين، وبالتالي يرفع هذه الحاجة عنده. فالسبب الأساسي وراء تصرّفات الطفل الخاطئة والغريبة هو رغبته في جذب انتباه الآخرين وحاجته إلى التشجيع، لكن ضعف قدرته على تشخيص الصواب من الخطأ، يجعله لا يميّز بين السلوك الصحيح والخاطئ.

وعلى كل حال، فإن الإنسان وأثناء مراحل نموه وتكامله تظهر لديه احتياجات جديدة، ويشعر باللذّة عند تلبيتها ورفعها. بعض هذه الاحتياجات حسّية ومادّية وهي معروفة لدينا جميعًا، وكلّما تمكّن المرء من تلبية هذه الاحتياجات بواسطة قواه وأعضائه الحسّية، شعر بلذّة تتناسب مع كل قوّة من قواه الحسّية.

فمثلًا، نحن عندما نشعر باللذّة لسماعنا صوتًا جميلًا، فهذا يعني أن هذا الصوت قد أدركته قوّة السمع لدينا، وهو يناسبها ويتلاءم مع طبيعتها. والسبب في عدم شعورنا باللذّة بواسطة أعيننا عند سماعنا الصوت الجميل؛ هو أن العين لا تُدرِك الأمواج الصوتية، فضلًا عن أن يكون بينهما تلاؤم وانسجام. وعلى ضوء ذلك، ففي كل ارتباط بأي لذّة كانت إذا لم يكن للإنسان حسّ يتناسب مع تلك اللذّة، فإنه آنذاك سيعجز عن إدراكها، فلو لم يكن للإنسان عين يُبصر بها، فإنه لن يشعر باللذّة الناشئة عن البصر[١].

والمجموعة الأخرى من احتياجات الإنسان وأنواع اللذّة التي يشعر بها عند تلبية تلك الاحتياجات ورفعها، هي احتياجات روحيّة ونفسيّة، وقد بحث علماء النفس بمختلف مدارسهم هذه الاحتياجات.

وكما ذكرنا، فإن بعض الاحتياجات تظهر عند الإنسان منذ ولادته كحاجته إلى الغذاء، والبعض الآخر منها يظهر تباعًا بما يتناسب مع مراحل نموّه وتطوّر قابليّاته. وبعض هذه الاحتياجات مؤقّت وموسمي يظهر في مرحلة معيّنة من حياة الإنسان، وبعضها الآخر دائمي يستمرّ

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي، **به سوى خودسازى**، الصفحة ٨٦.

مع الإنسان طيلة حياته، مثل حاجته إلى الغذاء التي تستمرّ معه حتى نهاية حياته؛ لأن الغريزة التي ترتبط بهذه الحاجة تبقى فعّالةً إلى نهاية العمر.

وكما قلنا فإن اللعب بألعاب الأطفال والدمى يرتبط بمرحلة الطفولة، حيث يُظهر الطفل حتى العاشرة من عمره رغبةً بهذا النوع من الألعاب، ثم ينتقل بعد ذلك إلى نوع آخر من الألعاب تتناسب مع عمره؛ فمثلًا يُبدي الأولاد رغبةً بلعب كرة القدم، ويعتبرون ألعاب الأطفال دون شأنهم ولا تليق بعمرهم. فلو أظهر الطفل - بعد تجاوزه مرحلة الطفولة - رغبةً في اللعب بألعاب الأطفال والدمى، فسيُعتبر هذا السلوك ناشئًا عن العادة ومنافيًا لطبيعته ودليلًا على وجود نقص نفسي وتربوي في شخصيّته؛ لأن عقل الإنسان عندما يجتاز بعض مراحل التطوّر والتكامل، يكون من الطبيعي أنه يُقدِم على أفعال لا تتناسب معه، وإذا ما خالف طبيعته وتأثّر بعادة سيّئة عنده ومارس هذه الأفعال، فسرعان ما يخجل منها ويعتذر إلى الآخرين عنها.

وبالطبع، يتولّى علماء النفس مهمّة تشخيص أنــواع اللذّة والاحتياجات الفصلية والموسمية وتعيين مرحلتها الزمنية، لكن من الواضح أن الإنسان عندما يجتاز بعض مراحل نموّه وتكامله العقلي والفكري، فإنه يرى أنّ بعض هذه اللذائذ لا تليق بشأنه ولا تتناسب مع عمره. فالشخصية الاجتماعية المرموقة لا تمارس عملًا بسيطًا يتناسب مع الطبقات الفقيرة في المجتمع؛ لأنه يرى هذا العمل لا يليق بشأنه ومكانته في المجتمع.

ورغم أن الإسـلام يحترم كل عمل شريف، إلا أن تقييم المجتمع يختلف باختلاف نوع العمل، فعمل عامل النظافة في الأزقّة والشوارع،

لا يمكن أن يتساوى مع عمل القائم مقام أو غيره من المسؤولين في المدينة، بل يعتبرون عمله أقلّ شأنًا وقيمة.

ضرورة أن يتناسب تعلّق الإنسان بالأشياء مع شأنه وشخصيّته

إن صاحب الشخصيّة الاجتماعية المرموقة لا يستطيع أن يمارس عملًا بسيطًا يناسب الطبقات الفقيرة في المجتمع، ويعتبره عملًا لا يليق بشأنه ومكانته الاجتماعية، ويخجل من إضاعة وقته في ممارسة هذا العمل. كذلك هو الحال بالنسبة لأولياء الله ممن تسنّموا المراتب العالية من المعرفة الإلهية، وتذوّقوا طعم الارتباط بالله تعالى، فهولاء يرون أن السعي وراء تحصيل بعض اللذّات المادّية لا يليق بشأنهم ومعرفتهم. وما أداؤهم لبعض أعمالهم اليومية العادية إلا إطاعة لأوامر الله وحسب ما تقتضيه الضرورة، وليس لتحصيل اللذّة المادّية. فكما يخجل الطبيب أو كل شخصيّة مرموقة في المجتمع من اللهو بألعاب الأطفال أو اللعب بالدمى، كذلك المتديّنون ممّن ترقّوا أعلى مراتب الإيمان والمعرفة يخجلون من ممارسة بعض الأعمال التي نعتبرها أعمالًا مهمّةً ومحترمةً بالنسبة إلينا، لأن تلك الأعمال في نظرهم والسعي لتحصيل الكثير من احتياجاتنا تعتبر أعمالًا طفولية لا تليق بشأنهم.

فالشخص الذي وصل إلى مرتبة عالية من معرفة الله، وأمكنه الارتباط بالله والوصول إلى مقام قربه، يرفض أن يتعلّق ببعض الرغبات المادّية كشراء المنزل الواسع والسيّارة الفارهة وغيرها من وسائل الرفاه والراحة، ويعتبر التعلّق بمجموعة من الحجارة أو قطعة من الحديد عملًا طفوليًّا وأمرًا تافهًا لا يليق بشأنه ومكانته الاجتماعية والدينية. فهل يمكن لشخص يسعى لجعل قلبه نابضًا بمعرفة الله ومحبّته، أن يكون مستعدًّا لاستبداله بمحبّة عدد من الحجارة أو قطعة من حديد؟

كان أحد العلماء يقول إن قلوب معظمنا ليست سوى اصطبلٍ للأحصنة والحمير أو موقفٍ للسيّارات؛ إذ كان الناس في السابق يستفيدون من الأحصنة والحمير في تنقّلاتهم وأعمالهم، فجعلوا قلوبهم اصطبلًا لتجمع مثل هذه الحيوانات لشدّة تعلقهم بها، والساعون اليوم وراء تحصيل السيّارات الحديثة الفارهة المتعلّقون بها إلى درجة يخشون معها أن تتعرّض لخدش بسيط، هم في الواقع جعلوا قلوبهم كموقف لهذه السيّارات.

إدراك لذّة ذكر الله ونبذ اللذائذ المادّية

ينبغي علينا أن نراجع أنفسنا ونراقبها، ونرى أنّ تعلّقها في أي شيء، وعلينا أن نعي أن قيمتنا لا تساوي أكثر من هذه الأشياء التي تعلّقت بها قلوبنا. فالإنسان الذي نال مراتب عُليا من معرفة الله وبات يعلم حقائق هذا العالم، وأدرك شأنه ومقامه عند الله، وعلم أن ممارسة بعض الأعمال التافهة لا تناسب الشأن والمقام الذي وهبه الله تعالى إياه، ورأى أن من المؤسف هدر وقته في التفكير والاهتمام بأمور الدنيا التافهة، مثل هكذا إنسان سيشعر بالخجل والألم لانشغاله معظم أيّام حياته في اللهاث وراء تحصيل بعض الأعمال الوضيعة التي لا تليق بمقامه الإنساني، وسيتأسّف على ضياع عمره هباءً.

إن من تذوّق حلاوة ذكر الله ولذّة الأنس به، يُدرِك أن التعلّق بعددٍ من الحجارة أو قطعة من الحديد يبعث على الخجل والألم، ويقتضي أن يستغفر ربّه من هذا العمل.

وجدير بنا أن نعلم أن استغفار أولياء الله من ربّهم ليس لذنب ارتكبوه، فهم مبرّؤون عن ارتكاب المعاصي والذنوب؛ بل استغفارهم

هو لانشغال قلوبهم بأمور صغيرة أبعدتهم عن لحظات ذكر الله والأنس بقربه.

أما من لم يذق حلاوة ذكر الله، ويضطر مكرهًا إلى إجبار نفسه على تكرار ذكرِ «لا إله إلا الله» ألف مرّة، فتجده يشعر بالتعب والملل ويغيّر مكانه عدّة مرّات حتّى يُكمل هذا الذكر؛ لأنه لا يشعر باللذّة في ذكر هذه الكلمات وتكرارها؛ أو عندما يريد ختم جزء من القرآن الكريم، تراه ينظر بين فترة وأخرى إلى عدد الصفحات المتبقية لإكمال هذا الجزء، وإذا ما قام للصلاة فإنه يؤدّيها متكاسلًا ومتثاقلًا ولا يشعر باللذّة في أدائها؛ لهذا يقول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1].

وفي المقابل، تجد من ارتوى من زمزم زلال معرفة الله، وذاق طعم حلاوة ذكره التي تفوق حلاوة أيّ لذّة أخرى، بل لا تضاهيها حلاوة كل لذائذ الدنيا، ما أن يقف في حضرة الله وينشغل بذكره، حتّى يشعر بلذّة تشغله عن كل شيء في هذه الدنيا، ويشعر بنشوة وسعادة عند ذكر الله تجعله لا يلتفت حتى إلى أحلى وأمتع لذائذ الدنيا التي يمكن أن يتصوّرها عقل إنسان.

ينقل المرحوم الحاج الشيخ غلام رضا اليزدي رَحِمَهُ اللَّهُ روايةً مفادها: أن الحور العين في الجنّة تشتكي لله من المؤمنين هناك، فتقول: «إلهي أنتَ خلقتنا لأجل هؤلاء المؤمنين ليتمتّعوا بنا في الجنّة، لكنّهم لا يلتفتون إلينا ولا يهتمّون لأمرنا»؛ ذلك لأن المؤمنين هناك سيكونون مبهورين بتجلّيات الله والتلذّذ بها حتى أنهم لا يلتفتون فيها إلى أي شيء

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤٥.

آخر حتى مجرّد النظر إلى الحور العين، فكيف بالاستمتاع بهنّ. فلو أمكن جمعُ الجَمال عند كل نساء العالم ووضعه في امرأة واحدة، لما وَصلَ إلى جمال الحور العين، ومع هذا نرى أن المؤمنين في الجنّة لا يتأثّرون بهذا الجمال ولا يلتفتون إليه، بل تراهم مأخوذين بجمال وجه الله وحيارى بعظمة تجلّياته تعالى، ويتمتّعون بحلاوة لذّة الأنس بقرب الله التي تفوق كل لذّة سواها.

فاللذّة الناشئة عن التمتّع بالحور العين لا تضاهي جزءًا صغيرًا من لذّة الأنس بقرب الله سبحانه، ولذا فمن الصعب على المؤمن إبعاد نفسه عن التمتّع بتلك اللذّة المتعالية، والانشغال بالتمتّع بالحور العين. فمن يتمكّن من تطهير روحه من أوساخ التعلّقات المادّية، فإنه سيرتقي مراتب النقاء والتعالي إلى درجةٍ يبتعد فيها عن تحصيل أي لذّة دنيوية سوى لذّة ذكر الله والأنس بقربه تعالى، ويعتبر ما عدا ذلك خسرانًا وذنبًا كبيرًا يقتضي طلب المغفرة من الله عنه، ومثل هذا الإنسان يُدرِك معنى قول الإمام السجّاد عليه السلام: «**وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّة بِغَيْرِ ذِكْرِكَ**».

الفائدة الأخرى التي نستنبطها من هذه الجملة، هي أنه عندما يرتبط شخصان بعلاقة حُبّ ومودّة، فإن هذه العلاقة تقتضي أن ينشغل المُحِبّ بمحبوبه، ولو انشغل بشخص آخر فسيكون قد جفا محبوبه وارتكب خطأً في حقّه. وما يتوقّعه المحبوب من العاشق هو أن يجعل حُبّه وعشقه له وحده لا يشاركه فيه أحد؛ لأن العاشق لو انشغل عن مشعوقه بحُبّ شخص آخر، فهذا يعني أن قلبه لم يقتصر على حُبّ معشوقه، بل جعل له شريكًا فيه.

فمن ينشغل بمحبّة غير الله، ويتلذّذ بأشياء سواه، سيكون قد جفا الله وارتكب بحقه عزّ وجلّ خيانةً وذنبًا، ولم يكن موحّدًا له في قلبه،

فالموحِّد لله ينبغي أن يخصّ قلبه لله وحده ولا يلتفت إلى غيره، إلا في الموارد التي أمره الله بها، والموارد التي يقتضي فيها تكليفه الشرعي الاهتمام بها.

وحتى في هذه الموارد التي ينشغل فيها الإنسان بالأمور الدنيوية من باب أداء تكليفه الشرعي والقيام بواجباته التي فرضها الله عليه، ويلتذّ بها، فإنه - حتى في هذه الموارد نفسها - لا يغفل عن ذكر الله أبدًا، واللذّة التي يشعر بها هنا أيضًا لذّة إلهية لا تتعارض مع اللذّة الناشئة عن ذكر الله.

وعلى كل ما تقدّم فعندما يعشق الإنسان ربّه يجب عليه أن يجعل كل شيء في سبيل معشوقه، ولا ينشغل لحظةً واحدةً بغير الله، فإذا مالَ فؤاده نحو لذّة أخرى غير لذّة ذكر الله والأنس بقربه، ينبغي أن يعدّ ذلك العمل خيانةً لمعبوده وجفاءً بحقّه يقتضي منه الاستغفار والتوبة.

المقال الثامن والخمسون
ضرورة ذكر الله وعلاقته بذكر الله لنا

إشارة إلى الترتيب المنطقي لمناجاة الإمام السجّاد عليه السلام

تميّزت أدعية الإمـام السجّاد عليه السلام ونجواه في مناجاة الذاكرين بترتيبها المنطقي الجميل، وهي تبيّن الحالات التي ينبغي أن يتّصف بها الذاكر لله تعالى في المسير الذي يسلكه في ذكر الله؛ لأن الإنسان إذا كان من أهل المعرفة والأدب - عندما يقف لذكر الله - فإنه سيشعر بالخجل من كلماته التي يستعملها في الذكر؛ لأنه يرى أن كل وجوده من قلبه وذهنه ولسانه وكلماته لا يليق بذكر الله عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يصل إلى مقامه تعالى، فيقف مطأطئ رأسه خجلًا أمام الله ليعتذر عن كلماته، ويطلب الصفح والمغفرة، فيقول: «**إلهي لَوْلا الْواجِبُ مِنْ قَبُولِ أمْرِكَ لَنَزَّهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إيَّـاكَ**»، لكنّك مَنَنتَ عليّ وسمحتَ لي بذكرك ومناجاتك، وهي نعمة عظيمة من نعمك التي لا تُعدّ ولا تحصى.

ولمّا كان الإنسان محتاجًا أيضًا إلى الله تعالى في ذكره؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يذكر الله ويناجيه دون مساعدته تعالى وتوفيقه وعنايته، ولا يمكنه أن يصرف قلبه عن الانشغال بغير ذكر الله دون رحمة الله ومنّه عليه، نرى الإمام السجّاد عليه السلام في المقطع الثاني من المناجاة، يستعين

بالله تعالى ليوفّقه إلى ذكره بأفضل وجه ممكن، فيقول: «**إِلهِي فَأَلْهِمْنا ذِكْرَكَ فِي الْخَلاءِ وَالْمَلاءِ**».

أما في المقطع الثالث من المناجاة، فيُشير الإمام إلى تأثير ذكر الله على القلوب وأنه يبعث فيها الطمأنينة والسكينة، فما أكثر ما يشعر الإنسان في حياته بالقلق والاضطراب لأنّهما من مستلزمات الحياة الدنيا، وهما يسبّبان له الألم والحزن. فحال الإنسان الذي يشعر بالهدوء والطمأنينة كحال الغريق الذي جرفته أمواج البحر المتلاطمة وشارف على الموت، لكن فجأةً يتمسّك بشيء ينقذه من الموت حتى يصل إلى برّ الأمان، فيتجدّد أمله بالحياة بعد فترة من صراعه مع الموت، ويشعر باللذّة بعد أن يستعيد كامل سلامته وخلاصه من خطر الموت. أو كحال من ضلّ طريقه في صحراء قاحلة فأصابه القلق والاضطراب على مصيره، لكن ما أن يجد طريقه حتى تُضيء في قلبه شعلة الأمل بالحياة من جديد، ويشعر بلذّة كبيرة لخلاصه من خطر الموت.

وعندما يُدرك الإنسان لذّة ذكر الله، وأن حلاوتها تفوق طعم كل لذّة أخرى، ينبغي له أن يستغفر ربّه على ما فاته من أيام عمره التي غفل فيها عن لذّة ذكره سبحانه غير المتناهية، وانشغل باللهاث وراء التمتّع بملذّات نِعم الله الدنيوية المحدودة.

وعلى ضوء ذلك، جاء في المقطع الرابع من المناجاة استغفار الإمام السجّاد عليه السلام ربّه من كل لذة بغير ذكره تعالى، فيقول: «**وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّة بِغَيْرِ ذِكْرِكَ**».

وفي نهاية مناجاة الذاكرين، يقول الإمام عليه السلام:

«إلهي أَنْتَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[١]، وَقُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٢]، فَأَمَرْتَنا بِذِكْرِكَ، وَوَعَدْتَنا عَلَيْهِ أَنْ تَذْكُرَنا تَشْرِيفًا لَنا وَتَفْخِيمًا وَإِعْظامًا، وَها نَحْنُ ذاكِرُوكَ كَما أَمَرْتَنا، فَأَنْجِزْ لَنا مَا وَعَدْتَنا يا ذاكِرَ الذَّاكِرِينَ، وَيا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

أهمّية دعوة الله عباده إلى ذكره

عندما يحتاج الإنسان شيئًا ما فإنه يسعى للحصول عليه، فالجائع الذي يحتاج الغذاء، أو العطشان الذي يحتاج الماء، يسعى لرفع هذه الحاجة تلقائيًا دون أن يذكّره أحد أو يأمره بذلك.

يُعدّ ذكر الله من أهم احتياجات الإنسان وأسماها، والتي تجلب له الفلاح والصلاح والسعادة الأبدية، ويجب على كل من يُدرِك أهمّية هذه الحاجة أن يسعى بتوفيق من الله وعناية منه إلى رفعها والشروع بذكر الله ومناجاته، كما يقتضي منه أن يشكر الله على هذه النعمة العظيمة وهذا التوفيق الإلهي؛ لكن رغم كل هذه الأهمّية الكبيرة التي يحظى بها ذكر الله، نجد الله تعالى يأمرنا أكثر من مرّة في القرآن الكريم أن نبادر

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآيتان ٤١ - ٤٢.

(٢) سورة **البقرة**. الآية ١٥٢.

إلى ذكره ومناجاته، ويخلق هذا الأمر الإلهي فينا حافزًا أكبر للمبادرة إلى ذكره، وحتّى يقوّي الله تعالى في أنفسنا الرغبة والعزيمة على طاعة أمره فإنه يخبرنا في القرآن الكريم أن ذكره يبعث الطمأنينة والسكينة في قلب الإنسان، ويعدنا أنه سيذكرنا أيضًا إذا ما ذكرناه، وهذا شرف عظيم يستحقّ الفخر والمباهاة.

وإن بإمكاننا أن نُدرِك أن ذكر الله تعالى يبعث في القلب الطمأنينة والسكينة وينقذ الإنسان من الاضطراب والقلق، والتجربة أثبتت لنا جميعًا حقيقة هذه الأمـور؛ ولهذا فعندما يؤكّد الله تعالى أن ذكره يؤدّي إلى فلاح الإنسان وصلاحه، ويقول: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، لا نجد صعوبةً في فهم هذا الوعد الإلهي؛ لأن نيل السعادة والفلاح من الغايات الفطرية للإنسان، لكننا نجد صعوبةً في فهم ما يعدنا الله به من أنه سيذكرنا إذا ما ذكرناه. فنحن لا نعرف كيف سيذكرنا الله، ولا نعلم ما معنى ذكره لنا، فهذا الموضوع من الأمور المعنوية التي تسمو على الأمور الحسّية في هذا العالم، وحتّى نتمكّن من فهم مثل هذه الأمور المعنوية نضطرّ إلى تشبيهها ومقارنتها بالأمور الحسّية، كيما نتوصّل إلى مقاربة ولو بسيطة بين المعنيين تمكّننا من إدراك مفهوم ذكر الله لعباده والوقوف على قيمته المعنوية.

فمن الصعب علينا فهم معنى الآيـة الكريمة ﴿فَـٱذْكُـرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، لكن عند التدقيق والتأمّل فيها ومقارنة ذكر الله لنا مع ذكر أصدقائنا وأقربائنا وغيرهم لنا، يمكننا ساعتئذٍ أن نُدرِك مفهوم ذكر الله لنا وتأثيره علينا وفائدته. فقد أثبتت لنا التجربة أننا نُحبّ آباءنا

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٤٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٥٢.

وأمّهاتنا وأصدقاءنا والمقرّبين منّا، ونتذكّرهم دائمًا، ومن الطبيعي أن الإنسان كلّما أحبّ شخصًا أكثر تذكّره أكثر من غيره، إلى حد أن الإنسان لا يمكنه أن يُبعد عن ذهنه ذكر بعض أحبّائه وأصدقائه، أو أن ينساهم تمامًا.

ومن جهة أخرى، يُحبّ الإنسان أن يذكره محبوبه دائمًا، ويشعر بلذّة خاصّة إذا ما علم أن محبوبه يتذكّره أيضًا، كما يشعر بالسعادة إذا لم يتركه أصدقاؤه وحيدًا، وتذكّروه دائمًا ولم ينسوه. في المقابل، يشعر الإنسان بالحزن والألم الشديد إذا لم يتذكّره أحبّاؤه والمقرّبون منه كأبيه وأمّه وأصدقائه وأقربائه؛ لأن الغربة والوحدة مؤلمة جدًّا للإنسان ويصعب تحمّلها، لكنّه يشعر بالسعادة والسرور إذا علم أن الآخرين يهتمّون لأمره ويتذكّرونه دائمًا، ويبعث هذا الأمر الحيوية والنشاط في حياته.

إن جميع الأفراد الذين يحبّهم الإنسان ويرغب في أن يهتمّوا لأمره ويتذكّروه، هم مخلوقات ضعيفة، ناقصة، محدودة، وفقيرة، وتحتاج إلى عون الله وتوفيقه من رأسها حتى أخمص قدميها، وما تحمله من كمال وصفات لا تعدو سوى جزء بسيط جدًّا من الكمال الذي وهبه الله تعالى إلى أوليائه، ولا تساوي شيئًا مقابل كمال الله المطلق وصفاته المتعالية. وهم إذا ما أبدوا نوعًا من المحبّة والودّ لهذا الإنسان، وأقدموا على عمل معيّن، فإنّما يكون بسبب توفيق الله وعنايته، فهم في الواقع وسيلة وأداة لتنفيذ إرادة الله تعالى.

ولا شك في أن ذكر هذه الموجودات المحدودة التي ستنتهي حياتها بعد فترة معيّنة، وبما تحمله من صفات الكمال المتناهية، لا يساوي في أهمّيته وقيمته شيئًا بسيطًا بالنسبة إلى أهمّية وقيمة ذكر الله تعالى

الموجود الأزلي والأبدي، وبما يحمله من كمال مطلق وصفات متعالية، هذا الإله الرؤوف الرحيم بما يحمل من عطف ومحبّة لا نهاية لها، لا ينسى عبده أبدًا مهما عصاه وارتكب الذنوب، وهو يدعوه دائمًا إلى ذكره والعودة إليه. فالإنسان إذا ما أخطأ صديقه في حقّه أو آذاه مرّةً أو مرّتين يتأثّر جدًّا وينفر منه؛ لكن الله لا يترك عبده وحيدًا أبدًا مهما ارتكب من ذنوب ومعاصي، ويظل يدعو عبده أن يذكره ويتوب إليه حتّى لو كان على شفا الموت، والله تعالى يفرح لتوبتنا وعودتنا له.

الله تعالى يفرح لتوبة عبده وعودته له

يصف رسول الله ﷺ في هذه الرواية فرح الله تعالى بتوبة عبده ورجوعه إليه، فيقول: «**اللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ فَفَقَدَ راحِلَتَهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ ما شاءَ اللهُ تَعَالَى، قَالَ أَرْجِعُ إلى مَكانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زادُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هذا بِراحِلَتِهِ وَزادِهِ**»[1].

وليس في هذا الوصف لفرح الله بتوبة عبده أي مبالغة؛ لأن رحمة الله بعباده لا نهاية لها، ولا يمكن تصوّر حدّ أو نطاق معيّن لها.

فجميع المخلوقات تحتاج إلى الله تعالى، ولا يوجد شخص لا يحتاج إلى الله حتّى للحظة واحدة من عمره، ولا يمكن لأحد ادّعاء عدم حاجته إلى الله ولو بمقدار نَفَسٍ واحدٍ أو طرفة عين واحدة. وكلما ارتقى الإنسان مراتب أعلى من الكمال وحمل صفات وجودية أكثر، كانت

---

(١) حسن بن يوسف الحلي، **نهج الحق وكشف الصدق**، الصفحة ٣٧٥.

حاجته إلى الله أكثر من الآخرين؛ ولهذا يكون الأنبياء والأوصياء والأئمة المعصومون والملائكة المقرّبون أكثر حاجةً إلى الله من غيرهم.

ولمّا كانت قابليات الأنبياء والأولياء الوجودية لا تقارن بقابلياتنا الوجودية؛ فلا يمكن مقارنة فقرهم وحاجتهم إلى الله بفقرنا وحاجتنا إليه تعالى؛ لأنّهم يحتاجون الله في تأمين احتياجاتهم الوجودية ولترقّي مراتب الكمال والتعالي، وكذلك يحتاجونه لتوفيقهم في إفاضة طريق السعادة والكمال على الآخرين.

إذًا، فجميع المخلوقات تتّصف بالفقر والحاجة إلى الله من رأسها حتى أخمص قدميها، والله تعالى هو وحده الغني المطلق الذي لا يحتاج إلى غيره أبدًا. وخلافًا لما يُردّده البعض من تصوّر باطل، فإن الله تعالى لم يخلق مخلوقاته ومن بينها الإنسان لتؤنسه في وحدته، وتعينه في تنفيذ أوامره؛ لأنه تعالى لا يحتاج إلى مخلوقاته أبدًا، ولا يحتاج إلى مؤانستها أو مجالستها، ولا يحتاج إلى الاستعانة بها، كما جاء في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ وَلا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ وَلا لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ وَلا لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ وَلا لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ وَلا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ وَلا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا**»[1].

فهل يوجد فخر وشرف وعزّ لهذا العبد الحقير الفقير العاصي المحمّل بوزر الذنوب، أسمى وأفضل من أن يذكره الله عزّ وجلّ الواحد الأحد بكماله المطلق وصفاته المتعالية، الذي يحتاجه الجميع ولا يحتاج هو لأحد، والذي ملأت رحمته ورأفته أرجاء كل شيء؟

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٨٦.

فنحن يغمرنا الفرح والسرور إذا ما أخبرنا أحد أن قائد الثورة الإسلامية أو أحد مراجع الدين، قد ذَكَرَنا في مجلسه، ومِن شدّة سعادتنا نخبر الآخرين بفخر وغرور أن هذه الشخصية المهمّة قد تحدّثت عنّا وذكرتنا بخير في مجلسها. فكيف سيكون شعورنا وحجم سعادتنا إذا ما ذَكَرَنا الإمام الحجّة (أرواحنا فداه)؟ انظرو كم هو هذا الشعور بالفرح والسرور الذي يغمرنا رغم أن هذا الإمام الهمام عليه السلام هو عبد الله وكل وجوده محتاج إلى ربّه، وما يحمله من كمال وخصال وفضائل أخلاقية إنما اكتبسها بنعمة من الله وتوفيق منه، ولا يمكن أبدًا مقارنة فضائله وصفات كماله مع كمال الله المطلق وصفاته المتعالية، فهل يمكن أن نتصوّر فخرًا وشرفًا يحصّله الإنسان أسمى من أن يذكره الله تعالى بما يحمله من كمال مطلق ورحمة لا متناهية، وعن هذا الموضوع يقول تعالى: «**يابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ أَذْكُرْكَ فِي نَفْسِي؛ ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي فِي خَلاءٍ؛ أَذْكُرْكَ فِي خَلاءٍ؛ ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي فِي مَلإٍ أَذْكُرْكَ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِكَ**»[1].

(١) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، الجزء ٧، الباب ٧، الصفحة ١٥٩، الحديث ٩٠٠٣.

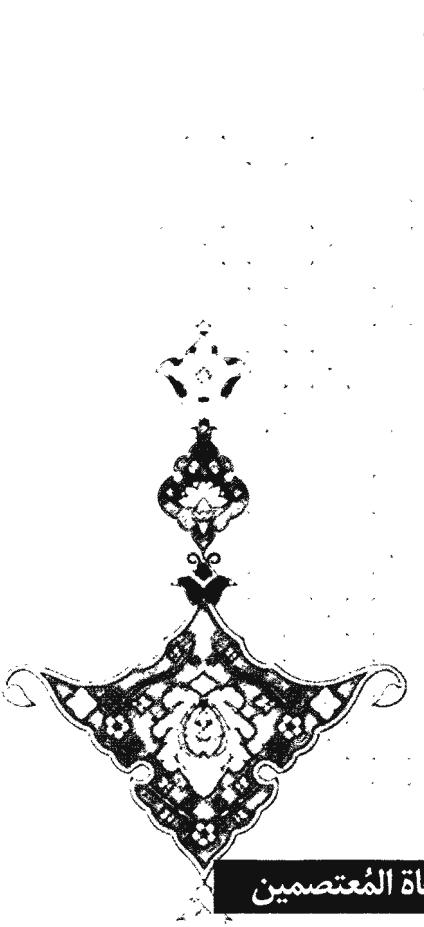

شرح مناجاة المُعتصمين

المقال التاسع والخمسون
الاعتصام بالله (١)

مفهوم الاعتصام

مناجاة المعتصمين هي مناجاة أخرى للإمام السجّاد عليه السلام، وتعني مناجاة المعتصمين بحبل الله تعالى.

يتحدّث الإمام في هذه المناجاة عن عظمة وأهمّية التمسّك بالله والاعتصام به، والتذكير بأهمّية الدين والهداية الإلهية.

تتميّز اللغة العربية بغناها وسعة معانيها وكثرة مفرداتها، أكثر من أي لغة أخرى، فهي تتميّز بكثرة الكلمات المترادفة التي قد تحمل معنىً متشابهًا حسب ظاهرها؛ لكن لكل واحدة منها صفة خاصّة بها تفتقدها الكلمات الأخـرى، رغم أن جميع هذه الكلمات تقابلها في المعنى كلمة واحدة في اللغات الأخرى. فمثلًا كلمات «الاعتصام» و«التمسّك» و«التشبّث» تتشابه في المعنى؛ لكنّها تختلف في خصائصها، ويقابلها عادةً في المعنى كلمة واحدة في اللغات الأخرى.

وقد استعمل القرآن الكريم كلمات «التمسّك» و«الاستمساك» و«الاعتصام» وأمثالها، وأكّد بشكل خاصّ على التمسّك والاعتصام بحبل الله، حيث يقول تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، ونقرأ في آيات أخرى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ [...] وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٢].

علّة التوسّل بالأسباب والغفلة عن الله تعالى

نحتاج في هذا البحث إلى التدقيق جيدًا في معنى كلمة «الاعتصام» حتى يتّضح معنى الاعتصام بحبل الله ومعنى «المعتصِم» تبعًا له، وكذلك تتّضح العلاقة بين عنوان «المعتصمين» والمفاهيم التي تضمّنتها هذه المناجاة. إن من الطبيعي أن الإنسان عندما يشعر بالخطر، مثلًا عندما يقف على حافة السقوط من مكان مرتفع ثم يرى فجأة حبلًا يتدلّى أمامه سيتمسّك به بقوّة أو يحاول التمسّك بأي وسيلة أخرى حتى يتجنّب السقوط، وينقذ نفسه من خطر الموت. إن تمسّك الإنسان بأي وسيلة يمكن أن تنقذه من السقوط والخطر يُطلق عليه «الاعتصام».

والإنسان عادةً ما يعمد إلى تأمين احتياجاته وتهيئتها بالاستفادة مباشرة من الأسباب والأدوات الموجودة بين يديه، وبالتالي يرى نفسه في حاجة مستمرّة إلى هذه الأسباب والأدوات؛ لكنه لا يشعر بحاجته إلى مسبّب الأسباب.

كذلك يشعر الإنسان بحاجته إلى هذه الأسباب والأدوات ما دام يتّخذها وسيلةً تمكّنه من تأمين احتياجاته وتهيئتها، فلو انتفت حاجته

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٠١-١٠٢.

لواحدة من هذه الأسباب والأدوات فلن يسعى حينئذٍ لجلبها، فالطفل في سنوات عمره الأولى الذي لا يستطيع المشي بمفرده مثلًا، تراه يمسك بيد والده أو والدته حتى يتمكّن من المشي بمساعدتهما، لأنه يشعر بحاجته إلى الآخرين في هذه السن، لكنّه بمجرد أن يكبر ويشعر بقدرته على المشي بمفرده دون مساعدة الآخرين، سيحاول إفلات يده من أيديهم حتى يتحرّك بمفرده دون مساعدة الآخرين.

وعلى هذا الأساس، فعندما يشعر الإنسان بالجوع، ولا يكون عنده شيء للأكل، فإنه يذهب إلى مَن عنده الغذاء ليطلبه منه؛ أما إذا كان الغذاء موجودًا عنده، فإنه لا يجد نفسه محتاجًا إلى غيره حتى يهيّئ له شيئًا يأكله.

وعندما نجد نِعم الله التي لا تُعدُّ ولا تُحصى متوفّرةً لدينا، وأننا بواسطتها نتمكّن من تلبية جميع احتياجاتنا، وعندما نتمكّن من حل المشاكل التي تواجهنا بالعوامل والأسباب المتوفّرة لدينا، فإننا بالطبع لن نشعر حينها بحاجة إلى الله تعالى.

إن وجود هذه الحالة النفسية من الغفلة والشعور بعدم الحاجة إلى الله تعالى نتيجةً لتوفّر النِعم الإلهيّة والإمكانات المادّية عند بعض الأفراد ضيّقي الأفق والجهلة، هو ما يبرّر أنّ الله تعالى يعتبر الشعور بالاستغناء وعدم الحاجة وتوفّر المواهب والإمكانات المادّية هو السبب الأساس لظهور حالة الطغيان والتمرد عند الإنسان؛ لهذا يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1].

---

(١) سورة **العلق**، الآيتان ٦ - ٧.

فالإنسان عندما يجد جميع الأشياء التي يحتاجها متوفّرةً لديه، لا يرى نفسه محتاجًا إلى الله تعالى، وبالتالي لا يسعى نحوه لقضاء حوائجه، وهذا الشعور بعدم الحاجة إلى الله ناشئ عن الغفلة والجهل بحقيقة أن الله تعالى قد وفرّ لنا كل ما نحتاجه في ظل قدرته المطلقة وبإرادته، وأن حكمته سبحانه قد اقتضت أن توفّر كل هذه الأسباب والعوامل التي تساعدنا على تنفيذ إرادتـه، فلو أنه لم يشأ ولم يرد أن تُقضى حوائج الإنسان لفقدت هذه الأسباب تأثيرها وأصبحت عديمة الفائدة.

قد يقتنع الإنسان بهذه الحقيقة عن طريق البراهين الفلسفية والأدلة العقلية؛ لكنّه قد لا يصدّقها في أعماق قلبه، فقد يعتقد مثلًا أن الله خلق الأرض والماء وبذور الحنطة، لكن ما أن تتحوّل الحنطة إلى طحين ثم إلى خبز نأكله مع غذائنا، حتى ينفضّ عن الاعتقاد بحاجته إلى الله في تهيئة هذا الخبز.

تعاليم الإسلام وتأكيدها على الشعور بالاحتياج المبرم إلى الله تعالى

إن التزام الإنسان بتعاليم الإسلام واتباع نهج الأنبياء عليهم السلام يجعله يعتقد أنه لا يحتاج إلى أي أحد سوى الله تعالى، أما الأسباب والأدوات الأخرى فهي وسائل بيد الله لا تؤدّي عملها وتأثيرها إلّا بإرادته ومشيئته عزّ وجلّ.

ومن باب التشبيه نقول: إن الطفل عندما يفتح مفتاح الكهرباء ويُضيء ضوء المصباح، يظن أن هذا المفتاح هو السبب في إيجاد الكهرباء رغم أنه ليس سوى وسيلة للسماح بوصول الكهرباء إلى المصباح، وجهاز توليد الكهرباء في الواقع هو السبب في إيجاد الكهرباء التي تنتقل عبر أسلاك الكهرباء حتى تصل المصباح، مما يعني أن الدور الأساسي في هذه العملية يعود لجهاز توليد الكهرباء.

وإذا ما تنزّلنا كثيرًا في هذا التشبيه، فإن أسباب هذا العالم تمثّل مفتاح الكهرباء التي يتم بها تنفيذ إرادة الله ومشيئته، لكن هذه الوسائل والأسباب ليست مستقلةً عن إرادة الله؛ بل تابعة لها وتجري بأمرها.

وقد أكد الله تعالى في العديد من آيات القرآن الكريم على حقيقة أنه هو السبب الأول والحقيقي في هذا العالم، وباقي العوامل والأسباب الظاهرية ليست سوى وسائط وأدوات بيده يمنحها التأثير والحركة بإرادته، وهي غير مستقلّة عن هذه الإرادة؛ لذا ينبغي أن يكون اعتمادنا وتمسّكنا بالله فقط دون باقي الأسباب والأدوات الأخرى، لأنها مجرّد وسائل تابعة لإرادته عزّ وجلّ وتعمل بإذنه ومشيئته.

ونرى تأكيده سبحانه على هذه الحقيقة جليًّا في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[1].

وفي آية أخرى أيضًا، بعد أن يبيّن الله تعالى للمشركين علائم ربوبيته، ويعدّد لهم بعض هذه العلائم في عالم الخلق، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[2].

فقد نبّهنا الله تعالى كثيرًا إلى ضرورة أن نترك الاعتماد والتمسّك بالأسباب الظاهرية، لأنها ليست سوى وسائل بيده تبارك وتعالى، وهي عاجزة عن تقديم أي عونٍ لنا دون إرادتـه وإذنـه سبحانه. ورغم أن

---

(١) سورة **الواقعة**، الآيات ٦٣ - ٧٠.

(٢) سورة **الملك**، الآية ٣٠.

البراهين العقلية قد أثبتت لنا أن الله تعالى هو سبب الأسباب والعلّة الأولى لجميع الظواهر والأحداث، وأنه بعد أن يخلق هذه العوامل والأسباب والظواهر يفيض عليها الوجود لحظة بعد أخرى، أقول: رغم ذلك إلا أنّنا وبدلًا من أن نعتمد على قدرة الله المُطلقة ونتمسّك بها، ترانا نلهث وراء هذه الأسباب والعوامل الظاهرية لنستمدّ العون منها، وما هذا إلا دليل على الجهل الذي ملأ كل وجودنا.

الإنسان يطّلع في ظروف خاصّة على حقيقة حكومة الله المطلقة

ينبّه الله تعالى الإنسان أحيانًا وفي ظروف خاصّة إلى حكومته وربوبيّته في هذا العالم، حيث يقشع عن هذا الإنسان حجاب الجهل والغفلة ويرفعه من على عينيه، فيفتح أمامه آفاقًا جديدةً حتّى يفهم هذه الحقيقة ويُدرِك أن الله هو المؤثّر الحقيقي في هذا العالم.

فقد يواجه الإنسان مشاكل جمّةً وأخطار محدقةً وحوادث صعبةً تعجز الوسائل والأسباب الظاهرية فيها عن تقديم العون له، فلا يبقى أمامه سوى التوسّل بالله الواحد الأحد لكي ينقذه من هذه الأخطار. وفي خضمّ تلك الأحداث واللحظات الحسّاسة في عمر الإنسان، قد يُرسل الله بعض المعجزات والكرامات والظواهر والأمور الخارقة التي لا تظهر عادةً في الظروف الطبيعية، وبعد أن يُشاهد الإنسان مثل هذه الأمور والظواهر الاستثنائية يثوب إلى عقله ورشده ويُدرك حقيقة وجود الله وقدرته المطلقة على إيجاد العوامل والأسباب الظاهرية، فيعود هذا الإنسان مرّةً أخرى إلى طريق الحقّ والهداية. فالإنسان عند مشاهدته هذه الأمور الاستثنائية والخارقة والحوادث الصعبة يعتبرها جرس إنذار وتحذير يُعيده إلى رشده مرّةً أخرى، ويُزيل غشاوة الجهل والغفلة - التي تحجب عنه رؤية الحقيقة في الظروف الطبيعية - من أمام عينيه.

ويجب على الإنسان أن يسعى لإزالة الجهل والغفلة عن قلبه من خلال تحكيم عقله واتّباع تعاليم الأنبياء حتى يُدرك حقيقة أن الله تعالى هو المدبّر لجميع الأمور في هذا العالم، ويعتقد أن كل شيء يجري بإرادته ومشيئته تعالى؛ لكن الإنسان يغفل عن هذه الحقيقة بسبب طغيانه وتمرّده على إرادة الله، عندها يعمد الله إلى إيجاد مثل هذه الحوادث والظواهر الاستثنائية حتّى يضع الإنسان في موقف حرج يفقد فيه كل الوسائل والأسباب الظاهرية فيعود إلى رشده، ويستمع إلى صوت فطرته، فيلجأ إلى ربّه.

يصف الله تعالى في القرآن الكريم سلوك الإنسان عندما يواجه هذه الحوادث الخطيرة والظواهر الاستثنائية، ثم عودته إلى الغفلة والجهل بعد زوال الخطر عنه، فيقول تعالى عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1].

وفي آية أخرى، يصف الله تعالى توسّل الإنسان بالله في ظروف الخطر والأزمات التي تواجهه في حياته، ثم عودته إلى الجهل والغفلة عن الله وطغيانه في الأرض بعد أن يشعر بالأمان وزوال الخطر، فيقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[2].

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٥.

(٢) سورة **يونس**، الآيتان ٢٢ - ٢٣.

عندما يتعرّض الإنسان إلى خطرٍ شديدٍ كأن تحاصره النار من كل جانب، ويُدرك أن لا مفرّ منها وتتقطّع به الأسباب، ويأس من مساعدة الآخرين، فإنه يتوجّه إلى الله بكل جوارحه، ويتوسّل به ويتضرّع إليه أن ينقذه مما هو فيه. وقد يحدث مثل هذا الموقف الحرج والشعور بخطر الموت لمتسلّقي الجبال عندما يتعلّقون بصخرة صغيرة حتى يتجنّبوا السقوط في الوادي، بحيث لو اقتُلعت هذه الصخرة من مكانها لسقطوا، إضافةً إلى شعورهم بالإعياء الشديد وفقدانهم القدرة على المقاومة والتحمّل للاستمرار بالتمسّك بهذه الصخرة الصغيرة؛ إذ يمكن أن تفلت يدهم في أي لحظة، وهم يُدركون عدم وجود أحد يمكن أن ينقذهم من هذا الوضع، حينها سيتذكّرون الله وسيتوجّهون إليه بكل جوارحهم ليتوسّلوا به أن ينقذهم من هذا الموت المحقّق.

وقد تؤدّي بعض المواقف الصعبة والمشاكل الخطيرة التي تواجه الإنسان في حياته اليومية إلى تعرّض شرف الإنسان وكرامته إلى الخطر، أو قد يُصاب الإنسان بمرض خطير يصعب علاجه أو يخبره الأطباء بعدم وجود علاج له، حينئذٍ وعندما يعود الإنسان حزينًا، يائسًا، قد انقطع رجاؤه من كل شيء سوى الله تعالى، يفتح الله أمامه بصيصًا من الأمل، فيتوجّه إلى ربّه بكل جوارحه ويتوسّل اليه أن ينقذه ويشفيه من مرضه.

إن الله تعالى يُحبّ أن يذكره عبده دائمًا ويتوجّه إليه في حياته ويعتصم به ويتمسّك بحبله، ويعتقد بقدرة ربّه المطلقة، وحاجته الدائمة إلى الله، حتّى لو تهيّأت له جميع الوسائل والأسباب الظاهرية؛ انطلاقًا من كونه يعلم أن الله هو من هيّأ وأوجد هذه الأسباب. فإذا ما أدرك الإنسان هذه الحقيقة واعتقد بحاجته الدائمة إلى الله، فإن الله يقضي له جميع احتياجاته بالوسيلة التي يراها مناسبة، ويحلّ جميع مشاكله، والأهمّ من

ذلك هو أنّ الله سيهديه إلى الصراط المستقيم، ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

مما يليق بالإنسان المؤمن أن يتوجّه دائمًا إلى الله سبحانه، ويعتقد أن الله ينظر إليه دائمًا وأنه موجود لنصرته وحمايته، ويبادرُ إلى إنقاذه من كل خطر قد يتعرّض إليه عندما تنقطع به الأسباب، وينصره ويحميه ويحافظ على كرامته إذا ما واجه الأعداء وأرادوا به السوء والانتقاص من كرامته، ويشفيه إذا ما مرض ولم يجد دواءً يخفّف من ألمه، وعجز الأطباء عن شفائه.

إن مثل هذا الاعتقاد بالله تعالى يهيّئ الظروف اللازمة لتشديد حالة الاعتصام بالله عند الإنسان، فيتوجّه حينها إلى ربّه لقضاء حوائجه ويتوسّل به مخاطبًا إياه بأسمائه الحسنى وصفاته المتعالية التي تناسب قضاء تلك الحاجة، حتى يحرّك أمواج بحر رحمته فتغمره وتقضي حاجته.

بعد هذه المقدّمة نستعرض الآن مقطعًا من مناجاة المعتصمين.

تجلّي حالة الاعتصام بالله في حياة أوليائه

«اَللّٰهُمَّ يا مَلاذَ اللائِذِينَ ويا معاذَ العائذِينَ وَيا مُنْجِيَ الْهَالِكِينَ وَيَا عَاصِمَ الْبَائِسينَ وَيا رَاحِمَ الْمَسَاكِينَ وَيَا مُجِيبَ الْمُضطَرِّينَ وَيا كَنْزَ الْمُفْتَقِرِينَ وَيا جَابِرَ الْمُنكَسِرِينَ وَيَا مَأْوَى الْمُنْقَطِعِينَ

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٠١.

وَيَا نَاصِرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَيَا مُجِيرَ الْخَائِفِينَ وَيا مُغِيثَ الْمَكْرُوبِينَ وَيَا حِصْنَ اللاجِينَ».

يتناسب اختيار هذه العبارات في بداية المناجاة مع حالة الانكسار عند هذا الإنسان ويأسه من كل شخص سوى الله، فهو يُدرِك تمامًا مدى حاجته إلى الله، ويتوجّه إليه بكل جوارحه ذليلًا خاضعًا خاشعًا معترفًا بفقره وفاقته، يأمل أن تهبّ عليه رياح رحمة الله لتغمره وتشمله ببركاتها.

ثم يواصل الإمام مناجاته، فيقول:

«إِنْ لَمْ أَعُذ بِعِزَّتِكَ فَبِمَنْ أَعُوذُ، وَإِنْ لَم أَلُذْ بِقُدْرَتِكَ فَبِمَنْ أَلُوذُ، وَقَدْ أَلجَأَتْنِي الذُّنُوبُ إلى التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ عَفْوِكَ».

فبعد أن يبيّن الإمام اليأس وفقدان الأمل بكل شخص سوى الله، يقرّ بعدم وجود عزّة وقدرة أعلى من عزّة الله وقدرته؛ لذا فهو يلجأ إلى عزّة الله فيعوذ ويلوذ بها، ويتساءل: إذا لم أعذ بعزّة الله فبمن أعوذ، وإذا لم ألذ بقدرته فبمن ألوذ؟ فعندما يتعرّض الناس العاديون إلى بعض الحوادث والمشاكل المادّية والأخطار الدنيوية، نظير الجوع، أو العطش، أو خطر السقوط من مكان مرتفع، أو الغرق أو غير ذلك من المشاكل الاجتماعية، فإنه يتوجّه إلى الله ويلجأ إليه، وهذا يعني أن الحاجات المادّية هي المحرّك الأساسي الذي دفعه للاعتصام بالله سبحانه، أما بالنسبة للإنسان المؤمن فإن طلب مغفرة الله ورحمته أهمّ وأسمى من حاجاته المادّية؛

لأنه يُدرِك أن المشاكل والمصائب الدنيوية، وأنواع البلاء، والذلّة، والعوز تنتهي في هذه الدنيا عند الموت، بينما الاحتياجات الأخروية وأنواع البلاء والمشاكل التي تواجهنا في الآخرة بسبب الذنوب والمعاصي، وتقصيرنا وقصورنا في عبوديّتنا لله، فتبقى معنا إلى الأبد، ولا يستطيع أحد رفعها عنا سوى الله عزّ وجلّ.

وعلى ضوء ذلك، فالإنسان المؤمن عندما يُدرك أن الله تعالى هو صاحب القدرة المطلقة، وغيره عين العجز والضعف، فحينها بدلًا من أن يسأل الله أن يوفّر له الماء والغذاء وغيرها من الاحتياجات المادّية التي تنفعه في حياته القصيرة في هذه الدنيا، فإنه سيسأله ويتوسّل إليه أن ينقذه من عذاب الآخرة، وأن يعيذه من شرّ الذنوب، ويستره من الفضيحة في الآخرة على رؤوس الأشهاد، ويلجأ إلى الله أن ينجيه من الخلود في نار جهنّم.

المقال الستّون
الاعتصام بالله (٢)

ضرورة استمرار توجّه الإنسان إلى الله والاعتصام به

كما قلنا في المبحث السابق، فالإنسان عندما يواجه خطرًا مُحدقًا، ويتمسّك بوسيلة ما لينقذ نفسه من هذا الخطر، يُقال عنه إنه قد اعتصم بهذه الوسيلة. وعلى ضوء ذلك، فإذا ما تعرّض الإنسان إلى الخطر أو البلاء وتوجّه نحو الله يسأله أن يحميه وينقذه مما هو فيه، سيُقال عنه إنه اعتصم بالله تعالى، وقد تُستعمل أيضًا كلمات أخرى مثل «استمساك» أو «تمسّك» للتعبير عن هذه الحالة.

ومن الطبيعي أن توجّه الإنسان إلى الله في أوقات الخطر والبلاء بعد اليأس من الجميع ناشئ عن ضعف إيمانه، وإلا فالإنسان الموحِّد والمؤمن الحقيقي يرى نفسه دائمًا في حاجة إلى الله تعالى، ويعتقد أن الله هو الوحيد القادر على حلّ مشاكله، وأن كلّ ما بين يديه من نِعم وإمكانات إنّما هي من فضل الله ورزقه، وبالتالي لن يغفل أبدًا عن الله، ولن ينظر إلى أحد سواه، ولن يأمل شيئًا من غيره، والله تعالى يقول:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

فرغم ضرورة الاستعانة بالأسباب والوسائل الظاهرية، وتأثيرها ودورها في قضاء حاجاتنا، لكن يجب أن يكون توجّهنا الأوّل إلى مسبّب الأسباب، وأن ننشغل بذكره دائمًا.

وبالطبع، توجد وسائل أخرى تساعدنا في تذكّر الله وتحيي في قلوبنا الأمل برحمته وعنايته، منها:

١. تذكّر الله والتوجّه إليه عند تعرّض المرء لمختلف أنواع البلاء والأخطار التي لا يجد له منقذًا منها سوى الله.

٢. الاطلاع على حياة وسيرة الذين اعتصموا بالله تعالى عند تعرّضهم لأنواع البلاء والأخطار المحدقة، فأنقذهم الله منها برحمته ورأفته، بعد أن انقطع أملهم ورجاؤهم بكل شيء سوى الله.

خشية أولياء الله وخوفهم من عذاب الآخرة وبلائها

إن ما دفع الإمام السجّاد عليه السلام إلى أن يعتصم بالله تعالى ويطلب نصرته وعونه، ليست هي الأخطار المادّية والخوف من الموت، أو المرض والجوع، أو الوقوع في نار الدنيا، لأنه لا يخشى هول تلك الأمور الدنيوية؛ بل ما دفعه إلى الاعتصام بالله تعالى هو خشيته من أهوال الآخرة وعذابها التي هي أشدّ وأدهى من أخطار الدنيا وبلائها. فلو تعرّض الإنسان إلى مختلف أنواع البلاء كأن يحترق في نار الدنيا، فإن هذا البلاء

---

(١) سورة **يونس**، الآية ١٠٧.

والألم سيقتصر على حياته الدنيوية، وسرعان ما سيزول عند موته، ولا يتعدّى تأثيره سوى أن ينقص عمره عدّة أيام وحسب، فإن هو لم يحترق بهذه النار فإنه قد يعمّر في هذه الدنيا سبعين أو ثمانين سنة، أما إن احترق بها فهو قد يموت قبل أجله بعدّة سنوات، وإن لم يمت وبقيت على جسده آثار الاحتراق، فسيظل يتألم منها فترةً معيّنةً ثم يُشفى وينتهي ألمه، أو سيقضي ما تبقّى من عمره يعاني من أثر الحروق في جسده، حتّى يحين أجله فيتخلّص من هذا الألم والمعاناة. لكن في المقابل هناك نار جهنّم وعذاب الآخرة، وهو أشدّ وأكثر حرقةً وألمًا من نار الدنيا، كما أنه عذاب دائمي وأبدي يخلد فيه الإنسان، وحتى لو احترقت أجساد المعذبين فيها ونضجت جلودهم فإنها تتبدّل بأخرى جديدة ثم يعذبون مرّةً أخرى وهكذا إلى الأبد.

يصف الله تعالى وضع الكافرين، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

يبيّن الله تعالى في هذه الآية الشريفة حال الكافرين وعذابهم في الآخرة، فيقول إن الكفار سيَصلَونَ نارًا تُحرق أجسادهم وجلودهم وكلّما نضجت استُبدلت بأخرى جديدة ثم تُعذب في النار مرّة ثانية وهكذا تستمرّ دورة العذاب هذه إلى الأبد. فلو تمعّن الإنسان في معاني هذه الآية الشريفة وغيرها من الآيات التي تصوّر عذاب الآخرة، فإنه سيُدرِك بوضوح أن عذاب الدنيا وأنواع البلاء والمصائب فيها لا تُعادل جزءًا يسيرًا من هول عذاب الآخرة وبلائها.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٦.

وكما تقدّم، بعد أن يذكر الإمـام السجّاد عليه السلام أسماء الله التي تتناسب مع مقام الالتجاء والاعتصام به، يدعو الله ويناجيه، إلهي إنّ ذنوبي هي التي ألجأتني إليك، ودفعتني إلى التمسّك والاعتصام برحمتك الواسعة، وليس الأخطار والمصائب المادّية والدنيوية.

«وَقَـد أَلْجَأَتْنِي الذُّنُوبُ إِلَـى التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ عَفْوِكَ، وَأَحْوَجَتْنِي الْخَطَايا إِلى استِفتاحِ أَبـوابَ صَفحِكَ، وَدَعَتْنِي الإِسَاءَةُ إِلى الإِنَاخَةِ بِفِنَاءِ عِزِّكَ، وَحَمَلَتْنِي المَخَافَةُ مِنْ نِقْمَتِكَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعُرْوَةِ عَطْفِكَ».

علة انتساب الحوادث إلى الله والأسباب الأخرى

فيما يتعلّق بكلام الإمام السجّاد عليه السلام وأن الذنوب والمعاصي هي التي اضطرته وأجبرته على اللجوء إلى الله تعالى، يُطرح السؤال التالي: كيف يمكن أن تكون الذنوب التي تستحقّ عذاب الآخرة سببًا في إجبار الإنسان على اللجوء إلى الله؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، لا بأس أن نوضح موضوعًا وَرَدَ كثيرًا في مختلف العلوم والمعارف الإلهية، وهو أننا قد نجد في القرآن الكريم والروايات عملًا يُنسب تارةً إلى الله تعالى، وتارةً أخرى إلى الملائكة، وثالثةً إلى الإنسان نفسه. وقد يتبادر إلى ذهن غير المطلعين على علوم القرآن الكريم والروايات بشكل كافٍ، هذا التساؤل: لماذا ينسب

الله حادثةً أو عملًا معيّنًا إلى نفسه في موضع، ويعتبر نفسه علّةً لهذه الحادثة، ثم ينسب نفس الحادثة في موضع آخر إلى الملائكة ويعتبرها علّةً لها، وينسبها ثالثةً إلى الإنسان نفسه ويعتبره السبب في حدوثها؟

ولتوضيح هذا المطلب، نذكر مثالًا من القرآن الكريم، حيث نرى في بعض الآيات أن الله تعالى ينسب إلى نفسه تعيين أجل الإنسان وقبض روحه، إذ يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وفي آيات أخرى، ينسب الله قبض روح الإنسان إلى ملك الموت وملائكته، فيقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2]؛ ثم يقول في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3].

وفي موضع آخر، ينسب الله تعالى الموت وتعيين الأجل إلى الإنسان نفسه، ويصف حال الكفّار عند الموت، فيقول: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٤٢.

(٢) سورة **السجدة**، الآية ١١.

(٣) سورة **الأنعام**، الآية ٦١.

(٤) سورة **الأنعام**، الآية ٩٣.

كذلك في آية أخرى، ينسب الله تعالى نزول المطر إلى نفسه، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

إن السبب في نسبة ظاهرة معيّنة إلى الله وإلى العوامل الأخرى أيضًا، هو اشتراك عوامل مختلفة في نشوء كل حادثة في هذا العالم، ومن هذه العوامل: المقتضي، والشرط، وعدم المانع، والعلّة الإعدادية، وتعتبر جميع هذه العوامل عوامل طوليةً تؤثّر في إيجاد هذه الحادثة في طول العلّة الإيجادية؛ أي الله تعالى؛ فعندما تتحقّق جميع هذه العوامل - ومنها إرادة الله ومشيئته - تتحقّق العلّة التامّة لإيجاد المعلول أو الحادثة، فتخرج إلى الوجود.

ومن البديهي أن تأثير جميع هذه العوامل ناشئ عن إرادة الله ومشيئته، ما يعني أن الله هو مسبّب الأسباب وعلّة العلل ولا يمكن أن يحدث شيء في هذا العالم بدون إرادته ومشيئته. ولمّا كانت مجموعة من العلل والعوامل تشترك بنحوٍ ما في إيجاد هذه الحادثة أو المعلول؛ أمكن نسبة إيجاد هذا المعلول إلى كل واحدة من هذه العلل، وبالتالي - وبحسب ما يقتضيه المقام وسير الأحداث - يمكن تارةً نسبة المعلول إلى المقتضي، وتارةً أخرى نسبته إلى الشرط، ونسبته ثالثةً إلى علّته الإعدادية. وبالطبع، تعتبر كل واحدة من هذه العلل علّةً ناقصةً أو جزءَ علةٍ تؤثّر في إيجاد المعلول في طول إرادة الله ومشيئته.

---

(١) سورة **الشورى**، الآية ٢٨.

معنى الخوف من الله، والعوامل الأخرى

أكّدت الكثير من الآيات والروايات على ضرورة الخوف من الله تعالى، وحتى الآيات التي تتحدّث عن تقوى الله أوصت بوجوب الخوف منه عزّ وجلّ؛ لأن التقوى رغم أنها مشتقّة من مادّة «وقاية» التي تعني الصيانة والحفظ، إلا أنها تتضّمن إلى ذلك معنى الخوف من الله أيضًا. ويتضمّن تعبير الخوف من الله في معناه، كذلك، الخوف من الذنوب ومن عذاب الله.

يقول الله في الآية الشريفة: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[1]، وفي آية أخرى، يقول سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2].

ووَرَدَ ذكر الخوف من الله في آيات أخرى من القرآن الكريم أيضًا، حيث يمكن الإشارة إلى آيات مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]، وأوصت آيات أخرى بضرورة الخوف من يوم يتعرّض فيه المذنبون لعذاب الله، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4].

فقد أوصتنا بعض الآيات بوجوب الخوف من الله، وأوصتنا آيات أخرى بضرورة الخوف من الذنوب والمعاصي والأعمال السيّئة، في حين

---

(١) سورة **البيّنة**، الآية ٨.
(٢) سورة **الرحمن**، الآية ٤٦.
(٣) سورة **الأنعام**، الآية ١٥.
(٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٨١.

أكّدت آيات ثالثة على ضرورة الخوف من نتيجة هذه الذنوب وهو عذاب الله. وهنا نتسائل: من أيّ هذه الأمور يجب أن نخاف؟

الجواب: أن ما يجب أن نخاف منه هو عذاب الله تعالى، وكذلك علينا أن نخاف من علّة هذا العذاب؛ أي لا بد من أن نخاف من الذنوب التي تستوجب هذا العذاب، كما ينبغي علينا الخوف من يوم القيامة الذي يقع فيه هذا العذاب، ونخاف جهنّم التي تمثّل مكان هذا العذاب. ونظرًا إلى أن الله تعالى هو المسؤول الأوّل عن إيجاد نظام الدنيا والآخرة، ونظام الثواب والعقاب، وهو الذي يذيقنا عذاب الآخرة بسبب ما ارتكبناه من ذنوب ومعاصي، فيجب لذلك أن نخاف منه أيضًا؛ لكن الخوف من الله لا يعني تصويره كموجود مخيف، بل هذا الخوف ناشئ في الواقع من العذاب الذي سنتحمّله نتيجة الذنوب والمعاصي التي ارتكبناها في هذه الدنيا.

كذلك يجب أن نخاف الله لأنه ربّ جميع ما في الوجود وبيده مقدّرات كل شيء، وهو الخالق لنظام الدنيا والآخرة، ولأن العذاب الذي سنتعرّض إليه في الآخرة يكون جزءًا من نظام العلة والمعلول الذي أقرّه الله تعالى في هذا العالم. نخاف الله الذي تجري جميع أمور هذا العالم طبقًا لإرادته ومشيئته ومن بينها العذاب والجزاء الأخروي.

إذًا، فالله تعالى هو أوّل ما يجب أن نخافه، وهذا الخوف يعني الخوف من عذاب الله في الآخرة، والخوف من الذنوب التي تؤدّي إلى هذا العذاب.

وبملاحظة ما تقدّم، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «**وَقَد أَلْجَأَتْنِي الذُّنُوبُ إِلَى التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ عَفْوِكَ**»، فلمّا كانت الذنوب تبعّد الإنسان عن ربّه، فقد كان الإمام يقصد من كلامه أن الإنسان عندما يفكّر مليًّا في

ذنوبه التي ستؤدّي به إلى الهلكة والعذاب الأبدي، فإنه يشعر بالخوف من عذاب الله، ولا يجد مفرًّا له للخلاص من هذا العذاب إلا باللجوء إلى الله وطلب العفو والمغفرة منه تعالى. فالخوف من عذاب الله الذي ينشأ بسبب ذنوب الإنسان، هو الذي يجعل الإنسان يتوجّه إلى ربّه، ويأمل أن يشمله بمغفرته ورحمته الواسعة.

ونظرًا إلى وقوع الذنب ضمن سلسلة من الأسباب والمسبّبات، وبحسب ما يقتضيه مقام الخطاب والبيان، ننسب أحيانًا فعلًا معيّنًا إلى الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة، وأحيانًا أخرى ننسبه إلى الحلقة المتوسّطة فيها، كما ننسبه ثالثةً إلى الحلقة البعيدة منها؛ ولهذا يقول الإمام السجّاد عليه السلام إن ذنوبه هي التي ألجأته إلى طلب رحمة الله وعفوه. وقد كان بإمكانه عليه السلام القول إن الله نفسه هو الذي جعله يلتجئ إليه طلبًا للعفو والمغفرة من ذنوبه؛ لكن اعتقاده بسنّة الله في العفو والمغفرة وقبول التوبة هي التي جعلته يتوجّه إلى الله ويناجيه: «**إلهي! قَد أَلْجَأَتْنِي الذُّنُوبُ إِلَى التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ عَفْوِكَ**»، فالخوف من العذاب الناشئ عن ارتكاب هذه الذنوب هو الذي ألجأني إلى التمسّك بعفوك ورحمتك.

فلو لم يكن الإنسان يعتقد بهذه السنّة الإلهية، وهي قبول الله توبة عبده والعفو عن ذنوبه، لما كان يلتجئ إلى ربّه ليطلب عفوه ومغفرته عمّا ارتكبه من ذنوبٍ ومعاصي، حتى لو كان يخاف من عذاب الله في الآخرة. ولا يحصل اعتقاد الإنسان بهذه السنّة الإلهية إلا بتوفيق من الله ورحمة؛ بل إن الله هو الذي يهيّئ الأسباب التي تحفّز الإنسان على التوجّه إلى ربّه لطلب مغفرته، ويهبه نعمة الإيمان والمعرفة، ويهديه إلى

طريق الحقّ للعودة إليه تعالى. وقد وَعَدَ الله عبده المذنب، أنه سيغفر جميع ذنوبه إذا ما تاب عنها، حتى لو كانت بعظمة الجبال وسعة البحار.

فقد اتّضح مما تقدّم أنه يمكننا القول إن الله هو الذي يدعونا إلى التوجّه إليه لطلب عفوه ومغفرته، وأن الأمل بمغفرته وقبول توبتنا هو الذي يحفّزنا لطلب عفوه ورحمته الواسعة، كذلك يمكننا القول إن ذنوبنا والخوف من عقوبتها هي التي ألجأتنا إلى التشبّث بأذيال عفو الله ورحمته، وإلا فإن الله تعالى لا يريد السوء بعبده ولا يرغب بعذابه في نار جهنّم؛ بل الإنسان هو الذي يُقدم باختياره على ارتكاب الذنوب ومعصية ربّه.

وهكذا، كان يجب على الإمام عليه السلام، رعايةً لأساليب البلاغة في الخطاب، أن يقول: إلهي! ألجأتني ذنوبي إلى التمسّك بعفوك ورحمتك، وألجأني إليك خوفي من عذابك الذي كتبته عليّ بسبب الذنوب التي ارتكبتها بإرادتي واختياري، لكني الآن نادم على ما فعلت، وأتوب إليك عما ارتكبته من ذنوب، وعهدٌ لك عليّ أن لا أعود إليها أبدًا.

وهنا نرى أن الإمام عليه السلام قد استعمل عدّة عبارات مختلفة من حيث الألفاظ والكلمات لكنّها متّحدة في المعنى، ومن هذه العبارات، قوله: «**وَدَعَتْنِي الإِسَاءةُ إلى الإِنَاخَةِ بِفِنَاءِ عِزِّكَ**»، إن كلمة «الإناخة» تُستعمل في الأصل للتعبير عن إجلاس البعير على ركبتيه على الأرض، ثم استُعملت بعد ذلك للتعبير عن مُطلق تعظيم الإنسان لأي شخصٍ مهمّ.

أما كلمة «الفِناء» فتعني الساحة الواسعة التي تقع في مقدّمة قصر الملوك والأمراء والحكّام، والتي يتجمع فيها الناس عادّةً لملاقاة الملوك والحكّام لتقديم التعظيم والخضوع إليهم؛ ولهذا ومن باب تشبيه المعقول

بالمحسوس صوّر الإمام عليه السلام عزّة الله كقصرٍ عظيمٍ ذي فِناءٍ واسعٍ يقف فيه عباد الله تعظيمًا وخضوعًا لربّهم، لطلب عفوه ورحمته الواسعة.

فِناء الله، ملاذ اللائذين، وملجأ الخائفين

بعد أن قال الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاته: «**وقَد أَلْجَأَتْنِي الذُّنُوبُ إلى التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ عَفْوِكَ**»، يقول بمنزلة الكبرى الكلّية، أنه لا يليق أن يُطرد من إلتجأ إليك:

«وَمَا حَقُّ مَنِ اعْتَصَمَ بِحَبْلِكَ أَنْ يُخْذَلَ، وَلا يَلِيقُ بِمَنْ اسْتَجَارَ بِعِزِّكَ أَنْ يُسْلَمَ أَوْ يُهْمَلَ».

فمن غير الممكن أن يطرد الله عبدًا التجأ إليه أو يهمل من استجار به؛ لأن هذا العبد المذنب الخاطئ قد جاء إلى ربّه نادمًا تائبًا ذليلًا، يأمل عفوه ورحمته، إضافةً إلى أن الله هو منبع الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء، وعندما يفكّر الإنسان برحمة الله وصفات جماله، ويُشاهد الله الحالة النفسية والروحية لهذا العبد المذنب الخاطئ، يطمئن الإنسان إلى أن الله برحمته الواسعة وعطفه وكرمه لا يمكن أن يردّ عبده يائسًا من رحمته.

وبعد أن ذكر الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاته هاتين المقدّمتين الصغرى والكبرى، وفي مقام الاستنتاج ومن باب ذكر مصداق لهذه النتيجة، يقول:

«إِلَهي، فَلا تُخْلِنَا مِنْ حِمَايَتِكَ، وَلا تُعْرِنَا مِنْ رِعَايَتِكَ، وَذُدْنَا عَنْ مَوَارِدِ الْهَلَكَةِ، فَإِنَّا بِعَيْنِكَ وَفي كَنَفِكَ».

وفي ختام المناجاة، يتوسّل الإمام السجّاد عليه السلام بخضوعٍ وخشوعٍ تامَّين بملائكة الله الصالحين وخاصّة عباده، وبصوتٍ منكسرٍ خاضعٍ يليق بعبدٍ يقف في حضرة مولاه تائبًا إليه، وهو لا يعلم هل سيغفر له ذنوبه وخطأه أم لا؟ فيسأل ربّه ومولاه بحقّهم ومنزلتهم عنده أن يمنّ عليه بكرمه وعفوه، ثم يعرض أمامه حاجة أخرى، فيقول:

«وَأَسْأَلُكَ بِأَهْلِ خَاصَّتِكَ مِنْ مَلائِكَتِكَ وَالصَّالِحِينَ مِنْ بَرِيَّتِكَ أَنْ تَجْعَلَ عَلَيْنَا وَاقِيةً تُنْجِينَا مِنَ الْهَلَكَاتِ وَتُجَنِّبُنَا مِنَ الآفَاتِ وَتُكِنُّنَا مِن دَوَاهِي الْمُصِيبَاتِ، وَأَنْ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنْ سَكِينَتِكَ، وَأَنْ تُغَشِّيَ وُجُوهَنَا بِأَنْوَارِ مَحَبَّتِكَ، وَأَنْ تُؤْوِيَنَا إلى شَدِيدِ رُكْنِكَ، وَأَنْ تَحْوِيَنَا في أَكْنَافِ عِصْمَتِكَ، بِرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

فنظرًا إلى أن الخوف من الذنوب يصيب الإنسان المذنب بالقلق والاضطراب، فيجعله عاجزًا عن أداء وظائفه بالشكل المطلوب، يسأل الإمام السجّاد عليه السلام ربّه أن يُنزل عليه السكينة والاطمئنان حتى يتمكّن

من أداء واجباته وعبادته على أحسن وجه ليتدارك ما فاته ويزيل عن صحيفته ما شابها من تقصير ومعاصٍ لا تليق بالعبد المؤمن.

وبعد أن يسأل الإمام عليه السلام ملائكة الله الصالحين وعباد الله المخلصين الشفاعة له عند الله، يتوسّل إلى الله أن يُغرقه بأنوار محبّته، وفي ختام مناجاته يسأل ربّه برأفته ورحمته أن يجعله في أكناف عصمته، بأن يعصمه من الخطأ والمعصية ويبعده عن الوقوع في مهاوي الهلكة والعصيان، ويصونه من الانحراف عن جادّة الحقّ والهداية.

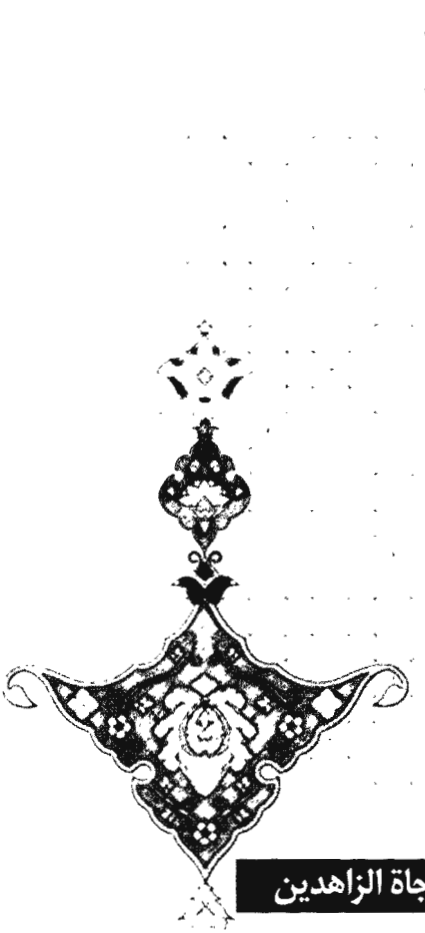

شرح مناجاة الزاهدين

المقال الحادي والستون
زُهد أولياء الله، ونبذهم الدنيا وملذّاتها (١)

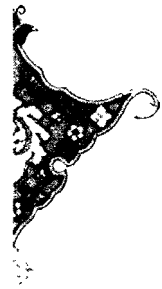

الإنسان أسير مكر الدنيا وخداعها

شرحنا في المباحث السابقة أربع عشرة مناجاةً من المناجيات الخمس عشرة للإمام السجّاد عليه السلام، ووصل بنا المطاف الآن إلى بحث ومناقشة المناجاة الأخيرة التي تحمل عنوان «مناجاة الزاهدين»، حتى ننهل من معين مطالبها المتعالية ومفاهيمها المعنوية.

يقول الإمام عليه السلام في بداية هذه المناجاة:

«إلهِي أَسْكَنْتَنا دارًا حَفَرَتْ لَنا حُفَرَ مَكْرِها، وَعَلَّقَتْنا بِأَيْدِي الْمَنايا فِي حَبائِلِ غَدْرِها، فَإِلَيْكَ نَلْتَجِئُ مِنْ مَكائِدِ خُدَعِها، وَبِكَ نَعْتَصِمُ مِنَ الاغْتِرارِ بِزَخارِفِ زِينَتِها، فَإِنَّهَا الْمُهْلِكَةُ طُلّابَهَا، الْمُتْلِفَةُ حُلّالَهَا، الْمَحْشُوَّةُ بِالآفاتِ، الْمَشْحُونَةُ بِالنَّكَباتِ».

يبيّن هـذا المقطع من المناجاة حقيقة الدنيا ووجها القبيح والمذموم، ويعرّفها بأنها محّل مكرٍ وخديعة، ومكان غدر ومكيدة. ويشبّه الإمـام السجّاد عليه السلام الإنسان في هذه المناجاة بسجين في زنزانة مخيفة، أوقعته الدنيا بمكرها وخديعتها في حفرة سحيقة يصعب خلاصه منها؛ ومع ذلك يظل يتعلّق بحبائل غدرها وملذّاتها الواهية لعلّها تنقذه مما هو فيه دون جدوى، حتى يرفع راية الاستسلام لمصيره المحتوم وهو الموت.

وفي هذا المقطع من المناجاة يسأل الإمام عليه السلام اللهَ سبحانه أن ينقذه من غدر الدنيا ومكرها ويعصمه من الاغترار بزخارف زينتها وملذاتها؛ لأنها دار هلاك لمن يطلبها ويلهث وراء شهواتها، مليئة بالآفات ومشحونة بالمصائب والنكبات.

ضرورة التمييز بين الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة

هنا يُطرح السؤال التالي: لماذا وَرَدَ في القرآن الكريم والروايات وفي هذه المناجاة ذمّ الدنيا ووصفها بهذه الصفات المذمومة؟

والسؤال الآخر الذي يُطرح هنا هو: لماذا خلقنا الله في دنيا مليئة بالمكر والخداع وساحة للفتن والآفات؟ فنحن نرى في بعض آيات القرآن الكريم، أن الله تعالى يذم الدنيا ويصفها بالمكر والخداع، ويحذّرنا من الوقوع في حبائل مكرها قائلًا: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1].

---

(١) سورة **لقمان**، الآية ٣٣.

وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

فالحياة الدنيا عرضٌ زائلٌ وسرابٌ باطلٌ لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر؛ وهي التي يتعلّق بها هوى النفس الإنسانية، ببعضها أو بجميعها، وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للإنسان، ولا تجلب أي واحدة منها له كمالًا نفسيًّا ولا خيرًا حقيقيًّا.

وعن شيخنا البهائي رحمه الله أن الخصال الخمس المذكورة في الآية مترتّبة بحسب سني عمر الإنسان ومراحل حياته، فيتولّع أولًا باللعب وهو طفل أو مراهق، ثم إذا بلغ واشتدّ عظمه تعلّق باللهو والملاهي، ثم إذا بلغ أشدّه اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهيّة والمنازل العالية وتولّه للحسن والجمال، ثم إذا اكتهل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب، ثم إذا شاب سعى في تكثير المال والولد[2].

إن معظم آيات القرآن الكريم تذمّ الحياة الدنيا؛ بل لا نجد آيةً واحدةً مدحتها أو وصفتها بأوصاف حسنة، وهنا يأتي السؤال السابق بصورة أكثر جدّيةً عندما ندقّق في ما وَرَدَ من ذمّ الدنيا في القرآن الكريم والروايات وكثير من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب **نهج البلاغة**، ونقارنها مع ما وَرَدَ من مدح الدنيا في بعض الروايات، ومنها ما جاء في

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٠.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، **تفسير الميزان**، الجزء ١٩، الصفحة ١٦٤.

بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في **نهج البلاغة**، مثل قوله: «**إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللَّهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ**»[1].

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام نهى فيها عن ذم الدنيا ولعنها، يقول: «**لا تَسُبُّوا الدُّنيا فَنِعْمَ الْمَطِيَّةُ لِلْمُؤْمِنِ، عَلَيْهَا يَبْلُغُ الْخَيْرَ وَبِهَا ينْجُوا مِنَ الشَرِّ، إِنَّهُ إِذَا قَالَ عَبْدٌ لَعَنَ اللهُ الدُّنيا قَالَتِ الدُّنْيَا لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ**»[2].

وعلى كل حال، فقد وَرَدَ ذمّ الدنيا كثيرًا في القرآن الكريم والروايات. وكذلك ذَمَّ الإمام السجّاد عليه السلام في هذه المناجاة الدنيا بعبارات لم ترد في القرآن الكريم ولا في الروايات الأخرى، فوصفها بالمكر والخداع وبأنها تصطاد عباد الله بحبائل مكرها، وبأنها محشوّة بالآفات ومشحونة بالنكبات، وبأنها بغدرها توقع من يطلبها في شراك الموت.

وبعد كلّ هذا نجد ضرورةً في الإجابة على السؤال السابق، حتى نفهم السبب في ذمّ الدنيا والتحذير منها.

علّة ذم الدنيا

للإجابة على هذا السؤال، نقول إن الدنيا في حدّ ذاتها وبوصفها مخلوقةً لله تعالى ليست مذمومةً ولا قبيحة؛ لأن كل خلق الله حسن وخير، كما

---

(١) **نهج البلاغة**، الحكمة ١٣١.

(٢) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، الجزء ٧، الباب ١٦، الصفحة ٥٠٩، الحديث ٣.

في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[1].

فمن وجهة نظر القرآن الكريم، إن ما في هذا العالم من أرض وسماء وشمس ونجوم وكواكب وإنسان وحيوان وغيرها من المخلوقات، جميعها حسن وخير ومفيد، أما ما نراه من شرّ وضرر قد تسبّبه بعض الحوادث لغيرها من الموجودات والمخلوقات فهو ضرر وشرّ نسبي، فجميع الظواهر في هذا العالم حسن وخير في حدّ ذاته، ولا يوجد شرّ مطلق في جميع مخلوقات الله تعالى. كما أن الظواهر الدنيوية كالقمر والنجوم والبحار والجبال ليس لها عداء مع الإنسان ولا هي ذوات شعور أو إدراك [بالمعنى المتعارف] حتى تحيك المؤامرات ضدّ الإنسان أو توقعه في حبال مكرها، بل جميع مخلوقات هذا العالم تابعة لأوامر الله وإرادته وتسبّح له، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[2].

وحتّى نفهم السبب وراء ذمّ الدنيا ووصفها بالمكر والخداع، ومع اتضاح أن الدنيا ليس لها عقل أو شعور حتى توقع الإنسان في مكرها وخداعها، وليس لها عداء مع الإنسان حتى تريد به السوء والضرر، لا بد أن ندقّق النظر في سلوكنا وأفكارنا ورغباتنا ونعمد إلى تحليلها بالاستعانة بآيات القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام.

بالالتفات إلى أن الله تعالى خلق الإنسان ومّن عليه بالفطرة الصالحة والعقل السليم، وإلى أن فطرته تدفعه نحو محبّة الله وطلب

---

(١) سورة **السجدة**، الآية ٧.

(٢) سورة **فصلت**، الآية ١١.

الخير وإقامة الحقّ، وحُبّ كل ما هو حسن وجميل، فما هي العوامل التي تجعل هذا الإنسان ينحرف عن مسير الحقّ ومسير تكامله ويخالف فطرته السليمة، ليسقط في كمين الشيطان وشراكه؟

ولمّا كانت خصال الإنسان وقابليّاته تمكّنه من ترقّي أعلى مراتب التعالي والكمال، فلماذا يُسيء استعمال هذه الخصال الإنسانية ويحوّلها إلى خصال حيوانية وشيطانية؟ ونحن إذا ما دقّقنا في حياة الناس وحلّلنا سلوكهم في هذه الدنيا، نجد أن جميع الناس عرضة للخطأ وارتكاب الذنوب، أو على الأقل ارتكاب صغائر الذنوب، ما عدا بعضهم كالأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام وأولياء الله والخواص من عباده الصالحين كبعض أولاد الأئمة المعصومين مثل العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام وعلي الأكبر بن الإمام الحسين عليه السلام والسيّدة معصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام (فهم رغم عدم ثبوت عصمتهم إلّا أنهم كانوا يتمتّعون بعصمة عملية). فإذا ما عرفنا أن نسبة هؤلاء المعصومين من سائر الناس هي نسبة قليلة جدًا، وأن أغلب الناس معرّضون للخطأ وارتكاب الذنوب، نسعى الآن إلى مناقشة وتحليل العوامل التي تدفع الإنسان نحو ارتكاب الذنوب ومعصية الله.

العوامل التي تدفع الإنسان نحو المعصية والإنحراف

العامل الأوّل الذي يدفعنا إلى ارتكاب الذنوب ويوقعنا في الانحراف هو مظاهر الدنيا وملذّاتها وشهواتها، فملذّات الدنيا وزخارفها وغرائزنا الحيوانية هي التي تدفعنا نحو ارتكاب الذنوب والمعاصي؛ لأنه لولا وجود اللذّة في الذنوب لما وقع أيّ إنسان عاقل في كمينها، فالإنسان عندما يشعر بلذّة في ارتكاب الذنب قد لا يشعر بمثلها في العمل الحلال،

تدفعه غريزته الحيوانية إلى ارتكاب هذا الذنب والوقوع في المعصية والحرام.

إذًا، فالعامل الأول لارتكاب الذنوب هو الاستمتاع والتلذّذ بمظاهر الدنيا وزخارفها.

العامل الثاني، هو تزيين الشيطان للذنوب في عين الإنسان، فعادةً ما يعمد الشيطان إلى تزيين الذنوب في عين الإنسان، فيدفعه إلى ارتكاب الحرام وترجيح المال الحرام على المال الحلال، وبدل أن يسعى الإنسان إلى العمل والطرق المشروعة لكسب الرزق الحلال يجري وراء الطرق المنحرفة وغير المشروعة لتأمين احتياجاته الدنيوية. فالشيطان يوسوس للإنسان حتّى يمدّ يده للسرقة ويبعده عن كسب المال الحلال، فيسعى لجمع المال والثروة عن طريق السرقة والطرق غير المشروعة، ونتيجةً لتزيين الشيطان لذّةَ المال الحرام في عين الإنسان فهو يندفع إلى ترجيح الحصول على المال الحرام عن طريق السرقة على كسب المال الحلال بالطرق المشروعة.

وقد أثبتت التجارب الكثيرة أن الإنسان يُقدم على ارتكاب الذنب والمعصية طلبًا للذّة والمُتعة؛ لكن ما أن يكتشف حقيقة هذه اللذّة ويُدرك حقارتها وتفاهتها وأنها لم تكن سوى لذّة وهمية زائلة حتى يصيبه الندم والحسرة على ما ارتكب من فعل الحرام، فيلوم نفسه ويؤنّبها على سعيها لطلب لذّةٍ أكبر بالمعصية والحرام والتغاضي عن اللذّة الحلال، إلا أنه مع ذلك ما أن تمضي فترة معيّنة حتى يعود مرّةً أخرى إلى ارتكاب الذنب والمعصية. والسبب في ذلك يعود إلى وسوسة الشيطان وتزيينه اللذّة الحرام في عين الإنسان بعيدًا عن حقيقتها، إلى درجةٍ تدفعه إلى

الوقوع مرّةً أخرى ضحيةً لوسوسة الشيطان وارتكاب هذا الذنب وتلك المعصية مرةً تلو أخرى.

وفيما يتعلق بتزيين الشيطان للذنوب وعمل الحرام في عين الإنسان، يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

العامل الثالث، هو هوى النفس، فنفس الإنسان الأمّـارة بالسوء تدفعه نحو العمل الحرام والطُرق غير المشروعة لإشباع شهواته وغرائزه الحيوانية.

ولولا وجود هذه العوامل الثلاثة، أي اللذّة بزخارف الدنيا ومظاهرها، وهوى النفس وإشباع غرائز الإنسان الحيوانية، وتزيين الشيطان اللذّةَ الحرام وارتكاب الذنوب في عين الإنسان، لما ارتكب الإنسان الذنوب ولما وقع في المعصية.

ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يرتكب الذنوب نتيجةً لهذه العوامل المذكورة، ولا يتجنّب تكرارها، فإن رغبته في ارتكابها ستزداد حتى يعتاد عليها، وبالتدريج يصبح ارتكابه للأعمال السيّئة التي لا تنسجم مع أي مبرّر عقلي أو منطقي سمةً بارزةً في شخصيّته، كأولئك الذين يعتادون على تناول المخدّرات رغم علمهم بمضارّها وتأثيراتها السلبية على حياتهم.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٤.

يسعى الإنسان في العادة للاستفادة من نِعم الدنيا وملذّاتها نظير الأكل والشرب والملبس، وإشباع غرائزه الحيوانية، لكن نظرًا إلى محدودية هذه النِعم وعدم قدرتها على تأمين رغبات جميع الناس واحتياجاتهم، يقع تزاحم بين الأفراد في الحصول على مبتغاهم من هذه النِعم، مما يولّد صراعًا بينهم في سبيل الظفر بالقدر الأكبر من ملذّات الدنيا وتأمين الاحتياجات.

إن وجود هذه المحدودية في توفير متطلّبات الإنسان واحتياجاته، وتزاحم الأفراد وصراعهم في سبيل الظفر بالقدر الأكبر من ملذّات الدنيا وإشباع رغباتهم، يعتبر سببًا رئيسيًّا لوقوع الإنسان في المعصية وارتكاب الذنوب، فلو توفّرت واحدة من هذه النِعم بكثرة وتمكّن الجميع من تأمين احتياجاتهم منها، لما وقع التزاحم عليها بين الناس، فمثلًا وفرة الهواء في الجوّ وتمكّن جميع الناس بمختلف أوضاعهم وظروفهم من الاستفادة منه، تجعله بعيدًا عن صراع الناس وتزاحمهم عليه؛ لأنه متوفّر بكثرة بما يكفي الجميع ويلبّي احتياجاتهم. كذلك لا يحصل بين أفراد المناطق التي يتوفّر فيها الماء بكثرة تزاحم أو نزاع على المياه؛ لأن الجميع يستطيع أخذ ما يكفيه من الماء دون أن يؤثّر على الآخرين، وبالتالي لا يقع الإنسان في المعصية والحرام.

فلو توفّرت النِعم بكثرة بما يكفي جميع الناس ولم توجد أي محدودية في الاستفادة منها بحيث تكون سببًا في تزاحم الناس ونزاعهم، لما أقدم أحد على ارتكاب الذنوب، فإن وجود التزاحم بين المخلوقات يعتبر أحد خصائص هذه الدنيا، وما نشهده فيها من جرائم، وقتل، وحروب، وكذب، وتزييف للحقائق، وإلقاء التُهم الباطلة على الناس، إنما هو بسبب الصراع الشديد بين الأفراد للظفر بما يُشبع حاجتهم من هذه

النِعم وحرمان الآخرين منها، سواء كان الصراع على المنصب أو المال أو الثروة أو غيرها من النِعم الدنيوية.

دور الدنيا وتأثيرها في زلل الإنسان وانحرافه عن الحقّ

اتّضح مما تقدّم وجود عوامل ثلاثة تدفع الإنسان إلى ارتكاب الذنوب، وهذه العوامل هي: ملذّات الدنيا، وهوى النفس، والشيطان، غير أنه ينبغي أن نعرف أن هذه العوامل الثلاثة لا تمثّل العلّة التامّة لارتكاب الذنب، بل إن كل واحد منها يعتبر علّةً ناقصةً وجزء العلّة التامّة، أما الجزء الأخير من العلّة التامّة فهو إرادة الإنسان وإصراره على ارتكاب الذنب.

ونظرًا إلى أننا اعتدنا على أن ننسب أفعالنا إلى فاعل ذي شعور، فإننا عادةً ما ننسب ذنوبنا وانحرافنا عن الحقّ إلى هوى النفس أو الشيطان، لكن طبقًا لوجهة نظر القرآن والروايات يمكن لنا أن ننسبها إلى كل واحد من هذه العوامل الثلاثة، مما يعني أن بإمكاننا القول إن الدنيا هي التي حرفتنا عن جادة الحقّ، ولو أننا كنّا في الجنّة لما ارتكبنا أي ذنب؛ لأن نِعم الجنّة وفيرة جدًا ولا يوجد مورد فيها يؤدّي إلى التزاحم والنزاع بين الناس، أما الدنيا فهي مليئة بموارد التزاحم والصراع لوجود أنواع اللذّة والشهوات وأسباب الذنوب والانحراف.

إن لهذه العوامل دور مهمّ في طغيان الإنسان وتمرّده على الله وارتكابه الذنوب، لكن في الوقت ذاته تعتبر الدنيا ساحةً للهداية وعبادة الله سبحانه، وتتضمّن جميع العناصر اللازمة لتكامل الإنسان وتعاليه، ولو لم تكن الدنيا لما وَجَدَ الإنسان فرصةً لترقّي مراتب الكمال والتعالي.

فالدنيا ذات وجهين، فهي من جهة تعتبر ساحةً لتكامل الإنسان وتعاليه، مما يجعلها مسجدًا لخاصّة عباد الله ومُصلّى لملائكته، وسوقًا لتجارة أولياء الله، يتاجرون فيها مع الله تجارةً لا تبور أبدًا، لينالوا الجنّة والرضوان ثمنًا لمعاملتهم معه عزّ وجلّ وأعمالهم الصالحة في هذه الدنيا. وهي من جهة أخرى مليئة بالملذّات والمظاهر الخدّاعة التي توفّر عوامل انحراف الإنسان وزلله عن جادة الحقّ، وبالتالي سقوطه في كمين الذنوب والمعاصي؛ لذا يمكننا القول إن الدنيا تخدع الإنسان.

ولمّا كان أغلب الناس ينخدعون بالدنيا وزخارفها، نرى معظم النصوص الدينية تتحدّث عن كيفية التعامل مع الدنيا ومظاهرها، فمثلًا أكّدت الروايات على استثمار الدنيا لتكون محلًا للعبادة وأداء الواجبات الإلهية، كما حذّرت الناس من مكر الدنيا وخداعها، وأن لا يتّخذوها وسيلةً لانحرافهم وزللهم عن سبيل الحقّ، كما بالغت في تحذيرنا من الغفلة والوقوع في المعاصي وارتكاب الذنوب. فالأطبّاء كثيرًا ما يتحدّثون عن الأمراض والفيروسات والعوامل التي تؤدّي إلى شيوعها وانتشارها، ويوصون مرضاهم بتجنّب بعض أنواع الأطعمة والأشياء المُضرّة بصحتهم، حتى تتحسّن حالتهم ويتماثلوا إلى الشفاء، ويتجنّبوا الإصابة بالميكروبات والفيروسات، فهم يأكّدون كثيرًا على تجنّب الأمور المُضرّة بحياة المرضى، لكن قلّما نسمع طبيبًا يوصي مرضاه بالأكل والشرب؛ لأن التغذية وتأمين الاحتياجات اليومية من الأمور الطبيعية التي لا يغفل الإنسان عنها في العادة.

فالأطباء إذًا يؤكّدون على الأشياء التي ينبغي على مرضاهم تجنّبها، وأولياء الله والعلماء هم بمثابة الأطبّاء المتديّنين في المجتمع، الذين يوصون الناس بالحذر من مكر الدنيا وخداعها وعدم الابتلاء بالانحراف

وارتكاب الذنوب، قبل أن يوصوهم بجعل الدنيا محلًا لعبادة الله وأداء واجباتهم (رغم أن هذا الأمر يعتبر في مقدّمة المواضيع التي يؤكّد عليها العلماء عند وعظ الناس وإرشادهم)، وهذا الموضوع شبيه بالعلامات المرورية التي توضع على جانبي الطريق لتحذير الناس وتنبيههم إلى وجود المنحدرات والانحناءات والموانع الخطرة التي قد تعترض طريقهم أثناء السير، فلو كان الطريق سليمًا خاليًا من الموانع الخطرة، لما احتاج الناس إلى العلامات المرورية التي تُخبرهم بخلوّ الطريق من الخطر؛ لأن هذه العلامات إنّما توضع لإرشاد الناس وتحذيرهم من الموانع الخطرة والمناطق التي قد تسبّب الحوادث المرورية.

فعندما نقول إن الدنيا تخدع الإنسان وتؤدّي به إلى الانحراف والزلل، فإن ذلك يعود إلى وجود عوامل المعصية والذنوب والانحراف فيها، فتكون ساحةً لانحراف الإنسان وابتعاده عن طريق الحقّ.

لكن ما السبب الذي يجعلنا ننسب إلى الدنيا صفة المكر والخديعة والحيلة بسبب وجود العوامل المساعدة على ارتكاب الذنوب والانحراف؟ وحتى نتوصّل إلى إجابة صحيحة على هذا السؤال، ينبغي أوّلًا أن نتعرّف على موارد استعمال ألفاظ «الحيلة» و«الخداع» و«المكر»، فمثلًا لو كان الإنسان يسير في طريقه للوصول إلى مقصده، ثم قام شخص آخر بتغيير وجهته وإبعاده عن مسيره السابق، فإننا نطلق على سلوك الشخص الثاني - الذي سعى إلى حرف الإنسان عن مقصده الصحيح - اصطلاح المكر والخديعة.

وقد خلقنا الله تعالى لتحقيق هدف مقدّس ألا وهو خلافته في الأرض، حيث بيّن سبحانه في القرآن الكريم الغاية من خلق الإنسان في

قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١]، كذلك بيّن سبحانه أن الهدف من خلق الإنسان هو السير نحو منزله الأبدي في الآخرة للتمتّع بنعم الجنّة، والخلود فيها بالقرب منه عزّ وجلّ، ومنزل الإنسان في الجنّة يشبه البيت الذي سألتْ امراة فرعون ربّها أن يبنيه لها في الجنّة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢]. ويخبرنا الله عن شأن هذا المنزل ومكانته قائلًا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٣].

لقد هيّأ الله لنا كل العوامل والأسباب اللازمة لبلوغ ذلك المقصد المتعالي؛ إذ مَنَّ علينا بالهداية الفطرية، والهداية العقلية، والهداية بواسطة الأنبياء ودين الإسلام، حتّى نهتدي إلى طريق الحقّ ونسير فيه بخطىً ثابتة لبلوغ غايتنا ومقصدنا النهائي، فلو اعترضتْ طريقنا بعض الموانع والعوامل التي تعيق حركتنا وتحرفنا عن مسير سعادتنا وهدايتنا وتوقعنا في المعصية والذنوب، وبدلًا من الوصول إلى منزلنا في الجنّة وكسب رضوان الله، سقطنا في حضيض جهنّم، وابتلينا بغضب الله وعذابه، أفلا يُعدّ هذا مكرًا وخديعة؟ بل هل يوجد مكرٌ وخديعة أشدّ ضررًا من الضرر الذي قد يلحق بالإنسان عندما ينحرف عن مسير الحقّ، وبدلًا من الفوز بالجنّة ورضوان الله، يخلد في قاع جهنّم وينال عذابها إلى الأبد؟

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٣٠.

(٢) سورة **التحريم**، الآية ١١.

(٣) سورة **القمر**، الآيتان ٥٤ - ٥٥.

المقال الثاني والستون
زهد أولياء الله، ونبذهم الدنيا وملذّاتها (٢)

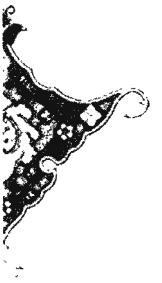

مراجعة المواضيع السابقة

ناقشنا في المبحث السابق مقطعًا من مناجاة الزاهدين، يشتكي فيه الإمام السجّاد عليه السلام من مكر الدنيا وخداعها، ويستعيذ بربّه من الوقوع في مكائدها وحيلها، ويلجأ إليه سبحانه لكي ينقذه من براثنها.

كما طرحنا حول هذا الموضوع عدّة أسئلة، أحدها: لماذا ننسب صفة المكر والخداع إلى الدنيا، مما يجعلها مذمومةً وقبيحة؟ وتتلخص الإجابة على هذا السؤال في أن ظهور ونشوء كل ظاهرة في هذا الكون يعتمد على عدّة عوامل تشترك في تكوينها، عبّرنا عنها باصطلاحات «المقتضي»، «الأسباب»، «الشروط السلبية»، «الشروط الإيجابية»، «العوامل الإعدادية»، و«العوامل الإيجادية»، وكل واحد من هذه العوامل يعتبر علّةً ناقصة، تجتمع مع بعضها تحت عنوانٍ كلّي وجامع هو العلّة التامّة.

ونظرًا إلى مساهمة كل عامل من هذه العوامل في نشوء المعلول أو الظاهرة؛ يمكن أن ننسب هذه الظاهرة إلى أي واحد من هذه العوامل، لكن هذا - بالطبع - يعتمد على قواعد البلاغة في الخطاب من جهة

المكان والزمان والظروف الموضوعية التي تجعلنا ننسب هذه الظاهرة إلى عامل معيّن دون غيره.

كما أن تأكيد القرآن الكريم وأحكامه وتعاليمه كثيرًا على التوحيد ودعـوة الناس إلى عبادة الله وطاعته، يجعلنا عـادةً ما ننسب هذه الظواهر إلى الله تعالى بوصفه العلّة الإيجادية لها، فمثلًا وَرَدَ في القرآن الكريم أن الله أنزل من السماء ماء، ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1]؛ فأنبت به النباتات والأشجار، ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]؛ ثم يرزقكم مما يُنبت في الأرض من ثمار وخضار رزقًا حلالًا طيبًا، ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[3].

ومن الطبيعي أن نزول المطر من السماء لا بدّ أن تسبقه مجموعة من المقدّمات والأسباب والظروف الجوّية الملائمة، كذلك تشترك مجموعة من العوامل في عملية توفير وتهيئة الغذاء للإنسان، ومع ذلك كله إلا أننا ننسب جميع الأمور والظواهر إلى الله تعالى باعتبارة العلّة الإيجادية لها؛ فالله سبحانه هو مسبّب الأسباب وجميع الأمور تحدّث بإذنه وإرادته، ويعود ذلك أيضًا إلى تأكيد تعاليم القرآن الكريم على إبراز الدور المحوري لله تعالى في نشوء جميع الظواهر والأشياء.

نعم، نُسبت بعض الظواهر إلى العوامل الأخرى أيضًا، فقد نسب الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاته انحرافات الإنسان وزلله عن طريق

---

(١) سورة **الزخرف**، الآية ١١.

(٢) سورة **النحل**، الآية ١١.

(٣) سورة **النحل**، الآية ١١٤.

الحقّ إلى الدنيا؛ لوجود ثلاثة عوامل أساسية تشترك في انحراف الإنسان عن الحقّ، وهي: هوى النفس، الشيطان، والدنيا، فلو لم توجد ملذّات الدنيا وشهواتها لما ارتكب الإنسان الذنوب ولما وقع في المعصية، ونظرًا إلى كون الدنيا وملذّاتها عاملًا من عوامل حدوث الانحراف والزلل عن الحقّ؛ فيمكن أن نعتبر الدنيا سببًا في انحراف الإنسان وارتكابه الذنوب، ووصفها بالمكر والخديعة.

ما هو المقصود من مكر الدنيا وخداعها

السؤال الآخر الذي يُطرح حول هذا الموضوع هو: ما هي حقيقة مكر الدنيا وخداعها، وما هو مصداقه؟ لقد منّ الله علينا في هذه الدنيا بِنعم كثيرة، منها: الهواء الذي نتنفّسه، والنور الذي يُضيء لنا ما حولنا ونرى به الأشياء، والطيّبات من الطعام والشراب التي نتغذّى منها، وكذلك طبيعة الحياة التي نعيشها وما فيها من ملذّات ومظاهر الرفاه والراحة.

وبملاحظة ذلك فما المقصود بمكر الدنيا وخداعها؟ ولمّا كانت الدنيا تحتوي على كل المتطلّبات والوسائل اللازمة لعبادة الله وعبوديّتنا له تعالى، ولمّا كنا نستفيد من كل ما تحمله من طيّبات لنكتسب القوّة اللازمة التي تمكّننا من أداء حقّ العبادة والعبودية لله تعالى، فلماذا توصف كموجود ماكر ومخادع يسعى لإيقاع الإنسان في براثن مكره؟

وحتى نتوصّل إلى جواب مُقْنع لهذا السؤال، نحتاج إلى مناقشة وتحليل الخصائص التي تميّز عوامل المكر والخديعة، والظروف المحيطة بالإنسان التي تجعله ضحيّةً لهذه العوامل.

ما من شكّ في أن الشيء الذي يخدع الإنسان لا يمكن أن يخلو من الجاذبية أو أن يكون قبيحًا أو مكروهًا، بل لا بدّ من أن يحمل صفات

جميلة تجذب نحوها الإنسان. مثلًا، عندما يريدون أن يخدعوا طفلًا تمسّك بلعبةٍ غالية الثمن حتى يتركها، تراهم مثلًا يجلبون له حلوى أرخص ثمنًا بكثير من تلك اللعبة، ولكونها تُثير مشاعر الطفل وتجذبه نحوها بألوانها الجميلة وطعمها اللذيذ، فإنه يأخذها ويترك اللعبة الغالية الثمن. فالطفل لم يكن يعرف قيمة تلك اللعبة؛ لذا فضّل الحلوى عليها، وبالتالي كان مستعدًا للقبول بعملية التبادل، بأن يأخذ الحلوى ويعطيهم اللعبة الثمينة. ومن هنا فعندما يريدون خداع شخصٍ ما حتى يستولوا على ما بحوزته من سلعة غالية الثمن وذات قيمة عالية، أو يريدون منعه من الوصول إلى مقصده، فإنهم يزيّنون له سلعةً رخيصة الثمن بظاهر جميل وجذّاب جدًا، حتى ينخدع بمظهرها الجذّاب الجميل، ويفضّلها على السلعة الغالية الثمن.

تصوّروا أننا كنّا نعتقد أن عملنا هذا ومحاضراتنا الأخلاقية يمكن أن تجلب لنا خيرًا ينفعنا في آخرتنا، وهو عندنا أفضل وأكثر قيمة من كل ملذّات هذه الدنيا، لكن جاء شخص ما وأقنعنا بكلامه أو عمله وجَعَلَنا نستبدل هذا الخير والثواب الأخروي والأبدي، بالتمتّع ببعض الملذّات الدنيوية المحدودة والزائلة، أليس هذا نوع من المكر والخداع؟ لا شكّ أن ما سيغرّنا به لا يخلو من اللذّة والجاذبية فهو كالحلوى التي انخدع الطفل بها، له شيء من اللذّة والمظهر الجميل، ولو لم يكن فيها أي لذّة أو منفعة لما انخدع الإنسان بها.

وعلى كل حال، إن هذه اللذّة الزائلة لا تساوي شيئًا مقابل الخير والثواب الأبـدي واللذّة المطلقة التي يمكن أن نحصل عليها بعلمنا ومحاضراتنا الإرشادية؛ لهذا وقعنا ضحيّة المكر والخديعة فاستبدلنا هذا الخير والثواب الأبدي بسلعة رخيصة الثمن وعديمة القيمة.

إن ما في هذه الدنيا من طيّبات، وملابس، وأموال، وأولاد، وزوجة، ومنزل واسع، وسيّارة فارهة، جميعها من نِعم الله التي منَّ بها علينا، لكن لو صرف الإنسان جلّ وقته وجهده في اللهاث وراء الحصول عليها، ومنعته من السعي وراء الظفر بهذا الخير والثواب الأبدي، فإنه سيخسر ويقع ضحية الانخداع بمظاهر الدنيا وملذّاتها. وحتى يتجنب الإنسان هذه الخسارة، لا بأس في أن يصرف قليلًا من وقته في الحصول على بعض نِعم هذه الدنيا، ثم يسعى فيما بقي من وقته لإعمار آخرته والحصول على ثوابها الأبدي.

فمثلا، لو أخذنا مبلغًا زهيدًا من المال الذي حصلنا عليه من ثمرة عملنا وجهدنا، واشترينا به مقدارًا من التفّاح بقيمة محدودة، فإننا سننعم بلذّة أكله وهي لذّة محدودة أيضًا، لكن لو صرفنا جزءًا بسيطًا من وقتنا في العمل من أجل إعمار آخرتنا، فإن الله تعالى سيُثيبنا على سعينا وما قمنا به من عمل صالح التلذذَ بِنعم الجنّة، وما فيها من خيرٍ وفيرٍ وفاكهة كثيرة مما تشتهي الأنفس لا تنفذ أبدًا، وسنتلذّذ بحلاوة طعمها لذّةً لا يمكن وصفها، وهو لذة متوفرة يمكن أن الحصول عليها متى شئنا ومن غير عناء أو تعبٍ أو مشقّة.

والله قد منّ علينا بكل هذه النِعم الأبدية جزاءً على عمل خير بسيط قمنا به، بل حتى الكلمة البسيطة التي يمكن أن نهدي بها الآخرين إلى طريق الحقّ، تستحقّ عند الله جزاءً وفيرًا يفوق كل ملذّات هذه الدنيا ونِعمها، كما وَرَدَ على لسان رسول الله ﷺ في قوله لأمير

المؤمنين عليه السلام: «**لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمسُ مِنْ مَشَارِقِهَا إلى مَغَارِبِهَا**»[1].

وعليه، فإذا ما استبدل الإنسان سعيه في الحصول على نِعم الآخرة الأبدية غير المحدودة، بالسعي وراء الحصول على مقدار قليل من فاكهة الدنيا ونِعمها المحدودة، فسنقول عن هذا الإنسان إنه تعرّض لخسارة فادحة ووقع ضحيّةً للمكر والخديعة؛ ولذا فلو قلنا إن الدنيا ماكرة ومخادعة، فليس لكونها سمًّا زعافًا قاتلًا، بل لأنها تتزّين للإنسان وتجذبه ملذّاتها ومظاهرها الخادعة حتى يغفل فيها عن العمل لآخرته، فيصرف جلّ وقته وجهده في اللهاث وراء متاعها وينسى متاع الآخرة الأكثر قيمةً ونفعًا وخيرًا.

إن الدنيا مليئة بالنِعم والخير الوفير، فالعمل الصالح الذي يستحقّ الجزاء الوافر من الله إنما يحصل بواسطة العين أو اللسان أو اليد التي تمثّل بعض نِعم هذه الدنيا، وبالإفادة من الهواء والإمكانيات المتوفّرة فيها. والمال الذي ينفقه الإنسان في أوجه الخير، إنما يكسبه بالعمل في هذه الدنيا، والتعامل بالحُسنى والكلمة الطيبة مع الآخرين إنما يتم بواسطة اللسان الذي يمثّل أحد مظاهر الدنيا، واليد التي يحنو بها على اليتيم هي الأخرى من نِعم الدنيا. إذًا، فالدنيا في حدّ ذاتها ليست سيّئةً ولا قبيحة، لكن المهمّ هو كيف يوظّف الإنسان الإفادة من نِعمها، وما هي أوجه استثمارها.

لو كان الإنسان يعتقد بأصالة الدنيا، وأن الدنيا خُلقت لأجل التمتّع بملذّاتها والانتفاع من نِعمها في سبيل إعمارها، فسيكون استثماره لهذه

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ١، الباب ٦، الصفحة ٢١٦، الحديث ٢٦.

الدنيا استثمارًا خاطئًا وقبيحًا، وحينها يمكن القول إن هذا الإنسان وقع ضحيةً لخداع الدنيا ومكرها؛ لأنه استبدل آخرته بدنياه.

وفي المقابل، فلو أن الإنسان لم يكن معتقدًا بأصالة الدنيا واستقلالها، بل بأن كل ما يقوم به من أعمال صالحة فيها إنما هو لكسب رضوان الله تعالى وإعمار آخرته، وبوجوب جعله من *الدنيا* وسيلةً وأداةً لبلوغ مقام *السعادة* الأبدية في الآخرة، فمثل هذا الإنسان يكون قد استثمر الدنيا *الاستثمار الصحيح*، وجعلها وسيلةً لبلوغ كماله المطلوب، ومحلًا للتجارة مع الله تجارةً مربحةً لا تبور. فالدنيا تكون سيّئةً وقبيحةً وتتّصف بالمكر والخديعة إذا ما كانت سببًا في حرمان الإنسان من سعادته الأبدية في الآخرة، أو موردًا للاستفادة من النِعم في الأعمال التي تجعله يستحقّ عذاب الأخرة الأبدي. فلو استعمل الإنسان لسانه في الغيبة والنميمة والإساءة إلى الآخرين، بدل أن يستعمله في الخير والصلاح والكلام الطيّب مع الناس والعطف عليهم، فإنه يستغّل نِعم الدنيا وإمكاناتها استغلالًا لا يحرمه ثواب الآخرة فحسب، بل يجعله مستحقًا لعذابها أيضًا.

فالإنسان الغافل يتعلّق بملذّات الدنيا ومظاهرها الزائلة، ولا يسعى للانتفاع من نِعمها كوسيلة للوصول إلى التلذّذ بنعم الآخرة الأبدية؛ بل قد يصرف وقتًا طويلًا في سبيل التلذّذ بمتعةٍ لا تتجاوز دقائق معدودة، حتى إنه قد يفني عدّة سنوات من عمره في سبيل الحصول على لذّة لا تدوم سوى عدّة أيام. فنحن نرى بعض الناس يعملون لعدّة سنوات حتى يجمعوا المبلغ اللازم لشراء سلعة معيّنة كسيّارة مثلًا، ثم يأتي لص يسرقها منه قبل أن ينتفع منها، كذلك قد يصرف البعض معظم سنوات عمره في بناء منزل واسع، لكن يأتي أجله ويموت قبل أن يسكن فيه.

فلو صرف هؤلاء الناس بعض سنوات عمرهم لبناء منزلهم في الآخرة، لتمتّعوا بلذّة نِعم الله الأبدية، ولما خسروا شيئًا، بل كانوا سيجنون ثمرة عملهم البسيط هذا خيرًا وثوابًا عظيمًا لا يُقَارَن أبدًا بقيمة هذا العمل البسيط.

الدنيا ساحة لرقي الإنسان وتعاليه

وهنا يُطرح سؤال آخر حول هذا الموضوع، وهو: لماذا خلقنا الله تعالى في دنيا تتربّص بنا لتوقعنا في مكرها وحيلها وتسعى لحرفنا عن جادة الحقّ، وإذا ما غفلنا لحظةً واحدةً أوقعتنا في براثن مكرها وأرسلتنا إلى عذاب جهنم الأبدي؟ ولماذا لم يرسلنا الله مباشرةً بعد خلقنا إلى الجنّة لننعم بطيّبات نِعمها دون مشقّة وعناء ونتخلّص فيها من مكر الدنيا وخداعها، ونعيش فيها في ظل رحمة الله الواسعة نتلذّذ بِنعمها اللامتناهية؟

هذا السؤال ناشئ عن الجهل بالحكمة من وجود الجنّة والشروط اللازمة لدخولها، فقد أكّدت تعاليم القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة على أن دخول الجنّة والتلذّذ بِنعمها غير المحدودة يتطلّب من الإنسان الالتزام بطاعة الله وعبادته وقيامه بالأعمال الصالحة التي تؤهّله لدخول الجنّة، فالعمل الصالح شرط دخول المؤمنين الجنّة. فلو كان الإنسان ممتلكًا العقل والفكر السليم في الدنيا فإنه سيسعى حتمًا إلى طاعة الله وعبادته والقيام بالأعمال الصالحة، حتى يمهّد الطريق لدخول الجنّة والتلذّذ بطيّباتها ونِعمها الأبدية.

وبعبارة أخرى: كل عمل صالح يقوم به الإنسان يقابله نصيب من نِعم الجنّة وطيّباتها، وكلّما ازدادت أعمال الإنسان الصالحة ازداد نصيبه

من نِعم الجنّة وطيّباتها، وحظي بمرتبة أعلى ومقام أقرب إلى الله في الجنّة.

وعلى ضوء ما تقدّم، ينقل الإمام الباقر عليه السلام روايةً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاء فيها: «**مَنْ قَالَ «سُبْحَانَ اللَّه» غَرَسَ اللَّهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً في الْجَنَّة، وَمَنْ قَالَ «اَلْحَمْدُ لِلَّه» غَرَسَ اللَّهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً في الْجَنَّة، وَمَن قَالَ «لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ» غَرَسَ اللَّهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً في الْجَنَّة، وَمَن قَالَ «اَللَّهُ أَكبَرُ» غَرَسَ اللَّهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً في الْجَنَّة. فَقَالَ رَجُلٌ من قُرَيش: يا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ شَجَرَنَا في الْجَنَّة لَكَثِيرٌ. فَقَالَ: نَعَمْ وَلَكِنْ إِياكُم أَن تُرْسِلُوا عَلَيهَا نيرَانًا فَتُحْرِقُوهَا وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يقُولُ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾[1]»[2].

كذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حول بعض الأحداث التي مرّ بها في ليلة المعراج، قوله: «**لَمَّا أُسْرِي بِي إلى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا قِيعانًا بُقعًا مِنْ مِسْك، وَرَأَيْتُ فِيهَا مَلائِكَةً يَبْنُونَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَب وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ وَرُبَّمَا أَمْسَكُوا، فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَكُمْ رُبَّمَا بَنَيْتُمْ وَرُبَّمَا أَمْسَكْتُمْ؟ فَقَالُوا حَتَّى تَجِيئَنَا النَّفَقَةُ. قَالَ: وَمَا نَفَقَتُكُمْ؟ قَالُوا: قَولُ المُؤْمِنِ سُبحَانَ اللَّه وَالحَمْدُ لِلَّه وَلا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكبَرُ، فَإِذَا قَالَهُنَّ بَنَيْنَا وَإِذَا سَكَتَ وَأَمْسَكَ أَمْسَكنَا**»[3].

---

(١) سورة **محمد**، الآية ٣٣.

(٢) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، الجزء٧، الباب ٣١، الصفحة ١٨٦، الحديث ٩٠٧٤.

(٣) الديلمي، **إرشاد القلوب إلى الصواب**، الحرء ١، الباب ٢١، الصفحة ٧٧.

بيّنت آيات القرآن الكريم والرويات الكثيرة المسؤوليات المناطة بالملائكة من قبل الله تعالى في عالم الآخرة، ومنها قيام مجموعة من الملائكة بمسؤولية حراسة الجنّة وعدم السماح بدخولها إلا لمن أذن الله لهم بدخولها من المؤمنين، وبعد أن يدخولها يخاطبهم هؤلاء الحراس: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1].

كذلك أوكل الله مهمّة حراسة جهنّم لتسعة عشر نفرًا من الملائكة ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[2]، وصفهم بالغلاظ الشداد. فبعد أن يحذّر الله تعالى المؤمنين من الابتلاء بالعذاب في نار جهنّم، يصف هؤلاء الملائكة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3].

والسؤال هنا هو: هل أن لهؤلاء الملائكة - الموكلين بمهمة حراسة الجنّة وخدمة المؤمنين من أهلها - هل أن لهم نصيبًا من الثواب الذي كتبه الله للمؤمنين، والتلذّذ بنعم الجنّة وطيّباتها؟ كذلك بالنسبة للملائكة الموكلين بحراسة جهنّم وتعذيب الكفّار من أهل النار، هل يصيبهم شيء من عذابها ويشعرون بحرّ نارها؟

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٧٣.
(٢) سورة **المدثر**، الآية ٣٠.
(٣) سورة **التحريم**، الآية ٦.

ورابعًا: أنهم غير مغلوبين؛ لأنهم إنما يعملون بأمر الله وإرادته، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]»[2].

الدنيا ميدان الاختبار وانتخاب طريق السعادة أو الشقاء

طرحنا في المباحث السابقة السؤال التالي: لماذا لم يخلقنا الله مباشرةً في الجنّة، ويجنّبنا العيش في دنيا مليئة بالمكر والخداع والحيلة، تكثر فيها المنزلقات الخطيرة والانحرافات المهلكة والوديان المهولة من المعاصي والذنوب؟

وقلنا إن الإجابة هي: أننا لو لم نُخلق في الدنيا، لما استطعنا فهم وإدراك قيمة النِعم الأخروية، وبالتالي لن نستفيد من دخولنا الجنّة، ولما كنا شعرنا بلذّة الانتفاع من نِعمها وطيّباتها، فنحن نعمّر آخرتنا ونبني جنّتنا بأعمالنا الصالحة في الدنيا، وبدون تلك الأعمال الاختيارية لن نحظى في الجنّة لا بحديقة ولا بستان، ولن نشعر باللذّة الأبدية في نِعمها وطيّباتها. وعليه فلو لم تكن الدنيا موجودةً، ولو لم نكن نعيش فيها، لما دخل أي أحد منا جهنّم ليعذب فيها عقابًا على أعمالة السيّئة وذنوبه ومعاصيه، ولما دخل أحد الجنّة ليتنعّم بطيّباتها جزاءً على أعماله الصالحة في الدنيا، فنحن خُلقنا في الدنيا لتكون محلًا لإعمار آخرتنا، وجزاءً على أعمالنا الصالحة يثيبنا الله تعالى بدخول الجنّة ويمنّ علينا فيها بقصرٍ وحورٍ عين ونِعم أبدية أخرى نعجز عن فهمها أو إدراك عظمتها، جنّة عندما يدخلها أهل الجنّة يقول لهم الملائكة الموكلون

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ٤٤.

(٢) محمد حسين الطاطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ١٧، الصفحة ١٢.

بحراستها: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾[1].

فالإنسان عندما يجعل الدنيا محلًا للعبادة ومساعدة الآخرين والقيام بالأعمال *الصالحة* التي علّمها إياه الله تعالى بواسطة الأنبياء والمرسلين، فإنه سيحظى بالسعادة الأبدية في الآخرة. كما أن الدنيا لمّا كانت تحتوي على الأدوات والإمكانات اللازمة للقيام بهذه الأعمال الصالحة، أمكن القول إنها دنيا مهمّة وذات قيمة عالية؛ لأنها يمكن أن تصبح وسيلةً لنيل السعادة الأبدية والفوز بالجنّة، وكسب رضوان الله تعالى.

وعلى ضوء ذلك، فعندما يتمّ ذم الدنيا ووصفها بالصفات السلبية، فإنما ذلك بسبب نظرة الإنسان إليها، واعتقاده بأصالتها، وجعلها هي الهدف والغاية، فتراه يسعى للحصول على ملذّاتها حتى لو اضطر لاستعمال الوسائل غير المشروعة.

وعندما نقول إن الإنسان يحظى بالسعادة والجنّة جزاءً على أعماله الصالحة، فهذا يعني أنه يقف في الدنيا عند مفترق طريقين، الأول يوصله إلى الجنّة، والثاني ينتهي به إلى جهنّم، فلو اختار الإنسان السير في طريق الجنّة، واختار القيام بالأعمال الصالحة، فإنه سيصل إلى الجنّة ويفوز بسعادته الأبدية. وبالطبع، لا بد أن نُدرك أن تعلّق الإنسان الشديد بالأمور المادّية واللذائذ الدنيوية، وما قد يواجهه من موانع ومعوقات شديدة في مسير كماله وسعادته، سيجعل من طي طريق السعادة والجنّة أمرًا صعبًا وشاقًا جدًا. فمن الطبيعي، أن تتخلّل المشقّة والصعوبة الشديدة مسير الإنسان لنيل سعادته وفوزه بالجنّة ونعمها الأبدية، فهذا

---

(١) سورة ق، الآيتان ٣٥ - ٣٦.

والإجابة عن هذين السؤالين، هي أن الملائكة الموكلين بحراسة الجنّة ليس لهم نصيب من نِعمها والتلذّذ بطيّباتها؛ لأن هذه النِعم الأبدية قد جعلها الله ثوابًا وجزاءً للأعمال الصالحة التي قام بها المؤمنون، كذلك الحال بالنسبة للملائكة الموكلين بحراسة جهنّم فهم لن يتعرّضوا لبلائها والعذاب بنارها؛ لأنهم مقرّبون من الله ومعصومون من الخطأ، ولم يرتكبوا أيّ خطأ يستحقّون عليه العذاب، بل العذاب في نار جهنّم يكون من نصيب الكافرين والمذنبين الذين عصوا بإرادتهم أوامر الله ولم يؤدّوا تكاليفهم الإلهية.

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي حول هذا الموضوع: «قال في التفسير الكبير في ذيل الآية: وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلّفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه، والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي.

وفيه أن الآية وغيرها - مما تصف الملائكة بمحض الطاعة من غير معصية - مطلقة تشمل الدنيا والآخرة، فلا وجه لتخصيص تكليفهم بالآخرة. ثم إن تكليفهم غير سنخ التكليف المعهود في المجتمع الإنساني، بمعنى تعليق المكلِّف - بالكسر - إرادتـه بفعل المكلَّف - بالفتح - تعليقًا اعتباريًا يستتبع الثواب والعقاب في ظرف الاختيار وإمكان الطاعة والمعصية، بل هم خلق من خلق الله لهم ذوات طاهرة نورية لا يريدون إلا ما أراد الله ولا يفعلون إلا ما يؤمرون [...] ولذلك لا جزاء لهم على أعمالهم من ثواب أو عقاب، فهم مكلّفون بتكليف تكويني غير تشريعي مختلف باختلاف درجاتهم»[1].

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ١٩، الصفحة ٣٣٤.

وفي محل آخر من الكتاب، يبيّن العلامة الطباطبائي صفات أربعة للملائكة، فيقول: «والـذي ذكـره الله سبحانه في كلامه - وتشايعه الأحاديث السابقة - من صفاتهم وأعمالهم هو:

أولًا: أنهم موجودات مكرمون هم وسائط بينه تعالى وبين العالم المشهود فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلا وللملائكة فيها شأن وعليها ملك موكل أو ملائكة موكلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات، وليس لهم في ذلك شأن إلا إجراء الأمر الإلهي في مجراه أو تقريره في مستقرّه كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وثانيًا: أنهم لا يعصون الله فيما أمرهم به فليست لهم نفسية مستقلّة ذات إرادات مستقلّة تريد شيئًا غير ما أراد الله سبحانه فلا يستقلّون بعمل ولا يغيّرون أمرًا حمّلهم الله إيّاه بتحريفٍ أو زيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

وثالثًا: أن الملائكة - على كثرتهم - على مراتب مختلفة علوًا ودنوًا؛ فبعضهم فوق بعض، وبعضهم دون بعض، فمنهم آمر مطاع، ومنهم مأمور مطيع لأمره، والآمر منهم آمر بأمر الله حامل له إلى المأمور، والمأمور مأمور بأمر الله مطيع له، فليس لهم من أنفسهم شيء البتة، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[3].

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٢٧.

(٢) سورة **التحريم**، الآية ٦.

(٣) سورة **الصافات**، الآية ١٦٤.

حال كل من يروم الحصول على سلعة ثمينة ونادرة، وحال كل من يروم بلوغ غاية قصوى وهدف سام في حياته، فأي شاب يريد الحصول على وظيفة معيّنة في شركة أو مؤسّسة، لا بد أن يهيئ أوّلًا مُستلزمات القبول فيها، وهي أن يسعى بجدٍ لإكمال مراحل دراسته بتفوّق واجتهاد، حتى يحصل على الشهادة الجامعية المطلوبة، ثم يسعى إلى إقناع مسؤولي هذه الشركة من خلال مراجعاته المستمرّة وعلاقاته الاجتماعية وغيرها. ثم لو تحقّق حلمه وعمل في الشركة، ثم عَمَدَ إلى توفير جميع رواتبه الشهرية طيلة حياته دون أن ينقص شيئًا منها، فربّما لن يتمكّن بهذا المبلغ من المال من شراء منزل للسكن فيه. فِمثل هذا الإنسان كيف لا يتحمّل صعوبة دقائق قليلة يقضيها في عبادة الله والقيام بالأعمال الصالحة التي ترفع مقامه عند الله ليجزيه عنها الجنّة والسعادة فيها، تلك الجنّة التي يصف الله تعالى عظمتها في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

فالدنيا إذًا ساحة تتوفّر فيها كافّة الإمكانات اللازمة لترقّي الإنسان مراتب كماله وتعاليه؛ إذ يمكنه استثمار فرصة العيش فيها لطيّ مراتب الكمال والسعادة مرتبةً بعد أخرى حتى نبلغ أسمى مراتب الإنسانية والمقامات الإلهية، ليمنّ الله علينا برضاه والخلود في الجنّة لنتنعّم بطيّباتها ونعمها. فلو لم نُخلق في هذه الدنيا لبقينا ترابًا كما كنّا، وهذا يعني أنها تكتسب قيمتها وأهميّتها في ظل وجود هذه الإمكانيات التي تمكّننا من بلوغ هدفنا في الفوز بالجنّة.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٣.

أما ما نـراه من ذمّ الدنيا في النصوص الدينية، وشكوى الإمام السجّاد عليه السلام منها في مناجاته، حين يناجي ربّه قائلًا: «**إلهي أَسْكَنْتَنا دارًا حَفَرَتْ لَنا حُفَرَ مَكْرِها، وَعَلَّقَتْنا بِأَيْدِي الْمَنايا فِي حَبائِلِ غَدْرِها**»، فإنما هو بمثابة تحذير لنا من الوقوع ضحيّة مكر الشيطان، وخداع *مظاهر الدنيا*، وتحذير من *الاعتقاد بأصالتها*، وجعلها هدف حياتنا وغايتها.

نعم، نحن نرى أن تعاليم الدين، وكلام الأئمة المعصومين، والكثير من آيات القرآن الكريم، قد حذّرتنا من الانخداع بمظاهر الدنيا وملذّاتها الزائلة، واللهاث وراءها والغفلة عن الآخرة.

ونذكر هنا عددًا من آيات القرآن الكريم التي وَرَدَ فيها ذم الدنيا:

١. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[١].

٢. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

٣. قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ

---

(١) سورة **لقمان**، الآية ٣٣.

(٢) سورة **يونس**، الآية ٢٤.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

لكن رغم كل هذا الذم للدنيا والتحذير من الانخداع بمظاهرها الذي ورد في القرآن الكريم والروايات الكثيرة خاصّةً ما ورد في أغلب خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، نرى الناس تتعلّق بشدّة بهذه الدنيا ولا يدّخرون جهدًا في سبيل الفوز بملذّاتها حتى أنهم يصمّون آذانهم عن سماع كل هذه التحذيرات من الانتفاع الخاطئ بالدنيا، فيغفلون عن الأخطار التي يمكن أن تواجههم فيها، ولا يشعرون بحُفر الذنوب التي وضعتها في طريقهم. وهم لا يُدركون أن الدنيا تعبّد لهم طريقين أحدهما يوصلهم إلى الجنّة وتحقيق سعادتهم الأبدية، والآخر ينتهي بهم إلى جهنّم والعذاب بنارها، فلو لم ينتبهوا إلى ما قد يعترض طريقهم من المخاطر، وأغمضوا أعينهم عن النظر إلى قدّامهم، لسقطوا في حُفر الذنوب، ولانتهى مصيرهم إلى جهنّم يشقون بعذابها، ولحُرموا من الجنّة وسعادتها الأبدية.

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٠.

المقال الثالث والستون
زهد أولياء الله، ونبذهم الدنيا وملذّاتها (٣)

تجلّي روح التوحيد في سلوك أولياء الله

إن روح مناجاة الزاهدين للإمام السجّاد عليه السلام ورسالتها الأصلية هي الطلب من الله تعالى، لأن الأصل الأول في تعاليم الإسلام هو الدعوة إلى التوحيد، وروح التوحيد تتجلّى في كافة أعمال الإنسان وسلوكياته وأقواله، ومن بينها الدعاء والمناجاة. ويجب علينا أن نعتقد أن مقدّرات جميع الأمور - ومنها احتياجاتنا الضرورية - لا تتحقّق إلّا بإرادة الله وتوفيقه، ولا يمكننا أبدًا فعل أي شيء بدون مساعدة الله وتوفيقه.

ولتقوية روح التوحيد عند الإنسان وزيادة اعتقاده بأن جميع الأمور لا تتحقّق إلّا بإرادة الله، وأن الله هو الخالق الوحيد والقدرة المطلقة في هذا الكون، توجّب علينا أن نقرأ سورة الحمد في جميع صلواتنا، ونخاطب الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وعندما نقوم من السجود، نقول: «**بِحَولِ اللهِ وقُوَتِهِ أقُومُ وأقعُدُ**».

وقد هيأ الله تعالى مجوعةً من الوسائل والأسباب في هذه الدنيا لتكون عونًا لنا في حياتنا؛ لذا ينبغي علينا الانتفاع منها لبلوغ غاياتنا الإلهية. فحال من لا يفيد من الأسباب الموجودة حوله، ويطلب العون من

الله، كحال من يرمي بنفسه في البئر ثم يسأل الله أن يحفظه؛ لأن سنّة الله تقضي بأن كل من يعرّض نفسه للخطر، سيصاب بالضرر.

إذًا، يجب علينا الانتفاع من الوسائل والأسباب المُتاحة لتحقيق أهدافنا، ونعتقد أن الله هو من جعلها في طريقنا، مما يعني أنها جزء من نِعم الله علينا، وكلّما فقدنا هذه الأسباب أو عجزنا عن الانتفاع منها، وجب علينا حينئذٍ طلب العون والمساعدة من الله تعالى.

ولمّا كتب الله تعالى على الإنسان أن يعيش في هذه الدنيا وأن يتعامل مع المادّيات، فإنه يأنس بها ويتلذّذ بنعمها أيضًا، والحكمة من وجود مثل هذه الملذّات في الدنيا هي أن تكون وسيلةً لتأمين احتياجات الإنسان، لكن رغم ذلك يجب على الإنسان أن يسعى للإفادة بمقدار الضرورة من لذائذ الدنيا، ويحذر من التعلّق بها والهوس بملذّاتها، ويتمكّن من ترويض نفسه حتى يتجنّب التأثّر بمظاهرها وزخرفها.

السُبل الناجعة للتقليل من تعلّق الإنسان بالدنيا

١. التركيز على عيوب الدنيا

من السبل المتّبعة لتقليل تعلّق الإنسان بالدنيا والهوس بملذّاتها، التركيز على عيوبها. فلو اهتمّ الإنسان بمعرفة عيوب شيء معيّن كما يهتمّ بجاذبية ذلك الشيء، لما تعلّق به، وحتى لو ركّز المرء على جاذبية ذلك الشيء وحسنه، لكنه في الوقت نفسه فكّر بعيوبه أيضًا، لتمكّن من تقليل تعلّقه به؛ ولذلك نرى الإمام السجّاد عليه السلام قد أشار في مناجاته إلى عدد من العيوب الكمّية والكيفية للدنيا، كذلك أشار القرآن الكريم بعبارات مختلفة إلى عيوب الدنيا، منها ما جاء في آية قصيرة في كلماتها عظيمة في معناها، حيث يقارن الله تعالى بين الدنيا والآخرة، ويبيّن الأفضلية

الكمّية والكيفيّة للآخرة على الدنيا، وبالنتيجة تُشير هذه الآية إلى عيبين كلّيين لهذه الدنيا، واحد كمّي وواحد كيفي، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

فلذائذ الآخرة أفضل بكثير من الناحية الكيفية من لذائذ الدنيا، وبالتالي فإن لذائذ الدنيا لا يمكن مقارنتها أبدًا بلذائذ الآخرة، كذلك من الناحية الكمّية فإن لذائذ الدنيا زائلة ومحدودة، في حين أن لذائذ الآخرة دائمه لا متناهية. وفي الدنيا يكون عمر الإنسان محدودًا وإفادته من نعم الدنيا محدودةً أيضًا، بينما عمر الإنسان في الآخرة أبدي، مما يعني إفادته الأبدية من لذائذ الآخرة ونعمها اللامتناهية.

والآن لو فكّر الإنسان العاقل وقارن بين لذائذ الدنيا ونِعمها ولذائذ الآخرة ونعمها، لوجب عليه أن يرجّح لذائذ الآخرة الأشدّ والأكثر والأبدية على لذائذ الدنيا الناقصة والمحدودة والزائلة، كما نرى ذلك عند الإنسان في الدنيا حيث يرجّح عادةً بعض اللذائذ الدنيوية الأشدّ والأكثر دوامًا من تلك الضعيفة والوقتية.

الدنيا مليئة بالآلام والمصائب

السبيل الثاني لتقليل تعلّق الإنسان بالدنيا والهوس بمظاهرها، هو التركيز على الآلام والمصائب والمشاكل التي يواجهها الإنسان في الدنيا (ويمكن اعتبار هذا العامل ضمن مصاديق التركيز على عيوب الدنيا ونواقصها)، فمن الصفات البارزة في الجنّة هي أن الإنسان لا يشعر فيها بأي ألم أو حزن أو تعب: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

---

(١) سورة **الأعلى**، الآية ١٧.

شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1].

وعلى العكس من ذلك، فكل عمل يقوم به الإنسان في الدنيا يكون مصحوبًا بالتعب والألم، حتى التفكير والأكل لا يخلو من التعب أيضًا، بل حتى استمتاع الإنسان بأفضل لذّاته في هذه الدنيا، تجده **يشعر بالتعب** *ما* أن يشبع رغبته منها، فيملّ منها ويتركها. فكل عمل أو حاجة من احتياجاتنا الدنيوية عادةً ما يكون مصحوبًا بالتعب، ويتطلّب منا ومن الآخرين بذل جهود مُضنية لإنجازه، فمثلًا إعداد الغذاء والخبز الذي نأكله يوميًا، يتطلّب من الإنسان العمل الشاق حتى يحصل على المال اللازم لشرائه، وكذلك يتطلب من الآخرين بذل جهود كبيرة في زراعة الحنطة ورعايتها وحصادها، ثم تحويلها إلى طحين يستعمل في إعداد الخبز الذي نحتاجة في غذائنا. فكل هذه الجهود المضنية والعمل الشاق لم يكن سوى لإعداد حاجة واحدة من احتياجاتنا الدنيوية، وهي إعداد الغذاء والتلذّذ في أكله.

كما أن بعض احتياجاتنا ومستلزماتنا تحتاج إلى وقت طويل جدًا لإعدادها، وقد تتطلّب من الإنسان فترةً طويلةً قد تصل إلى عشرين سنةً من العمل الشاق والجهد المضني حتى يتمكّن من إعداد مقدّماتها، فمن يُريد الزواج مثلًا يحتاج أن يكمل عدّة سنوات في الدراسة وترقّي مراحل التحصيل المختلفة حتى يحصل على شهادة تمكّنه من الحصول على وظيفة جيّدة، ثم يسعى إلى توفير المال اللازم والمكانة الاجتماعية المرموقة التي تؤهّله لتأسيس عائلة وحياة اجتماعية مناسبة.

---

(١) سورة **فاطر**، الآيتان ٣٤ - ٣٥.

إذًا، يحتاج الإنسان أحيانًا إلى عدّة سنوات لتأمين بعض احتياجاته الضرورية والحصول على لذّة محدودة كلذّة الزواج وتشكيل العائلة. ورغم كل هذه الجهود المضنية والتعب والإرهاق الذي يبذله الإنسان في سبيل توفير بعض احتياجاته الضرورية، لكن نراه يفخر بهذا الجهد وأنه تمكّن أخيرًا من تحقيق حلمه وبلوغ غايته، وعلى العكس نرى أولئك الذين لم يوفّقوا في تحقيق حلمهم وبلوغ هدفهم يشعرون بالحزن والأسى على ما فاتهم.

ويمكن أن نضيف إلى هذا التعب والألم بعض المشاكل الأخرى كالأمراض والآلام وما يشعر به الإنسان من حزن وأسى على فراق الأحبّة والأعزّاء، فأحيانًا يفقد الإنسان في ليلة واحدة عائلته في حادثة أو زلزال فيبقى يشعر بالألم والحزن طيلة حياته.

الزهد ونبذ الدنيا، صفة تليق بأحبّاء الله وأوليائه

لو يمعن الإنسان التفكير بآفات هذه الدنيا ومشاكلها ومصائبها، ويؤمن بالآخرة والخلود في الجنّة الطاهرة من كل هذه الآفات والمشاكل والآلام، ثم يقارن بين هذه الدنيا وبين الجنّة، لما تعلّق بعدها بلذائذ الدنيا المحدودة المصحوبة بالألم والحزن والمشقة والتعب، ولاتخذ سبيل الزهد والإعراض عن الدنيا وملذّاتها، للوصول إلى مقام الزهد الذي كان الإمام السجّاد عليه السلام يسأل الله تعالى في مناجاته أن يمنّ عليه به ويوفّقه لبلوغه، حيث يقول:

«إِلَـهِـي فَـزَهِّـدْنَـا فيهَا، وَسَلِّمْنَا مِنْهَا بِتَوفِيقِكَ وَعِصْمَتِكَ، وَأَنزِعْ عَنَّا جَلابِيبَ

مُخَالَفَتِكَ، وَتَوَلَّ أُمُورَنَا بِحُسْنِ كِفَايَتِكَ، وَأَوْفِرْ مَزِيدَنَا مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِكَ، وَأَجْمِلْ صِلاتِنَا مِنْ فَيْضِ مَوَاهِبِكَ».

كلمة «الزهد» و«الزهادة» تعني *في اللغة ترك الشيء والإعراض* عنه، وضدّه: الرغبة في الشيء، والحرص. وقد أشار القرآن الكريم إلى زهد الذين اشتروا يوسف عليه السلام ورغبتهم عنه في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[1].

فالزهد بالدنيا يعني عدم الرغبة فيها والإعراض عنها، والزاهد من يعرض عن كل ما في الدنيا، وهو التارك لها وما فيها. ورغم أن الزاهد لا يتوقّف عن العمل والسعي لتأمين ما هو ضروري لحياته ومعيشته، غير أنه لا يتعلّق بالدنيا ولا يحرص على ملذّاتها، فالزاهد مصداق قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2].

والزهد المطلوب في الإسلام هو أن يعيش الإنسان حياةً بسيطةً خاليةً من الترف والإسراف وأن يعرض عن مظاهر الدنيا وزخرفها، حتّى يتمكّن من أداء مسؤولياته على أكمل وجه.

ومن البديهي أن اتخاذ هذا الأسلوب في العيش ليس بسبب حقارة الدنيا أو التهرّب من المسؤوليات الاجتماعية، بل الزهد في الإسلام هو السبيل الأمثل لقيام الإنسان بمسؤوليّاته بشكل أفضل، ومواجهة الأفكار والنظريات الإفراطية، وعدم التعلّق بمظاهر الدنيا المادّية والهوس

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٢٠.

(٢) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.

بملذّاتها. كما يؤدّي الزهد دورًا فعّالًا في كبح طمع الإنسان وسعيه وراء إشباع شهوات نفسه وأهوائها، ويعمل على إنقاذ النفس من ضعفها أمام مظاهر الدنيا وملذّاتها.

وعلى ضوء ما تقدّم، نفهم أن الزهد في الإسلام لا يتعارض مع المال والسلطة، والواقع أن الزاهد هو الشخص الذي لا يُحبّ مظاهر الدنيا أكثر من الحقّ أو الله تعالى، ولا يضحّي بالأهداف الإلهية في سبيل الأهداف الدنيوية، وهو الذي يعتقد بأصالة الآخرة، ويعتبر الدنيا مجرّد وسيلة ومقدّمة لبلوغ الآخرة.

ومما مرّ يتّضح الفارق بين الزهد والرهبانية التي كانت شائعةً في الديانة المسيحية والبوذية؛ لأن الرهبانية تعني ترك الدنيا، والهروب من المسؤولية، والعزلة، بينما يتعارض هذا السلوك مع روح الإسلام وتعاليمه؛ فالإسلام يعتبر جميع مظاهر الحياة - نظير المال والأولاد والسلطة - أدوات ووسائل مهمّة في طريق تكامل الإنسان وتعاليه، وجميعها نِعم الله التي مَنّ بها على الإنسان حتى يستثمرها بالشكل الصحيح، لا لأجل إعمار هذه الدنيا فحسب، بل ولإعمار آخرته أيضًا. والاستثمار الصحيح للدنيا هو أن لا يعتقد الإنسان بأصالة الدنيا ومظاهرها، وأن يعتبرها مجرّد نِعمة إلهية منّ الله بها علينا حتى نستفيد منها لبلوغ مراتب الكمال والفوز بالسعادة الأبدية في الآخرة، وكما قيل: «**الدُّنيَا مَزرَعَةُ الآخِرَةِ**»[1].

كما يرى الإسلام أن كل ما في هذه الدنيا من خلائق وموجودات هو حسنٌ وخير، وأن الله لم يخلق موجودًا يتّصف في حدّ ذاته بالشرّ والقبح؛ لهذا فالدنيا ومظاهرها في حدّ ذاتها ليست قبيحةً، ولا حتى

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٣، الباب ١٢٤، الصفحة ١٤٨، الحديث ١.

التعلّق بها، الذي يتلائم مع فطرة الإنسان وانجذابه الطبيعي نحوها، فقد قال رسول الله ﷺ: «**الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الحَلالِ وَلا إِضَاعَةِ الْمَالِ وَلَكِنِ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنيا أَنْ لا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ**»[1].

الله يتولّى تدبير أمور أحبّائه بفضله وكرمه ورحمته الواسعة

يسأل الإمام السجّاد عليه السلام الله تعالى أن يتولّى إدارة أموره بحسن كفايته وتدبيره، فالإنسان لديه احتياجات كثيرة في هذه الدنيا يسعى لتهيئتها كحاجته إلى الغذاء واللباس والمسكن، ولا يحقّ لأي شخص أن يحرم نفسه من الإفادة من احتياجاته الضرورية اللازمة لمعيشته، ومنها حقّه في الحياة والتمتّع بنعمها وطيباتها. والسعي لتحصيل هذه الاحتياجات وتوفيرها يدفع الإنسان نحو الدنيا، حتى أنه قد يضطر إلى الانشغال بتوفير هذه المستلزمات الضرورية طيلة حياته، بل قد يضطر الإنسان إلى السهر طيلة الليل في التفكير بوسيلة ناجعة لتأمين واحدة من احتياجاته أو لرفع مشكلة قد تواجهه في حياته.

ومن الآفات التي قد يبتلي بها الإنسان في هذه الحياة، هي انجذابه تدريجيًا للدنيا والأنس بمظاهرها والتعلّق بها أثناء انشغاله بأمور حياته اليومية أو سعيه في تأمين إحتياجاته الضرورية، وهنا تبرز عناية الله ولطفه بالإنسان، فلو منّ عليه بتدبير أموره لتمكّن هذا الإنسان من حلّ مشاكله وتأمين إحتياجاته في وقت قصير، لينصرف بعدها إلى أداء واجباته الأخروية وعبادة ربّه والتفكير في المسائل الأساسية في هذه الحياة.

---

(١) أبو القاسم بايندە، **نهج الفصاحة**، الصفحة ٥١٢، الحديث ١٧١٢.

وأحيانًا قد تتطلّب الظروف المحيطة بالإنسان أن يسعى لاستثمار الدنيا أقصى ما يمكن، وفوق ما تقتضيه الضرورة وأكثر مما يحتاجه في تأمين احتياجاته الشخصية، حتى يتمكّن من الترقّي في الجانب المعنوي والديني، فمثلًا من يرغب في تطبيق سنّة الإنفاق في سبيل الله والإحسان وعمل الخير وبناء المشاريع الخيرية، فإنه سيحتاج إلى ثروة كافية حتى يتمكّن بواسطتها من القيام بأعماله الخيرية وصرفها في سبيل الله، لتكون وسيلةً لترقّيه مراتب الكمال والتعالي، وفي هذه الحالة لو منّ الله عليه بفضله وفتح له خزائن كرمه حتى لا يضطر إلى العمل طيلة وقته لِكسب المال اللازم لهذا الغرض، لتمكّن الإنسان حينئذٍ من التفرّغ للقيام بأعمال الخير ومساعدة الناس وإعمار آخرته؛ لهذا يقول الإمام السجّاد عليه السلام في المقطع السابق من المناجاة: «**وَأَوْفِرْ مَزِيدَنَا مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِكَ**».

٢. إدراك لذّة الأنس بالله ومحبّته

تحدّثنا في بداية هذا المقال عن السبل الكفيلة بتقليل تعلّق الإنسان بالدنيا والهوس بملذّاتها، وتقوية التوجّه إلى الله تعالى. وبغض النظر عن السبيل الأول الذي أشرنا إليه سابقًا، يوجد سبيل آخر لتحقيق هذا الهدف، وهو أهم السُبل وأثمنها وأسماها، ألا وهو إدراك محبّة الله وتذوّق حلاوة الأنس به. وقد وَرَدَت في القرآن الكريم والروايات والأدعية الكثير من العبارات التي أشارت إلى هذه الوسيلة الناجعة، وبيّنت كيفية الإفادة منها، وأشارت إلى تأثير محبّة الله في تقليل تعلّق الإنسان بالدنيا، وابتعاده عن المعصية والذنوب. ومن ذلك على سبيل المثال ما وَرَدَ عن أمير المؤمنين عليه السلام في المناجاة الشعبانية، حيث يقول: «**إِلَهِي لَمْ يَكُنْ لِي حَوْلٌ فَأَنْتَقِلَ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إِلّا فِي وَقْتٍ أَيْقَظْتَنِي لِمَحَبَّتِكَ وَكَمَا**

أَرَدْتَ أَنْ أَكُونَ كُنْتُ فَشَكَرْتُكَ بِإِدْخَالِي في كَرَمِكَ وَلِتَطْهِيرِ قَلْبِي مِنْ أَوْسَاخِ الْغَفلَةِ عَنْكَ».

فعندما يكون الإنسان مستعدًا لأن يترك لذّةً معيّنة، ليظفر بلذّة أكبر وأسمى، فإنه إذا ما تذوّق لذّة الأنس بالله لن يكون بعدها مستعدًا لترك هذه اللذّة التي لا نظير لها أبدًا، وبالتالي سيُعرِض عن التعلّق بلذائذ الدنيا التافهة والزائلة. والحقّ أن محبّة الله والأنس به تمنع الإنسان من التعلّق بمظاهر الدنيا، لكن تذوّق طعم لذّة هذا الأنس وتجلّي محبّة الله في قلب الإنسان لا يمكن أن تتحقّق بسهولة ويسر، بل تحتاج إلى بذل جهود مضنية، وسعي متواصل، وتهيئة مقدّمات كثيرة، أهمّها أن يستحقّ الإنسان لطف الله وعنايته، وأن يتّصف بما يؤهّله لأن يتعلّق قلبه بمحبّة الله؛ لأن قلب الإنسان بتوفيق من الله ولطفه يصبح محلًا لتجلّي محبّته سبحانه، وعن هذه الحالة يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَغْـرِسْ في أَفْئِدَتِنَا أَشْجَارَ مَحَبَّتِكَ، وَأَتْمِمْ لَنَا أَنْوَارَ مَعْرِفَتِكَ، وَأَذِقْنَا حَلاوَةَ عَفْوِكَ وَلَذَّةَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَقْرِرْ أَعْيُنَنَا يَوْمَ لِقَائِكَ بِرُؤْيَتِكَ».

أحبّاء الله، يتمنّون لقاء المعبود في الآخرة

في نهاية المقطع السابق من المناجاة، يسأل الإمام السجّاد عليه السلام الله أن يقرّ عينه برؤية جمال وجهه الكريم. ونحن قد أشرنا كثيرًا في المباحث السابقة إلى مفهوم رؤية الله ولقائه يوم القيامة، وقلنا إن عالم المادّة محدود جدًا بحيث لا تسنح للإنسان فيه فرصة لقاء الله ورؤيته

في الدنيا. وكانت خلاصة كلامنا هي أن روح الإنسان في الدنيا تتعلّق بالبدن مما يفرض عليها نوعًا من المحدودية التي تتلائم مع محدودية عالم المادّة. ونظرًا إلى تعلّق الروح بالبدن والمحدودية التي يفرضها البدن تصبح الروح بمنزلة الموجود المادّي، وقدرة تحمّل البدن وقواه للحالات الروحية والانفعالات النفسية الشديدة محدودة جدًا، فلا يتحمّل بدن الإنسان بعض هذه الانفعالات النفسية؛ ولهذا نرى بعض الناس يُغمى عليهم أحيانًا من شدّة التأثّر والاشتياق مثلًا، فالأم التي يحترق قلبها شوقًا لرؤية ولدها الذي لم تره لسنوات طويلة، قد يُغمى عليها من شدّة التأثّر عندما تلتقي به، بل قد تتعرّض لسكتة قلبية من شدّة الشوق؛ لهذا فليس لبدن الإنسان وأعصابه القدرة الكافية لتحمّل كل أنواع اللذّة، أو كل أنواع المصائب.

ويتضح مما تقدّم، أن الإنسان في هذه الدنيا لا يتحمّل مُشاهدة نور الله المطلق أو رؤية جمال وجهه الكريم، كما حصل مع نبي الله موسى عليه السلام، فرغم أنه كان من أولي العزم، إلا أنه لم يتحمّل لقاء الله ورؤية جماله الربوبي، فعندما طلب من الله تعالى أن يريه نفسه، وقال كما يحكي عنه القرآن الكريم: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، أجابه الله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

فإذا كان تجلّي الله للجبل يجعله دكًا ويتلاشى تمامًا من شدّة نوره الربوبي، ويتأثّر موسى عليه السلام من شدّة هذه الحادثة المهيبة على قلبه،

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.

فُيغمى عليه، فمن الطبيعي إذًا أن لا يتحمّل الإنسان العادي لقاء الله في هذه الدنيا. وهذا يعني أن طبيعتنا المادّية تمنعنا من إدراك لذّة لقاء الله في هذه الدنيا، بيد أنه في عالم الآخرة حيث تزول الموانع المادّية عن وجود الإنسان، يصبح بإمكانه لقاء الله خاصّة بالنسبة لأولياء الله وأحبّائه.

وفي نهاية مناجاة الزاهدين، يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَخْرِج حُبَّ الدُّنيا مِنْ قُلُوبِنَا كَمَا فَعَلْتَ بِالصَّالِحينَ مِنْ صَفْوَتِكَ وَالأَبْـرَارِ مِنْ خَاصَّتِكَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وَيَا أَكْرَمَ الأَكْرَمينَ».

والحمد لله ربّ العالمين